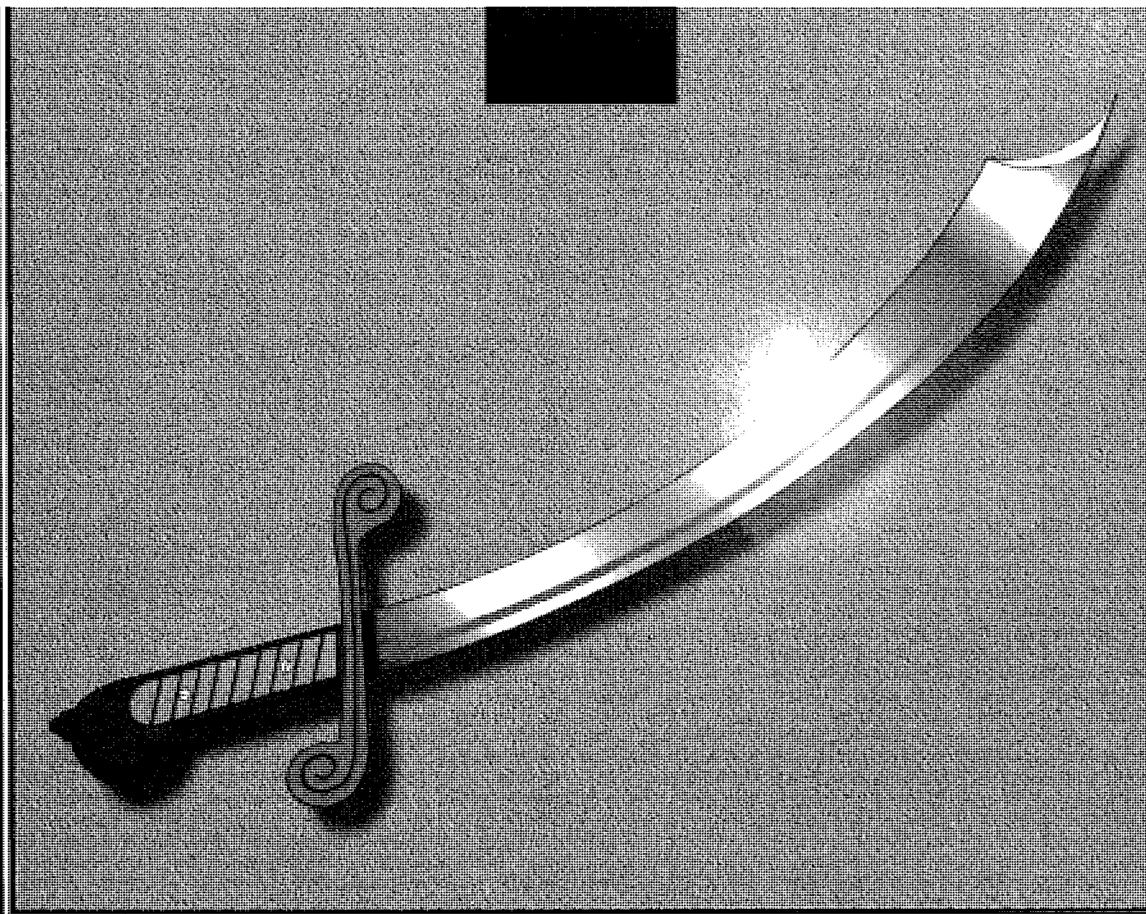


المتآمرون على المسلمين الشيعة

من معاوية إلى ولاة الفقه

الإمام المجدد/ الدكتور موسى الموسوى

تصدير المفكر الإسلامى أ. د/ إبراهيم بسيونى

المتآمرون على المسلمين الشيعة

الكتاب: المتآمرون علي المسلمين الشيعة
من معاوية إلي ولاة الفقه
الكاتب: الدكتور الإمام موسى الموسوى
الطبعة: الأولي ١٩٩٥
الثانية١٩٩٦
الناشر: مكتبة مدبولى
القاهرة -طلعت حرب
ت:٥٧٥٦٤٢١
الغلاف: الفنان محمد لطفى
الجمع التصويرى: إى. إم. جرافيك
ت:٢٨٤٢٢٤٤

المتآمرون

على المسلمين الشيعة

من معاوية إلى ولاة الفقه

الإمام المجدّد

الدكتور موسى الموسوى

صدّر له المفكر الإسلامى

أ. د. إبراهيم بسيونى

مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى ١٩٩٥

الطبعة الثانية ١٩٩٦

ميدان طلعت حرب

القاهرة ت: ٥٧٥٦٤٢١

تصدير

بقلم الدكتور/ ابراهيم بسيوني

تفضَّل العلامة الدكتور / موسى الموسوى بإهدائي مشكوراً نسخة من الطبعة الأولى لكتابه(المتآمرون على المسلمين الشيعة- من معاوية إلى ولاة الفقه) وعندما اقترحت عليه أن يعاود طبعه ونشره فى مصر والبلدان العربية وأن يأذن لى فى إجراء بعض التنقيح والتصحيح للطبعة المذكورة. لم يتردد، ووافق على المطلبين.

وأنا حينما أتولى عنه تقديم هذا الكتاب لمنطقتنا فإنما أشعر بالاعتزاز لأنى أعلم أنه تتمة لجهوده الرائعة فى الفكر الدينى بعامة والشيعى بخاصة. فمنذ أكثر من خمس سنوات ولايكاد يمر عام حتى يفاجئ قراءه بعمل جديد مبتكر، وتستطيع- ياعزيزى القارئ – أن تحدد مهمة هذه السلسلة من عناوينها (الشيعة والتصحيح) و(عقائد الشيعة) و (الثورة البائسة) و(الجمهورية الثانية) ثم (المضطهدان : شيعة العراق وشيعة إيران). . وأخيراً هذا الكتاب الذى بين يديك .

واضح من استعراض هذه العناوين أن الرجل يشعل وحده ثورة فى الفكر الإسلامى لم يحدث لها نظير منذ عهد بعيد . فهو بهذا من أحسن الردود على أولئك الذين يزعمون أن ينابيع الفكر والاجتهاد فى الإسلام قد جفَّت إلى الأبد .. إذا أضفت إلى هذا أنه بحكم إنتمائه إلى المذهب الشيعى، بل إن أسرتة تحتل مركز القيادة فى هذا المذهب أدركت خطورة صنيعه فى مجال الحقيقة، وأيقنت أى مخاطر احتملها، ووقفت على صحوة ضميره العلمى وضميره الأخلاقى. .وعرفت من

أى المعادن هذا الباحث الذى ستقرأ له.

أتصور الآن أنه لو أحسن الناس استقبال هذا الكتاب وأخواته فإنهم يحسنون إلى أنفسهم وإلى الحقيقة وإلى عقيدتهم . . فى نهاية الأمر. وأتصور أن أحكاماً تلوكها الكتب والألسنة عبر الأجيال سوف تتوارى، وأن أحكاماً جديدة سوف تطل بوجهها وتطرح نفسها. ثم تفرض نفسها. وأتصور أن ذلك كله سيصاحبه تغيرات فى مجالات السياسة والثقافة والأكاديمية والاجتماع بل فى العلاقات الدولية.. ولست أسرف فى هذا التصور لأننا نعلم أن ماله علاقة بالتدين والعقيدة شديد الاتصال بكل الأمور الحياتية للناس سواء أكانوا حكّاماً أم محكومين. . فى عالم يوشك أن يكون قرية صغيرة.

قد تبدو ثورة الموسوى الإصلاحية وقد انطبعت بطابع الهدم ولكن السؤال المتمهل هنا : أى هدم؟

والجواب أنه هدم لأوضاع وأحكام زائفة أخذت موقعها فى التراكم التاريخى حتى أعطاها الزمن، وبخُمد العقول، وابتزاز ذوى المصالح من الطغاة، ومن المُرتدين عباءات التدين والذين بدل أن يكونوا هداة صاروا جُباة، والتف حول هؤلاء وأولئك أحجام هائلة من المرتزقة المضللين. . وكلهم .. كلهم أمسكوا برقاب أفراد هذه الأمة البائسة، فخنقوها منذ عهد مبكر!! حتى أصبحت كغُثاء السَّيْل!

وإذاً فالهدم فى ثورة الموسوى مقدمة لبناء شامخ هدفه هذا الإنسان المسلم البسيط كى يعيش يومه وغده فى كنف إسلامه الصحيح، وبكلمات أخرى فى كنف جو صحى تملؤه الحرية والسيادة، والعدل والمساواه والإخاء. . وما يتصل بذلك من القيم الرائعة التى يشهد الباحثون من كل أقطار الأرض أن الإسلام قد دعا إليها منذ أربعة عشر قرناً، وأنه بها قد خلّص الناس من الظلم والظلمات، لأنه سعى إلى الناس وسعت إليه الناس للخلاص من البطش والضلال والابتزاز والاستعباد. فالموسوى

بهذه الثورة التصحيحية يقول لمن أساء فهم الإسلام من مواطنين وأجانب إنكم عرفتم شيئاً قد تسرب إليه التشويه والمسخ، وآن أن تمتلئ أبصاركم وبصائركم بحقائق دين الله كما أراده الله!

والموسوي بهذه الثورة التي تريد أن تخلص البيت الشيعي مما أصابه وهو أعلم الناس بما أصابه بحكم اقترابه من المصادر الأساس له ستدنو به من توأمه البيت السُنيّ حثيثاً، وسيتلاقيان ويصيران بنياناً(واحداً) تقوى دعائمه، وترتفع طوابقه، ويكبر صحنه، وترفرف فوقه أعلام (التوحد) و(التوحيد). . ولن يتردد في جنبات هذا البيت الواحد صوت حاكم طاغٍ، ولاصفقات تاجر يتدثر باسم الدين كي يمتص الجيوب، ولسوف تختفي كل الأقنعة لأن دعاوي ارتدائها سوف تتساقط. . لأن الموسوي قد وضع إصبعه على الداء . وشخّص الدواء.

# # #

ونحن – مع اختلافنا مع المؤلف في بعض مواقفه وتحليلاته – إلا أننا كما قلنا عنه في مقال سابق ننظر إليه على أنه قام في ثورته الإصلاحية بنفس الدور الذي قام به الفيلسوف الألماني مارتن لوثر في ثورته البروتستية الاحتجاجية ضد هيمنة الكنيسة في العصور الوسطى الأوربية والتي كانت عاملاً منشطاً للإصلاح الديني في عصر النهضة. ولهذا يجب علينا أن نأخذ صنيعه مأخذ الجد فنعقد المؤتمرات التي تضم أعلام أهل الشيعة وأهل السُنة، ونناشد الجامعات ومعاهد العلم ووسائل الاستنارة لتناقش دعاواه في حرية ودون تعصب،ونخرج من ذلك كله برصيد معرفي نقوم به أخطاء الماضي والحاضر ونهيئ أنفسنا – وبالتالي عوام المسلمين لمستقبل مشرق خالٍ من الحقد والسخيمة والكراهية ومفاهيم (المخالفة) والابتزاز والطغيان. . وبهذا نأخذ مكاننا اللائق على هذا الكوكب؛ أمةً واحدةً وعقيدة واحدة. . ولسوف نحسد أنفسنا أن الله سبحانه قد أطال في أعمارنا حتى شهدنا عصر

الانسجام الديني الباعث على حياة حرة كريمة. . وعندما نُغيِّر أنفسنا في ضوء ذلك . . فإن الله سبحانه سيغيِّر حالنا إلى الأفضل والأمثل.

# # #

أما الموسوي الإنسان. . فإنني أقول له « إن العلماء ورثة الأنبياء » كما قال رسولنا الأعظم. وعليهم أن يحتملوا في سبيل دعوتهم مما احتمل الأنبياء، ولأنْ يهدي الله بُك إنساناً خير لك من الدنيا وما فيها.

أقول هذا وأنا أعلم أنه قد تعرض للتشريد والسجن. بل أكثر من ذلك فإن في جسده بقايا رصاصات خائنة حاولت تصفيته جسدياً، ولم يزده ذلك إلا إصراراً على محاربة أعتى الطغاة من الحُكَّام. . وإني على ثقة أنه في خندقه سوف تحميه صدور الملايين الذين يدينون بإخلاصه في دعوته، والله سبحانه كافٍ عبده الذي يختاره للتصدر إماماً للخير والحق والجمال. . .

فيأيها الفارس النبيل . لقد أدَّيْتَ الأمانة، وما عليك بعد ذلك من تثريب . . ويكفيك أن تسمع قول إمامنا العظيم علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: « لا يُسأَل الجهلاء لما لم يَعْلَموا وإنما يُسأَلُ العلماءُ لِما لَمْ يُعلّموا » وأنت قد علّمت، وأشهدتَ . فطبْتَ حَياً وميتاً والله ناصرك. . وهو القوي العزيز.

مقدمة وتمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنى أحمدك حمد الشاكرين، وأصلى وأسلم على محمد المبعوث للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد... فلأول مرة فى تاريخ الأمة الإسلامية وتاريخ الفكر الإسلامى، والصراع الدائرة رحاه بين السنّة والشيعة وقراءة المئات من المجلدات التى ألفت حول الإمامة والخلافة، منذ ألف ومائة عام، نصل إلى نتائج خطيرة تقلب موازين الصراع بين الفريقين رأسا على عقب. ولست أبالغ إذا أعلنت بكل صراحة ووضوح أنّ النتائج الخطيرة التى وصلْتُ إليها بعناية ربانية وتوفيقات سبحانية، وبعد نصف قرن من البحث والاستقصاء والتعمق والتوفيق، فيما خلّفه لنا علماء الفريقين فى كتبهم، عبر القرون قد خَفِيَتْ على كثير من أعلام هذه الأمة، ولاسيما الذين بذلوا جهدا حثيثا فى تأليف الكتب التى تبحث عن الإمامة والخلافة، حتى هذه اللحظة من عمر الزمان.

إن النتائج الخطيرة التى وصلنا إليها. وها نحن نبحثها فى هذا الكتاب بشىء من التفصيل تدور حول ثلاثة محاور، كان لكل محور آثاره الخطيرة فى مسيرة هذه الأمة سنّة وشيعة.

فلو أن المسلمين منذ ظهور المؤامرة الكبرى على كيانهم فى أوائل القرن الرابع الهجرى التى أدت إلى هذا الانقسام الخطير بين صفوف الأمة الواحدة أدركوا عِظَم المؤامراة وتفادوها لوفروا على الأمة الإسلامية جهدا عظيما ودماء ونفوسا وأموالا لا تعد ولا تحصى.

ومع أنني لست على يقين من أن هذا الكتاب سيغيِّر المنهج الفكرى عند هذه الأمة بالسرعة التى تواكب العصر، لأن الرواسب التى ورثتها الأجيال منذ القرون وبقيت تتحكم فى العقول والقلوب لا تسمح لكلمة الإصلاح والحقيقة، أن تحل محل التعصب والإقرار بالحقيقة فإن هذا الكتاب وما يحتوى بين دفتيه من الحقائق لا بد وأن نهديه إلى الأجيال القادمة التى لم تزل فى الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة.

المحـور الأول : فى هذا الكتاب يدور حول الإمامة والخلافة، ونحن نثبت بصورة واضحة لا شك فيها ولا جدال، أن المسلمين الأوائل بعد وفاة رسول الله (ص)، حتى أوائل القرن الرابع الهجرى، كانوا يعتقدون فى الخلافة والإمامة على أنهما منصبان مختلفان، وذلك تنفيذاً للنص الدستورى «القرآن الكريم» و «متمم الدستور»؛ حديث رسول الله (ص) ووصيته. فالخلافة كانت تعنى «القيادة السياسية» المنصوص عليها فى القرآن الكريم بقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلوة وَأَمْرُهُمْ شورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ)[1].

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِر لَهُم وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...)[2].

والإمامة كانت تعنى «القيادة الروحية»، وقد فرضت بالوصية وأنيطت إلى الإمام على نصاً ثابتاً فى أحاديث متواترة :

١- الشورى : ٣٨.
٢- آل عمران : ١٥٩.

«تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[١].

و«القيادة السياسية» كانت تتم بانتخاب الأمة لقائدها السياسي بالشورى، ومنحه صلاحيات الخلافة التي كانت إدارة دفة الحكم والسياسة وتدبير قواعد الدولة وتقرير شئون الحكم التي تتعلق بالجانب المادي والعملي والسياسي في الحياة الاجتماعية. أما «القيادة الروحية» فهي الاهتمام بالجانب الروحي والمعنوي في الأمة وبيان أحكام الله وشريعيه والاهتمام بكل ما يتعلق بالجانب الروحي في الإنسان. فالإسلام دين يضمن سعادة المجتمع ماديا ومعنويا، فالخليفة يتولى شئونها الروحية والمعنوية، وهذه القيادة حصرها رسول الله (ص) في الإمام علي وأئمة أهل البيت، ونصت عليها الأحاديث المتواترة في كتب الفريقين.

وهكذا شاءت العدالة الإلهية أن تمنح الإنسان الذي يولد بلا خيار ويموت بلا خيار، حرية تقرير المصير بين الحالتين اللاإراديتين، ليوفر عليه ما لم يمنح عند الولادة والموت معا. وعلى هذه السيرة العظيمة سار السلف الصالح من أمة محمد ﷺ، واستمرت الأمة الرشيدة في الساحة بعد وفاة رسول الله (ص) تنتخب الخليفة وتحاسبه وتنتقده وتأخذ عليه ما تراه غير وارد أو غير صحيح، حتى أن قال أحدهم للخليفة عمر بن الخطاب :

«إذا رأينا فيك اعوجاجا قوّمناك بالسيف»

---

١ – أخرجه الحاكم في مناقب علي من مستدركه ص ١٠٩ مجلد ٣، ورواه كتب المسانيد على اختلاف في العبارات

وأما الإمامة فكانت للإمام علي وكان يقود الأمة روحيا ومعنويا، وعبر عمر بن الخطاب عن تلك القيادة بقوله :

«لولا عليّ لهلك عمر»

وقال في مكان آخر : «علي أقضاكم»

والإمام علي يعبر عن قيادته الروحية قائلا :

«ولقد كان يجاور رسول الله (ص) في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل عليه الوحي (ص)، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة، فقال هذا الشيطان أيس من عبادته، إنك تسمع ما اسمع، وترى ما أرى إلا انك لست بنبي، ولكنك وزير وإنك لعلى خير[1].

واستمرت الأمة على هذه الحالة الرفيعة من الرقي الفكري والاجتماعي تسير في ظل القيادتين، حتى عام ٤١ هجري وهو العام الذي تنازل الإمام الحسن فيه عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، صونا لدماء المسلمين، ومع أن الإمام الحسن جعل في شروط هذا التنازل أن تكون الخلافة بعد موت معاوية بالشورى. حيث تختار الأمة من تشاء، إلا أن معاوية خان الشروط كلها وعمل جاهدا للقضاء على الخلافة والإمامة معا، فقد جعل الخلافة ملكا عضوضا في وريثه، وبذلك قضى على النص الدستوري في القرآن الكريم «الشورى» ومر بسب الإمام علي على المنابر، والبراءة منه للقضاء على

١- نهج البلاغة.

«العترة» وحرمتها، إنهاء لأمر الرسول ووصيته في الإمامة. وبذلك قضى على الثقلين اللذين خلفهما رسول الله (ص) في أمته.

غير أن كل ما فعله معاوية ومن بعده ابنه يزيد الذى أراده أن يكمل رسالة أبيه فى القضاء على الإمامة والعترة النبوية بالتصفية الجسدية فى يوم عاشوراء، حيث لم يسلم من تلك المذبحة الفظيعة إلا الإمام على بن الحسين الملقب بالسجاد، الذى كان مريضا ومسجى فى الفراش. مع كل هذا فإن المنهج الفكرى لدى الأمة الإسلامية بقى ثابتا فى عقيدتها فى الخلافة والإمامة حتى أوائل القرن الرابع. حيث ظهرت فكرة المزج بين الخلافة والإمامة على الساحة الإسلامية، بمؤامرة من الخلافة العباسية. التى كانت على شفا حفرة من السقوط والانهيار، كما كان البويهيون الذين استولوا على أجزاء من إيران فى عام ٣٢٢ هجرى، وأرسل الخليفة الراضى الخُلع واللواء إلى مؤسس دولتهم عماد الدولة، ومن ثم استيلاء هذا الأخير على بغداد عام ٣٣٤ هجرى وتغلبه على المطيع لله العباسى، كان لهم درو كبير فى التعاون مع الخلافة العباسية لإيجاد حالة خطيرة فى المجتمع الإسلامى آنذاك تفرق بين الأقلية المعارضة التى كانت آنذاك تدعوا إلى العودة إلى عهد السلف الصالح والشورى، وكانت مضطهدة باسم «شيعة أهل البيت» وبين الأكثرية الإسلامية التى كانت القاعدة لتلك القمة. وكانت وراءها وتساندها حتى ذلك التاريخ.

ولا شك أن البويهيين الذين كانوا يستفيدون من التفرقة بين الأقلية والأكثرية، وكان ضرب الشيعة بالسنة فى مصلحتهم لإضعاف الخلافة الحاكمة، وسيطرتهم المطلقة على البلاد، يؤيدون كل ما كان يعزز حكمهم، ، فلذلك لا نتعجب أبدا أن يقف فى هذا الخندق بعض مشايخنا من الشيعة مساندين ومؤيدين لفكرة المزج بين الخلافة والإمامة كى يحدث ذلك الأمر الخطير الذى سينبئك عنه هذا الكتاب.

المحور الثـانـى : فهو يكشف المؤامرة على إمامة أهل البيت والإمام المهدى على وجه الخصوص. الذى تنتهى قيادته الروحية بمؤامرة «تطويق الغيبة» بالصورة التى حصلت عام ٣٢٩ هجرى. حيث إن هذا المؤامرة كانت تعتبر ضرورية لتثبيت، فكرة المزج بين الإمامة والخلافة، وما يترتب عليه من آثار. فعدم وجود إمام من أئمة أهل البيت فى الساحة الإسلامية الكبرى يقوم بالدور القيادى الحاسم، كان يضمن تثبيت المؤامرة على الأمة الإسلامية التى كان ضحيتها الكبرى الإمام المهدى أولا، ثم الشيعة ثانيا ثم الأمة الإسلامية على العموم فى آخر الأمر.

ولأول مرة نكشف سراً خطيراً لم يشر إليه المؤلفون في الإمامة والخلافة عبر القرون، وهو أنهم لم يشيروا قط فى ابحاثهم إلى الموضوع الذى له صلة مباشرة بحياتنا اليومية، ليل ونهار، وهو الحلقة المفقودة التى لو اكتشف أمرها وعرفتها الشيعة، لا نقلبت كل الموازين عندهم رأسا على عقب. لقد كان جهد المؤلفين كله منصبا على إثارة أمور لا صلة لها بواقعنا الذى نعيش فيه، والكتب التى ألفها علماء الشيعة والسنة تدرو حول المحور الذى تتفاعل الشيعة معه عقيديا وعاطفيا، إنه الخوض فى بحث الإمامة والخلافة بمقياس واحد ومن نقطة انطلاقية واحدة. وهكذا فإن الصراع يدور حول أعماق التاريخ على أسس مصنوعة فرضت علينا، لصرف الأفكار عن الحقيقة الكبرى. أما الخوض فى المسألة التى تتفاعل معها الشيعة عمليا ليل ونهار فجعلوها خارج القوس، لأن الخوض فيها ينسف أساس الزعامات الشيعية المذهبية ويؤدى إلى كشف صراع رهيب خاضته المرجعية الشيعية المذهبية، لطمس صلاحيات الإمام المهدى والقضاء على فلسفة الغيبة وأثر وجود الإمام فى الساحة الإسلامية واغتصاب صلاحياته، وبعبارة أكثر وضوحا، فإن البحث عن الإمامة والخلافة في آلاف الكتب التى ألفت، من عصر الشريف المرتضى من أوائل القرن الخامس الهجرى، ومن ثم فى عصر الشيخ الطوسى، الذى أخذ المذهب

الشيعي فيه يتبلور ضمن أسس جديدة، وفي ظل مرجعية شيعية مستمرة حتى اليوم، لم نجد كلمة واحدة عن «تطويق الغيبة» ولا عن تلك الحلقة المفقودة فى تلك الغيبة، لأنها كانت تكشف المؤامرة الكبرى على أئمة أهل البيت. ولا سيما الإمام المهدى.

وأقول مرة أخرى إن الكتب التى ألفت فى الإمامة والخلافة عبر ١١ قرنا - كلها اهتمت بالجانب العاطفى وإيجاد حالة من العطف حول الخلافة بعد رسول الله (ص) ومزج الخلافة بالإمامة لصرف الأنظار كلها عن تلك المؤامرة الخطيرة التى اكتشفناها وأوضحناها ورفعنا الغطاء والحجاب عنها، لأول مرة فى تاريخ التشيع.

إننا أثبتنا فى هذا البحث، لماذا كان فقهاؤنا نحن الشيعة الإمامية، وأعلامنا ومشايخنا تسعى جاهدة لتثنى أفكار الشيعة عن ذلك الموضوع الذى يتفاعل مع واقعهم اليومى، وتجره إلى إعماق التاريخ، وتلقى عليه دروسا ومحاضرات فى أمور لا علاقة لها بواقعها اليومى، ألا وهو البحث عن الإمامة والخلافة بالصورة التى كانوا يرسمونها بعد وفاة الرسول (ص).

إن السبب فى ذلك الأمر، كان يعود كله إلى إخفاء تلك المؤامرة التى نسميها «بطوق الغيبة» والتى لو عرفتها الشيعة لأنهت المرجعية التى تسير وراءها منقادة لها، وهذه المرجعية تدعى نقل صلاحيات الإمام إليهم ووجوب الإطاعة لهم.

إن مؤامرة «تطويق الغيبة» لو كشف الغطاء عنها قبل هذا اليوم لعادت المرجعية الشيعية إلى حجمها الطبيعى، لا هيمنة ولا تصرف فى الأموال الشرعية باسم الخمس ونيابة الإمام، ولا ولاية للفقيه ولا ولا، وقد أصبح الشيخ الشيعى كالشيخ السنى يبين حكم الله بدون أن يكون كرسيه على هامة الشيعة، وبذلك لاسيمح أحد ألقابا تقشعر

من سماعها الأبدان مثل «آية الله»، «حجة الإسلام» وأمثالهما، ولن يحدث الصراع الذى ورثناه جيلا بعد جيل باسم الخلاف بين السنة والشيعة، والذى اشترك فى إثارته مشايخ الفريقين.

- واخيراً فإن هذا الكتاب سيجيب على هذا السؤال الخطير الذى يكشف لنا أبعاد المؤامرة : لماذا أُلّفت المئات من المجلدات والموسوعات، بل الآلاف حول الإمامة والخلافة على نهج واحد وتفسير واحد! بينما الكتب التى ألفت فى الإمام المهدى، ونقل صلاحياته إلى من بعده من الفقهاء وتطويق الغيبة، لا يصل إلى واحد بالمائة من الكتب التى أُلّفت فى الإمامة والخلافة! لماذا هذا العزوف عن أهم القضايا التى تتفاعل مع حياتنا نحن الشيعة الإمامية؟ لماذا ترك المؤلفون وأعلامنا؟ الحاضر الذى نعيش فيه وتمسكوا بالماضى السحيق؟!

المحور الثالث : هو أننا نثبت بصورة قاطعة أن كل البدع التى ألصقت بعقيدتنا نحن الشيعة الإمامية، وكل التجاويف والتجاعيد التى أضيفت إلى عقائدنا إنما دخلت بمؤامرة أموية – عباسية باركها البويهيون وبعض مشايخنا وكثير منها ألصقت بنا فى السنوات تلت «تطويق الغيبة» ونجاح المؤامرة على الإمام المهدى آخر أئمة أهل البيت، وبذلك يدفع الشيعة الإمامية ضريبة مؤامرة أموية عباسية بويهية أضاف عليها الصفويون، أستطاعوا إلى الإضافة – سبيلا، ولا نحن ولا السنة عرفنا أبعاد تلك المؤامرة التى كانت مؤامرة على السنة والشيعة معا، ناهيك من أنها لم تمر بخلد أحد حتى الآن، ولم تشر إليها الكتب والمؤلفات التى ألفت عبر التاريخ.

ومع أننى أعلم مسبقا أن حلفا غير مقدس سيجمع بين كثير من مشايخنا وبعض مشايخ السنة للتنديد بما يحتويه كتاب «المتآمرون» إلا أننى اشكر الله تعالى، فلقد تجاوزت

عقدة الاهتمام بفئة مصالحها الحيوية تتوقف على هدم كل السبل التى توحّد الأمة الإسلامية، وتنهى الفرقة والعداء بين الأمتين، فها أنا أخاطب فى هذا الكتاب الأفكار اللامعة، والعقول النيِّرة التى تستجيب لفهم الحقيقة ودركها، وأحثهم على استنباط الحقائق من بطون الكتب وأعماق التاريخ، ودراسة حياة المسلمين الأوائل فى عصر الرسول (ص) وبعده، وأن يخرقوا الحجاب الذى ضرب على العيون والعقول معا.

وأخيراً فها أنا أطمئن كل الاطمئنان إلى أن الأمة الإسلامية شيعة وسنة ستجتمع على الإقرار والقبول والاعتراف بما يتضمنه هذا الكتاب وعلى ما جاء بين دفتيه، إن لم يكن اليوم فغداً، وإن غدا لناظره قريب.

رسول للناس

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

بعث الله محمداً فى عصر كانت البشرية غارقة فى ظلام دامس، وكان يحكم الأكثرية الساحقة من المجتمع البشرى نظامان استبداديان جائران، لا وجود ولا أثر للقيم الإنسانية في ساحتيهما. كان يحكم الشرق الشاهنشاه الفارسى، وكانت بلاده ممتدة من العراق حتى بخارى، وكانت تحكم الغرب الروم الشرقية المتمثلة فى هرقل، الذى كانت بلاده ممتدة من فلسطين وسوريا حتى منتصف أوروبا وأجزاء من شمال إفريقيا آنذاك.

وكان لكل واحدة من الدولتين العظيمتين آنذاك مستعمرات صغيرة فى الشرق وفى الغرب، ودول متحالفة معها، وكانت الجزيرة العربية التى شرفها الله كى تكون مهبط الوحى والرسالة محاطة بهاتين الدولتين العملاقتين. فكان العراق وما والاها مستعمرة لفارس وكانت تحمى ملوكها المناذرة من الأعداء. وكانت سوريا وما والاها مستعمرة لروما، وهى تحمى ملوكها الغساسنة من أى هجوم خارجى يكدر صفوها. وكانت الجزيرة العربية ولا سيما مكة والمدينة مستقلتين عن هاتين الدولتين. أما مكة فكان يحكمها سادة قريش، وأما المدينة فلم تكن أكثر من معبر لقوافل الشتاء والصيف، وفيها كانت جالية يهودية تعيش فى قلاع وحصون منيعة. وكانت الأمة الفارسية وثنية مجوسية تعبد النار. حيث ترى فيها مظهراً لله، وكانت الأمة الرومانية مسيحية تؤمن

١- سبأ : ٢٨.

بالأقانيم الثلاثة «الآب، والابن والروح القدس». وكلتا العقيدتين بعيدتين كل الـ
عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـ

وكان سكان مكة وحواليها من يثرب فى الشمال إلى اليمن فى الجنوب
الأصنام على غرار خاص بهم، وكانت الأصنام المنصوبة حول الكعبة رمزا لعـ
وكانوا يتقربون إلى الله زلفى. أما الأخلاق الاجتماعية والتقاليد الدينية عندهـ
على حد تعبير ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فى حـ
النجاشى.

«أيها الملك كنا قوم جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش
الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف».

ونسمع مرة أخرى من المغيرة بن شعبة يقول ليزدجرد ملك فاره

«كان ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وأن يبغى بعضنا على بعض، وإن كـ
ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه».

فى مثل هذا المجتمع البعيد عن الرحمة والإنسانية بعث الله رسوله رحمة
وللناس أجمعين :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [1].

فهو رسول العرب والعجم لا يختص بقوم دون قوم، او بعصر دون عصر، فـ

١- الأنبياء : ١٠٧.

العصور والأجيال فى كل أنحاء الأرض.

وأرسل الله محمدا (ص) بدين الإسلام، ولهذا الرسول العظيم معجزتان يمتاز بهما عن كل الرسل الذين سبقوه، أولهما معجزة الإسلام، وهى التشريعات العظيمة التى سنها لسعادة المجتمع الإنسانى روحيا وماديا، لبناء مجتمع فاضل كريم على أساس من العدالة والفضيلة والمساواة. وهذه التشريعات تخص العقيدة والإيمان بالله والجوانب الروحية والعبادية، ونظام الحكم الأمثل المتمثل فى «الشورى» والحرية والمساواة والقضاء العادل، كما أنها تخص المعاملات والقصاص والأحوال الشخصية والتجارة والضرائب والتعليم والجهاد والدفاع وصلاحيات الحاكم والقاضى إلى آخر ما هنالك من الشئون المتعلقة بنظام إنسانى متكامل يليق بالإنسان الذى أكرمه الله وجعله أحسن مخلوقاته.

إذاً معجزة الإسلام هى تشريعاته العظيمة فى كل نمط من أنماط الحياة سواء تلك التى تتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان أو الجانب المادى والاجتماعى. أما معجزة الرسول (ص) إنما هى خلق مجتمع عظيم فى أقل من ربع قرن على هدى الدين الجديد، مما سبب فى انبثاق أمة رشيدة عظيمة فى الساحة الإنسانية الكبرى، استطاعت إن تهيمن على أعظم إجزاء هذا الكوكب الذى نعيش عليه فكريا وسياسيا وأقتصاديا، فى أقل من نصف قرن. لقد أحدث رسول الله بقدرته الخارقة التى كانت مؤيدة من عند الله نبوغا مفاجئا فى مجتمع كان شأنه من قبل ظهور الإسلام ما سمعنا التعبير عنه فى حضرة النجاشى ملك الحبشة، وفى حضرة كسرى ملك فارس، وإذا بهذه الأمة تصل إلى تلك المرحلة الرفيعة التى يثنى عليها الله تعالى بقوله :

(كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

١- آل عمران ١١٠.

بالله...)[1].

ويعبر الرحمن عن تلك الأمة فى مكان آخر بقوله :

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)[1].

وذهب رسول الله (ص) إلى الرفيق الأعلى وترك بعده فى الساحة أمة تأمر وتنهى، وأصبحت الآمرة والناهية التى تختار الحاكم والقائد وتحاسبه على الكبيرة والصغيرة، وتسير على هدى العقيدة الجديدة، فاستطاعت فى أقل من ثلاثين عاما بعد وفاة الرسول القائد أن تصل إلى أسوار الصين، وترفرف رايتها على نصف المعمورة فى ذلك التاريخ، وتُدخل تحت لوائها بلادا وأقاليم كان الوصول إليها ضربٌ من الخيال، ناهيك أنها أصبحت من ضمن الأمة والدولة الإسلامية الجديدة، وها هى تفاخر بالعقيدة الجديدة وتتباهى بها.

وفى عام ٣٥ هجرى، وهو العام الذى انتخب فيه المسلمون الإمام عليا للخلافة، كانت فارس قد دخلت فى الإسلام، وأصبحت جزءا من الدولة الإسلامية. وبذلك تغلب الإسلام على أحد النظامين الحاكمين الكبيرين المسلطين على رقاب البشرية بالقهر والاستبداد. وحل محله نظام ديمقراطى عادل وعقيدة إلهيه رفيعة، كان أهل فارس يتلهفون على اعتناقها والإقبال عليها. حقا لقد منح الدين الجديد للأمة الفارسية من الحرية والعدالة والمساواة ما لم تعرف أوتسمع أوتر مثلها من قبل. وتجاوز الإسلام فارسا فوصل إلى أسوار الصين فى خلافة عثمان، وبذلك أصبحت المحطة القادمة

١- الشورى ٣٨.

للإسلام هى الاتجاه نحو المغرب، والقضاء على النظام الاستبدادى الرومانى، كى يتم بذلك توحيد المجتمع البشرى فى ظل نظام جديد وعقيدة جديدة اسمها الإسلام.

لقد ولى الخلافة على بن أبى طلب صهر الرسول (ص)، وزوج البتول، وأبو الحسنين، والفارس المغوار الذى خاض الحروب دفاعا عن العقيدة فى صحبة الرسول القائد، وهو يخرج منها كلها منتصرا ظافرا، ولم يبق أمام الخليفة الجديد إلا أن ينتهى الشوط الذى قام به أبو بكر وعمر وعثمان ليوحد المجتمع البشرى فى ظل ذلك النظام وتلك العقيدة الجديدة، الإسلام.

صنو الرسول

وأنا من رسول الله (ص) كالصنو من الصنو والزراع من العضد .

الإمام على – ذهب رسول الله (ص) إلى الرفيق الأعلى وترك فى أمته ثقلين أمر بالتمسك بهما، أولهما كتاب الله ثم عترته أهل بيته :

«تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتى أهل بيتى»

وهذا يعنى أن رسول الله (ص) ترك فى أمته قيادتين منفصلتين أحداهما تتجسد فى الخلافة، وهى بالشورى نزولا عند النص الدستورى «القرآن الكريم» وثانيهما الإمامة «القيادة الروحية» وجعلها فى الإمام على ومن بعده فى أولاده أئمة أهل البيت. وقد سارت الأمة على هذا المنهج فى ظل قيادتين منفصلتين، الخلافة والإمامة لمدة خمسة وعشرين عاما حتى جاء دور الإمام على لتجتمع فيه القيادتان، السياسية والروحية معا.

ومع أن الإمام على حاول جاهدا رفض الخلافة (القيادة السياسية) بعد مقتل الخليفة عثمان قائلا :

«إنى لكم وزير خير لكم من أن أكون أميرا»

إلا أن الأمة رفضت إلا أن توليه الخلافة وهو كاره عليها [1].

وعندما انتخب المسلمون عليا للخلافة بعد مقتل عثمان، كان لواء الإسلام يرفرف على بخارى شرقا، وحتى مصر غربا، وانهارات إحدى الدولتين الكبريين، وهى فارس

١– راجع فصل (عهد الانقاد) فقد بحثنا هذا الأمر بالتفصيل.

أمام الإسلام ودخل الفرس فى دين الله أفواجا، بعد أن عرفوا الإسلام وما فيه من العداله الاجتماعية والمثل العليا الأخلاقية التى هى من سمات العقيدة الجديدة، وكان الفرس يتسابقون إلى قبول العقيدة الجديدة كرد فعل لما لاقوة طيلة القرون من الحكم الاستبدادى الفردى الذى كان يتحكم فى رقاب الأمة الفارسية، التى عانت الكثير من ظلم ملوكها وظلم رجال الدين المجوس على السواء. ولذلك كانت تنتظر الفرصة المناسبة للخلاص من الحالة البائسة التى كانت تكتنفها عبر القرون. وقد كان الظلم فى تلك ابلاد، قد وصل إلى مرحله غريبة، فقد ذكر المؤرخون أن الشعب الفارسى لم يكن قادرا على جنى ثمار الاشجار التى كان يزرعها فى دوره الخاصة، وكلها كانت تذهب إلى بلاط الشاهنشاه، ودخلت مصر فى الإسلام ولم تكن الحالة الاجتماعية فيها أحسن من فارس، فرأت فى الإسلام خلاصا. أما الشام وفلسطين المتاخمتان للدولة الرومانية، فقد دخلتا فى الإسلام أيضاً وفى قصة معروفة هزت الكيان الاستبدادى الحاكم على روما المعقل الأخير للنظام الاستبدادى الفردى الحاكم على رقاب الناس.

لقد اقترح رعاة الكنيسة فى القدس أن يسلموا مفتاح المدينة ليد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن يعاهدهم على مطالبهم. وكان الخليفة قد خرج من المدينة بصحبة رفيق سفر واحد هو دليل يدله على الطريق، وامطى الخليفة بعيره يقصد فلسطين، ليواجه حكاما على رءوسهم التيجان المزركشة، وعلى صدورهم الصلبان الذهبية المرصعة. وتناوب عمر مع دليله فى ركوب البعير من المدينة إلى فلسطين، وخرج الناس عن بكرة أبيهم ليستقبلوا رجلا من أعظم الرجال فى ذلك الزمان، يمتد سلطانه من اليمن حتى بخارى، وخضعت له أكبر دولة من دول الأرض، وإذا بهم أمام رجل طويل القامة عريض المنكبين، ذى مهابة وبأس، بثيابه الرثة، وقد غطى الشيب لحيته، آخذا بزمام ناقة عليها رجل ضعيف، تبدو عليه سمات الحياء والخجل والعرفان. وعرف لناس بعد قليل أن أمير

الإسلام كان لا يملك أكثر من ناقة واحدة لامتطائها، فتناوب عليها مع دليله طوال مدة السفر من المدينة إلى الشام، وكان حظ الدليل أن يطل على الجموع المحتشدة لاستقبال الخليفة فى الوقت الذى كانت الناقة تحمله والخليفه آخذ بزمامها.

هذه الصورة العظيمة من حياة الأمة التى أرسى الإسلام قواعدها كانت تهز كيان الدولة الرومانية المجاورة، كما هزت من قبل كيان الدولة الفارسية المجاورة.

كان حديث الناس كله يدور حول هذا النظام الجديد، الذى أطل على العالم بعد قرون من استعباد الشعوب، حيث إن فى بلاط هرقل ألف ناقة لحمل أدوات مطبخه، إذا أراد السفر إلى خارج عاصمته، أما الذين فى خدمته من العسكر والخدم فلا يعلم عددهم إلا الله. وأمير الإسلام الذى يحكم بلاداً شاسعة، وأمما مختلفة، تضاهى ما يحكمه هرقل بعشره أضعاف يشارك دليله فى راحلته عبر الصحارى والقفار، وهو يستطيع أن يصطحب معه أكثر مما يصطحب هرقل بأضعاف.

ويصل إلى علم الدولة الرومانية أن خليفة آخر أصبح أميرا للمؤمنين وأنه لا يقل بأسا وصرامة فى تطبيق العدالة الإسلامية عن كل الذين سبقوه، إنه على بن أبى طالب أمير المؤمنين صهر رسول الله (ص) وزوج ابنته العظيمة فاطمة الزهراء وأبو الحسنين أعز الناس واحبهم إلى قلب رسول الله (ص)، رجل خاض معارك الإسلام تحت لواء القائد العظيم، وانتصر على الأعداء فى كل المعارك لشجاعته وصبره، إنه رجل يحمل كل ما فى قاموس الأخلاق من فضيلة وسؤدد.

إن وجود شخصية مثل على بن أبى طالب على رأس الدولة الإسلامية كان بحق أعظم خطر يهدد آخر معقل من معاقل الاستبداد العالمى، ولم يكن عند هرقل وبلاطه

من شك أن المحطة القادمة والأخيرة لرفع راية الإسلام إنما هى القسطنطينية عاصمة بلاده، كما أنه لم يكن من شك أن سقوط الحضارة الرومانية كان يعنى انهيار النظام الاستبدادى العالمى إلى الأبد ليطل على العالم نظام ديمقراطى نابع من الحرية وسيادة الأمة، يحكم العالم ويبقى بقاء النيرين.

وكان الرومان على علم بالدستور الذى يقدسه المسلمون، وهو القرآن الكريم، وهو الذى لم يبايعوا خليفة من الخلفاء إلا بعد أن يعدهم بالسير على هديه ونصوصه، وأن لهم نبياً أعطى للأمة وجودا على الساحة بفضل تعاليمه وأخلاقه، وهم ملتزمون بإحياء سنته؛ لا يحيدون عنها قيد أنملة، وكانوا يعلمون جيدا أن نصوص الدستور صريحة واضحة، توجب على الأمة الخضوع لنظام الشورى وانتخاب رئيس الأمة انتخابا حرا مباشرا، وأن العدالة والحرية والفضيلة لا بد أن تكون من سمات الخليفة الذى ينتخبه المسلمون، وأن من واجبه العمل فى إرساء القوانين الأخلاقية والاجتماعية التى نص عليها الدستور وطبقها رسول الله. وأن هذه القوانين كلها تتعارض مع النظام الحاكم فى الأمة الرومانية التى ترزح تحت سلطة الاستبداد منذ قرون وقرون، مثلها فى ذلك مثل الأمة الفارسية تنتظر ساعة الخلاص من نظامها الفاسد المستبد، دخول المسلمين إلى روما يعنى انضمام أكثرية الأمة الرومانية إلى صفوف القادمين الجدد والسير تحت لواء الدين الذى يعرفونه باسم الإسلام ومكاسبه.

وكان فى بلاط هرقل جبلة بن الايهم الذى كانت قصته تجسد العدالة الإسلامية، إن جبلة بن الأيهم هو الملك العربى الذى أسلم على يد الخليفة عمر ثم ارتد ليلتجىء إلى هرقل ويصبح من خلانه. وكانت الأمة الرومانية من أقصاها إلى أقصاها تعرف قصة جبلة وتقارنها بما هى عليها من حال، وكفى بجبلة وحضوره فى النظام الهرقلى وكل

أركانه. وقصة جبلة بن الأيهم حتى بعد ١٤ قرنا لجديرة بالاعتبار بل إنها تجسيد للعدالة الإسلامية.

أعلن جبلة حضوره إلى المدينة بصحبة عساكره كي يسلّمَ على الخليفة عمر بن الخطاب، فأمر الخليفة بإكرام الوافد الكبير، فخرج أهل المدينة لا ستقباله ولم يبق فى المدينة «بكر ولا عانس» حسب تعبير المؤرخين، إلا وخرج لا ستقباله، فدخل جبلة المدينة وبصحبته ألف فارس يرتدون ملابس ثمينة وعليهم أسلحة مطلاة بالذهب والفضة. وتتجسد العدالة الإسلامية التى عود رسول الله (ص) صحابته على اتباعها، فى حادثة حدثت بين جبلة ورجل من عامة المسلمين، فعندما كان جبلة يطوف حول الكعبة داس رجل إزاره الثمين فمزقه، وصفع جبلة الرجل. فشكاه عند الخليفة، وجاء دور القضاء ليجلس ملك من ملوك العرب مع رجل من عامة الناس أمام الخليفة ليسمع رأى الإسلام. فقال له عمر: إما أن ترضى الرجل أو يفعل بك ما فعلت به. وأراد جبلة أن يرضى الرجل بكل ما لديه من مال حتى لا يصفعه الرجول السوقى على حد تعبيره أمام جيشه وعشيرته. إلا أن الرجل رفض المال وأراد أن يفعل به كما فعل جبلة به. فاعترض جبلة على الخليفة بقوله : كيف تعامل الملك والسوقى على نهج واحد! فأجابه : إن الإسلام ساوى بين الملوك وغير الملوك. وقد قال رسول الله (ص) «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى»، فإما أن ترضى الرجل او يفعل بك ما فعلت به. فاستمهل جبلة الخليفة حتى الصباح، فأمهله، فاغتنم سواد الليل وأخذ جيشه وزاده وماله، وخرج من المدينة قاصدا هرقل فى القسطينطينية، وبقى فى جواره لا جئا مرتدا.

إن وجود هذا الملك اللاجىء الذى ارتد عن دين الفضيلة والعدالة لأنه لم يحتمل

الحكم العادل، كان ناطقا صارخا بعظمة الدين الجديد، الذى بدأ يهز النظام الرومانى العريق فى الحكم والسياسة، وكان إنذارا قوياً لهرقل وحاشيته، حافزا للأمة الرومانية على قبول الرسالة الجديدة إذا ما وصلت إليهم.

إن من الغباء أن نتصور أن روما الشرقية التى كانت امتدادا لروما الغربية ولحضارة تمتد فى أغوار التاريخ ألف عام و تتجسد فى قيصر وفتوحاته، إبان ظهور المسيح، شملت أوربا، وامتدت حتى الجزر البريطانية، وأسر سكانها وتقييدهم بالسلاسل يطاف بهم على البلاد، واستعمرت إفريقيا ومصر لفترة من الزمن، لم تعرف السياسة والحكم ودرء الأخطار التى كانت تهدد كيانها. إن روما القديمة، التى كانت تحاك فى أورقة مجلس شيخوخها كل الدسائس والمؤامرات الداخلية والخارجية، كانت ذات حضارة سياسية انتقلت إلى روما الشرقية واجتمعت فى أورقة قصور الهراقلة.

إن المؤرخ الكبير «ويل ديورانت» يكتب فى تاريخه الضخم «قصة الحضارة» ، إن أسواق مدينة روما كانت تضم مكتبات فيها كتب فى علم الفلك والفلسفة والهندسة والأدب والتاريخ، وكان النساخون يقومون بنسخ الكتب فى اعداد كثيرة لبيعها على الناس. إن مثل هذه الحضارة التى كانت امتداد للحضارة إليونانية المجاورة، وما كانت عليه من رقى الفكر ولفلسفة والعلوم الأخرى لم تكن بمعزل عما يدور حولها من الخطر الذى قضى على جارتها المماثلة فارس حتى دكها دكاً.

وبعد كل هذا، فإن المواجهة العسكرية التى كانت تحدث بين المسلمين وجيوش هرقل فى الحدود لغربية لبلاد المسلمين بدءا من «حرب موتة» فى عهد الرسول (ص) التى استشهد فيها ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب وابنه الذى تبناه وهو زيد بن

حارثة، ورد الروم إلى مواقعهم. كانت كلها إنذارا بالخطر الشديد.

ومن البديهى أن الرومان كانوا يعلمون باهتمام رسول الله (ص) بدفع الخطر الذى كان يهدد الوجود الإسلامى من ناحيتهم أيضاً، وتجهيزه لجيش أسامة الذى أمره بالسير إلى أهل الروم وهو فى مرض الوفاة، وقد جعل فى مقدمة الجيش كبار صحابته مثل أبى بكر وعمر، إن هذه الوقائع كانت تحكى عن رغبة رسول الله (ص) فى انتصار الجيش العظيم على آخر معقل من معاقل الاستبداد والظلم.

ولا بد لنا أن نسجل هنا أيضاً أن الحروب التى خاضها خالد بن الوليد فى خلافة عمر بن الخطاب فى الحدود المتاخمة لبلاد الروم، ولحفظ الحدود والثغور الإسلامية من خطرهم، مضافا إلى ذلك فقدان الرومانيين أعظم مكان مقدس لهم وهو بيت المقدس على أيدى المسلمين، وفقدان دولة مسيحية صديقة، هى مصر وضمها إلى الدولة الإسلامية الجديدة، وفقدان أعظم كنائسهم فى دمشق، وتبديلها إلى أعظم مسجد من مساجد المسلمين، كل هذه الوقائع كانت إنذارا بعد إنذارا لهرقل وبلاطه وحاشيته يفرض عليهم التحسب لها ألف حساب.

وجاءت خلافة الإمام على بن أبى طالب ضربةً قاضية تهدد مستقبل الرومانيين ووجودهم السياسى وكيانهم الفكرى. فإن وجود على فى الخلافة كان يعنى بالنسبة إلى الرومان نهاية الإمبراطورية وضمها إلى الدولة الإسلامية الجديدة. فالخليفة عمر أنهى دولة فارس وفلسطين ومصر، والخليفة عثمان وسع حدود الأمة الإسلامية حتى بخارى وحدود الصين، وعلىٌ هذا الفارس المغوار العظيم لا بد أن ينهى آخر معقل من معاقل الاستبداد العالمى، وينفذ رغبة رسول الله ووصيته وهو على فراش الموت. ولم يكن

الخوف والفزع الروماني من علي لأنه ابن عم رسول الله (ص) فحسب، بل كانت أنباء سيرة الخليفة الجديد في الحكم تصل إلى روما يوما يوما بعد يوم، وتقارن بما لهرقل من سيرة في الحكم والأخلاق، فكان لا بد من إلقاء الضوء على حياة الرجل الذي أصبح أعظم حكام عصره، ويحكم بلادا واسعه وشاسعة، هي أكبر مما يحكمه هرقل، وله أمة عظيمة ذات مبادىء عظيمة، أكثر عددا من أمة هرقل، وله فلسفة حكم ونظام حكم يناقص فلسفة حكم هرقل ونظامه. ويوم أن وصلت إلى الرومانيين أخبار مفادها أن أعظم حاكم من حكام الأرض يجلس مع يهودي من رعاياه أمام قاض عيّنه هو في منصب القضاء ليقضي بينهما ويرضخ أمير المؤمنين للحكم الذي أصدره القاضي عليه، كان يعني أن اجراس الإنذار بدأت تدق من جديد، وأن هذا الحاكم العظيم الذي ليس إلا علي بن أبي طالب أمير المسلمين والمؤمنين لا بد ألا أن يدع آخر معقل من معاقل الاستبداد في مأمن.

أما قصة علي واليهودي فهي :

إن الإمام رأى يهوديا في شوارع الكوفة وهي العاصمة التي اتخذها مقرا لخلافته، يمشي متقلدا درعه، الذي فقده الإمام في أحد أسفاره. فطالب الإمام اليهودي به، فأبى اليهودي، ولم يستعمل الإمام سلطته ليأخذه منه عنوة، بل شكاه إلى القاضي شريح.فأحضر القاضي الشاكي والمشتكي عليه ليجلسا أمام منصة القضاء متساويين في الحقوق، لا فرق بينهما. الشاكي هو علي بن أبي طالب أعظم حاكم في عصره، والمشتكي عليه يهودي ذمي يعيش في ذمة الإسلام. وسمع القاضي من الشاكي والمشتكي عليه كليهما، إلا أن الإمام علي لم يكن عنده شاهد يشهد بأن الدرع له،

فربح اليهودى الدعوى وخسرها أمير المؤمنين، لأن النص الدستورى الوارد فى كلام رسول الله واضح. حيث قال (ص) «البينة على المدعى واليمين على من أنكر». ولم تكن بينة. أما اليهودى الذى أنكر فقد أدى اليمين. وهنا يعتذر القاضى من الخليفة الذى عينه فى هذا المنصب بقوله : يا أمير المؤمنين إنى أعلم أنك مع الحق فى دعواك والدرع درعك ومعاذ الله أن تكون كاذبا ولكن أنت أعلم الناس بالقضاء، فالقاضى لا يستطيع أن يحكم بعلمه حسب قانون الإسلام، فلذلك ربح المدعى عليه الدعوى، لأنه أدى اليمين وخسرتها لأنك لم تقدم شاهدا، فيقول له الإمام : لقد كنت عادلا والله فى حكمك، إلا فى أمر واحد وهو أنك ما ساويت بينى وبين خصمى فى النداء فكنت تنادينى بكنيتى احتراما لى، وتقول لى يا أبا الحسن، وكنت تنادى اليهودى باسمه فقط، فكان عليك إما أن تنادى الاثنين بالاسم، أو تنادى الاثنين بالكنية حتى لا يحس أحد المتخاصمين بغضاضة، وتنفذ المساواة التى أمر بها الإسلام فى مثل هذه الأحوال.

إن هذه الصور الرفيعة من الديمقراطية هى التى فقدها المسلمون منذ أن انتهت خلافة على بن أبى طالب، وهى التى كانت إنذارا فى حينه لهرقل ونظام حكمه، فيا ترى حقا أن عليا قاضى اليهودى لدرع فقده وهو يريد استرداده، وهو لذى يقول «أن دنياكم هذه عندى كعفطة عنز، إلا أن أقيم حقا أو أبطل باطلا» أم أراد بذلك أن يجسد عدالة الإسلام فى المجتمع الإنسانى وأن يطبقها على نفسه لتكون قدوة لغيره؟!

أراد على أن يعطى درسا عمليا للأمة، له أبعاده العظيمة فمن جهة أعطى القيمة للإنسان سواء أكان مسلما أم يهوديا أم غيرهما. ومن جهة أخرى ضمن حرمة الفئات غير المسلمة وحصنهم اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا فى ظل الدولة الإسلامية العادلة، ليعرف الجميع أن لليهودى الذمى فى ظل الإسلام ما للمسلم من حقوق وواجبات لا

يمكن الاعتداء عليها. بل يعامله الإسلام على قدم المساواة مع المسلم أمام القانون والعدالة حتى لو كان خصمه أمير المؤمنين.

ثم جسد العدالة التى جعلت الناس سواسية أمام القانون، ولم تفرق بين الحاكم وغيره فى الرضوخ أمام العدالة. والعدالة عندما تعم الجميع يكون المجتمع صالحا، وتتحقق المدينة الفاضلة التى كان الإسلام يسعى لتحقيقها، وبعد كل هذا جسّد استقلال القاضى والقضاء فى ظل العدل الإسلامى، وأن القاضى فى قوته واستقلاله وحرية رأيه يمثل العدل الإسلامى الذى عاهد أمير المؤمنين على تطبيقه. ثم بعد ذلك يجسد التزام القضاء بنصوص الدستور دون أن يلين فى تطبيقها حتى الحاكم مهما كان عظيما.

صحيح أن ما شهدته محكمة الكوفة فى ذلك اليوم كان حدثا فريدا لم يحدث مثله بعد ذلك اليوم فى المحاكم الإسلامية إلى يومنا هذا. لقد انتهت تلك العدالة بانتهاء الخلافة الراشدة، إلا أن أمما غير مسلمة طبقت تلك الحالة على نفسها، وسارت على الطريق نفسه، ولم تذكر تلك الأمم أنها قلدت عليا فى الطريقة التى جسد بها عدالة القضاء فى الإسلام. وأغرب من هذا إننا نحن المسلمين عندما نسمع بحرية القضاء. وباستقلال القاضى فى المجتمعات الديمقراطية والأحكام التى تصدرها على رؤساء الأنظمة الديمقراطية رغم إرادتهم لإنصاف فرد من أفراد الأمة نتخذها عبرة، ونلهج بذكرها عجبا، ونحن لا ندرى أن هذه الأمم طبقت معارفنا ودستور الإسلام، وإذا كانت لم تعترف بذلك فلا يعنى أن الحقيقة تخفى وتختفى. نعم إن المحاكم فى سويسرا وفى السويد وفى كثير من البلاد الديمقراطية تبعث بمذكرة إحضار للحاكم أو الملك لكى

يحضر مع المدعى أمام القاضى ويعامل المشتكى المشتكى عليه على نمط واحد، كما فعل شريح القاضى من قبل أربعة عشر قرنا، أما فى كثير من محاكم البلاد الإسلامية، فقد يكون الموت مصير الشاكى إذا ما تقدم بدعوى ضد الحاكم فى خدش إرش.

وإذا كان على قد جسَّد العدالة فى ذلك الموقف العظيم، فقد جسد الخليفة عمر بن الخطاب قبله كما أشرنا قبل قليل، العدالة والمساواة فى سفره إلى بيت المقدس، فيا ترى هل عبر الصحراء مع خادمه على ظهر بعير واحد لأن الخزانة الإسلامية كانت لا تملك المال لشراء الإبل والخيل؟ أو لم يكن لديه جيش ليرافقه فى رحلته؟! كلا والله بل إن الخزانة الإسلامية كانت فى ذلك العهد، أغنى من خزانة هرقل، وكان عمر يستطيع أن يدخل إلى فلسطين بصورة لا تقل عظمة عن الصورة التى دخل بها هرقل، إلا أنه أراد أن يجسد العدالة الإسلامية، ويضرب بها مثلا على نفسه ليكون قدوة لمن بعده، وصوتا عاليا للإسلام لا يخمده الدهر. ولذلك فمن السذاجة أن نتصور أن الرومان لم يدركوا الخطر الذى كان يهدد كيانهم، وأنهم لم يفكروا ولم يضعوا الخطط الكفيلة بدرئه، ولهذا يبدو لى واضحا كل الوضوح، المكيدة التى استعملها هرقل للقضاء على التوسع الإسلامى، بل على حقيقة الإسلام. وذلك فى تحالفه مع والى الشام. إن وجود معاوية لمدة عشرين عاما واليا عن الخليفتين عمر وعثمان فى بلاد الشام المحاددة للإمبراطورية الرومانية، كان ينطق بصوت عال : إن الأمل معقود على هذا الوالى المخضرم، فى تنفيذ الخطة التى تنهى واقع الإسلام - الذى كان يهدد بالخطر - الإمبراطورية الرومانية.

فمعاوية كان معروفا لدى الرومانيين، يعرفون خفايا قلبه وسوابقه، وسوابق أبيه أبى

سفيان فى صراعه المرير مع صاحب الرسالة أولا، ومع الخليفة الجديد ثانيا، وكان هرقل يعرف جيدا - كما يعرف غيره - أن الخليفة الجديد الذى هو على بن أبى طالب قد قتل خال وجد وأخ والى الشام فى موقعة واحدة فى غزوة بدر، وكان يعرف جيدا أن أم الوالى المخضرم هند هى التى دفعت صعلوكا لقتل حمزة بن عبد المطلب عم الخليفة الجديد وإخراج كبده، وتقديمه إليها لتأكله نيئا تشفيا للثأر. وكان هرقل وحاشيته على علم أكيد بذلك العداء المستتب بين بنى هاشم وبنى عبد شمس لفترة تزيد على قرن، كما أن أولئك الرومان أصحاب الإمبراطورية التى مضى عليها ألف عام من السؤدد والحكم والمكر والدهاء فى السياسة، كانوا يعلمون جيدا بالحروب التى خاضها والد والى الشام أبو سفيان ضد رسول الإسلام، والمعاناة التى عاناها الإسلام ومحمد (ص) والمسلمون على يد هذه الأسرة من يوم أن بعث محمد (ص) حتى الساعة التى اضطر أبو سفيان للدخول فى الإسلام صونا لحياته فى عام الفتح، أى قبل وفاة الرسول بسنة واحدة.

كل هذه الأمور كانت تبشر النظام الرومانى أن الحل الأسمى فى الطريق سيكون على يد معاوية بن أبى سفيان. إن خروج معاوية على علي وخوضه حرب «صفين» والخدع التى رسمها تضعيفا لخلافة على، ومنعه من التحرك خارج الحدود الإسلامية، وبالتالى تضعيف القوة الإسلامية الكبرى، بسبب المعارك الداخلية التى فرضها معاوية بعصيانه المسلح ضد الخلافة الشرعية، كلها تحكى لنا عن قوة هائلة عظيمة وتخطيط دقيق عظيم، لضرب الإسلام من داخله. إن ما حدث لم يكن من صنع العرب، ولا أهل الشام، إنه تخطيط دقيق ورهيب للنظام الاستبدادى العالمى الذى كان يجسده هرقل كآخر حلقة من حلقاته، والتى كانت السياسة الهرقلية مستميتة فى سبيل نجاح مآربها،

لأنها كانت على شفاه حفرة من الهلاك.

إن ما يؤكد وجود مؤامرة رومانية شديدة المراس والتخطيط للقضاء على التوسع الإسلامى. بل القضاء على حقيقة الإسلام وروحه، وتغيير النظام الديمقراطى الذى جاء به الإسلام إلى نظام استبدادى فردى، يجعل القيم الإنسانية شذرا مذرا هو ما يلى :

١- انتخب المسلمون عليا للخلافة وتحت إمرته وحكمه أكبر بقاع العالم المتحضر آنذاك، فكان سلطانه ممتدا من اليمن حتى بخارى، ومن الجزيرة حتى مصر. ويبدو فى بادىء الأمر أن خروج بقعة صغيرة باسم الشام على حكم هذا الخليفة وعلى رأس البغاة رجل مثل معاوية لا ولن يمكن أن يعد خطرا ذا شأن على الخلافة الجديدة، ويمكن دحره فى غضون أيام واسابيع.

٢- الخليفة الجديد هو على بن أبى طالب البطل المغوار وأسد الله فى الحروب التى خاضها ضد الكفر، فكفاه فخرا وشرفا أن رسول الله (ص) أعطاه وساما لم يعطه لاحد من قبل، ولا من بعد، وذلك فى يوم الخندق عندما نازل عدو الله عمرو بن ود الذى ثمنه الرسول (ص) بقوله : «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[1].

ومعاوية طليق ابن طليق دخل الإسلام رغم إرادته وحارب الإسلام والمسلمين ملء إرادته ولا نتحدث عنه أكثر مما تحدث عنه على - وهو اعرف الناس بموقعه وموقع خصمه - عندما يقول :

١ - رواه الترميذى فى الصحاح.
٢ - نهج البلاغة.

٤-كل من يعرف معاوية يعرف جيدا أن والى الشام لم يكن رجلا مجازفا مخاطرا يجازف بحياته وأسرته وممتلكاته وقومه، بل إنه داهية من الدهاة، لا يركب الشر إلا إذا عرف أنه طوع إرادته، فلذلك لم يدخل معاوية المعركة مع عليّ إلا بعد أن كان على يقين بالانتصار فى المواجهة.

٥- إن نظرة فاحصة إلى المواجهة التى تمت بين على ومعاوية فى صفين، واستمرت ثمانية عشر شهرا، تكشف بلاريب أن وراء معاوية قوة عظيمة رهيبة هائلة لم يستطيع أن ينتصر عليها حاكم مثل عليّ وهو يحكم نصف العالم المتحضر فى وقته، وأن هذه المواجهة استمرت ثمانية عشر شهرا انتهت برجوع عليّ من المعركة بدون إحراز نصر عملى، وخروج معاوية من الحرب بإحراز نصر فكرى فى ظل خدعة التحكيم.

لقد شاء الله أن أحصل على نص صريح للإمام على خَفِىَ على كل الذين كتبوا عن على ومعاوية، ففى هذا النص تلميح بل تصريح بتلك المؤامرة التى كانت تحاك للقضاء على الإسلام، على أيدى متآمرين خارج الصقع الإسلامى، مشيرا إلى الفتن التى كانت تهدد كيان النظام الإسلامى بقوله:

«أن هذا الأمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور، فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها» [1].

١- نهج البلاغة.

وهنا نقرأ بوضوح أن عليا يصرح بتلك المادة التى تحرك القوة للانفضاض على النظام الشرعى.

٦- إن نظرة فاحصة إلى الحوادث التى سببت مقتل عثمان، واشتراك الأمويين والمروانيين فيها، توحى إلينا بأن المؤامرة الكبرى فى التاريخ بدأت بمقتل عثمان، واكتملت بقتل على بن أبى طالب وتضعيف الخلافة الراشدة، وتحققت باستيلاء معاوية على الحكم، وأعطت ثمارها بمقتل الإمام الحسين فى يوم العاشر من محرم عام ٦١ هجرى. وإذا أمعنا النظر فى الطريقة التى قتل فيها عثمان لنرى أنها طريقة أجنبية لا صلة لها بالعادات والطرق العربية والإسلامية، فقد تسور نفر من بين الثائرين دار الخليفة وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم، وقد ناهز الثمانين من العمر. ولكن هناك وثيقتان تاريخيتان نستعين بهما للوصول الى المؤامرة الكبرى التى بدأت للقضاء على الخلافة الراشدة، والوثيقتان التاريخيتان نجدهما فى كلام الإمام على، حيث أشرنا إلى إحداهما قبل قليل فى معرض حديثه عن قتلة عثمان، وأما الوثيقة الثانية، والتى تنص على الذين انضموا إلى معاوية لمحاربته حيث يقول :

«جفاة طغام، وعبيد اقزام، جُمِّعوا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبوءوا الدار» [1].

وهاتان الوثيقتان صريحتان بأن قتلة عثمان كانوا مرسلين من جهة أجنبية، وأن جيش معاوية كانوا مرتزقة جمعهم من أنحاء مختلفة.

١- نهج البلاغة.

وهناك نص آخر لا بد من أن نشير إليه، ونحن نريد أن نستخرج من بطون التاريخ أعظم مؤامرة حيكت ضد الإسلام والمسلمين، وقد خفى على الأمة عبر تاريخها، فهناك كلام صريح للإمام على يخاطب به معاوية بقوله :

«فأما إكثارك الحِجاج فى عثمان وقتله، فإنك إنما نصرت «عثمان» حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له» [1].

وهكذا نرى أن الإمام يشير إلى معاوية كأحد الضالعين فى مقتل عثمان. وأعتقد جازما أن مقتل ثلاثة من أربعة من الخلفاء الراشدين، وعلى نمط واحد، وبصورة متلاحقة، لا يمكن أن يكون من الصدفة، أو الأعمال الاعتباطية، إنها خطة دقيقة محكمة، من قبل القوى الاستبدادية الكبرى، التى كانت ترى فى الخلافة الراشدة خطرا عظيما لكيانها.

فالخليفة عمر بن الخطاب قتل على يدى مجوسى لم يكشف التاريخ االنقاب عن الدوافع التى دفعته إلى الجريمة، غير تكهنات كانت على نسق واحد، أثبتها المؤرخون، واغتال نفر الخليفة عثمان، وبعده اغتال نفر من الخوارج الإمام على، والاغتيالات الثلاثة هذه كلها حالات غير طبيعية وغير صحية فى ذلك المجتمع الراشيد، الذى كانت تحكمه الخلافة الرشدة، ولم يحدث بعد ذلك اغتيال فى الأنظمة التى سادت باسم الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية وغيرها. إذاً يصح لنا القول أن المؤامرة التى كانت تستهدف حياة الإسلام ومنهجه الاجتماعى، كانت قد بدأت بمقتل عمر بن الخطاب، واستمرت حتى مقتل الإمام على، ومن ثم صلح الإمام الحسن مع معاوية حقنا لدماء المسلمين، وتغيير الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض استبدادى، لا وجود لقيم الإنسان فى ثناياه.

١- نهج البلاغة.

إن هذه المؤامرة الكبرى بدأت من أقوى الساحات المعادية للإسلام، المليئة بفنون المؤامرات، وتجلت فى آخر المطاف بالفتنة التى أشعلها معاوية ليقضى على كل ما بنته الأمة الرشيدة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين.

٧- إن من أهم الدلائل التى يمكن الركون اليها، فى أن الحركة التى بدأها معاوية ونجح فيها، واستتبت فيما بعد الخلافة له، إنما كانت مؤامرة رومانية - هرقلية، دبرتها المسيحية الحاكمة آنذاك، والدليل على ذلك هو أن معاوية فى خلافته لم يطبق النظام القبلى الجاهلى كما زعم كثير من الذين أرخوا حياته، فالنظام الجاهلى الذى نشأ وترعرع فيه قبل دخوله فى الإسلام أو فى السنوات التى كانت الحروب فيها سجالا بين أبيه أبى سفيان، وبين رسول الله (ص) كان يختلف تماما عن النظام الاستبدادى الفردى الحاكم، المتمثل فى روما وإمبراطوريتها. لأن النظام القبلى الجاهلى كان يحفظ حق االقبيلة فى شئون حياتها، وكان فيها مُثُلٌ قبلية كما قلنا قبل قليل، مُثُل تحفظ أعراض القبيلة ودماءها وأموالها، ولا نشك أبدا أن الحروب التى خاضها أبو سفيان ضد الإسلام كانت لحفظ مصالح بنى أمية وقريش الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، التى كان الإسلام يهددها بالتدمير الكامل، نجدها فى الأدب الجاهلى الرفيع الذى خلّفه لنا الأعشى وامرؤ القيس والنابغة الذبيانى والشنفرى، وكفى هذا الاخير فخرا أن رسول الله (ص) كان يقول «علموا أولادكم لامية العرب للشنفرى». كما ان رسول الله (ص) كان يستحسن كثيرا قول لبيد الشاعر، وكان يستشهد به بين حين وآخر:

ألا كل شيء ما سوى الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

إذاً فإن كثيرا من القيم الإنسانية المحفوظة ضمن النظام القبلى الجاهلى الذى كان يحكم الجزيرة قبل الإسلام، والذى نشأ عليه معاوية لم يطبقه فى حكمه، غير أنه طبق قيم النظام الاستبدادى الفردى الذى كان سمة من سمات هرقل ونظامه، حيث كان يتلخص في جملتين : «تدمير القيم الإنسانية، والتحكم فى رقاب الناس بأى ثمن».

وكما قلنا ونكرر أن معاوية أسس نظاما جديدا فى الحكم. يعتبر المدرسة التى لا زالت تسير فى المجتمع الإسلامى بخطى ثابتة، وهى مدرسة الحفاظ عليى مظاهر الإسلام وتدمير القيم الإنسانية. فهو فى القسم الأول راعى شعور الأمة الإسلامية. حيث لم يكن بمقدوره تغيير العقيدة التى رسخت فى القلوب. وفى القسم الثانى نفذ رغبة آخر معقل من معاقل الحكم الاستبدادى الفردى وهو تدمير القيم الإنسانية.

إن هذه المدرسة التى أسسها معاوية من أنجح المدارس التى حكمت العالم الإسلامى قرونا بعد قرون، وقد بدأت تعطى نتائجها بعد حرب صفين. فبعد رجوع الإمام علىّ إلى الكوفة من حرب صفين، بدأت ملامح الضعف والضياع تظهر فى شئون الأمة وحياتها، وبدأت المؤامرة التى حاكها أعداء الأمة الإسلامية تعطى نتائجها من كل صوب، وكانت أولى وأهم هذه المظاهر أن الأمام على بدأ يفقد سيطرته على الأمة الإسلامية.

ولا شك أن «الطابور الخامس» بدأ يعمل فى داخل البلاد الإسلامية بكل شدة ليغير مجرى حياتها فكريا وعمليا. ولا نحتاج إلى أدلة كثيرة لإعطاء صورة عن الحالة التى بدأت تكتنف الأمة وتنذرها بالضياع، فنحن أمام كلام صريح من خطب الإمام على يحتوى على صورة واضحة من ذلك العصر، إنها صورة حزينة عن ضعف الأمة أمام أعداء يتربصون بها، وصورة حزينة عن قيادة رفيعة تميل نحو الضعف والانهيار بسبب انحراف الأمة عن الطريق الذى كانت تسير فيه نحو نصف قرن.

يحدّث الإمام على فى خطبته الرائعة عن الحالة التى وصلت إليها الأمة بقوله :

«ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا وإعلانا، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغازات عليكم، وملكت عليكم الأوطان، وهذا اخوغامد قد دخلت خيله الأنبار وقتل حسان بن حسان البكرى، وأزال خيلكم عن مسالحها. ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينزع حجلها وقلبها وقلائدها لم يسترجع منع إلا بالاسترحام، ثم انصرفوا وافرين ما نال أحد منهم كلم، ولا أريق لهم دم. فلو أن امرءا مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوما، بل كان به جديرا، فيا عجبا والله يميت القلب اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم. فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم هذه حمارة القيظ أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء، قلتهم هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد. كل هذا فرارا من الحر والقر، فإن كنتم من الحر والقر تفرون، فإذاً أنتم والله من اليسف أفر. يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندما واعقبت سدما، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحا وشحنتم صدرى غيظا، وجرعتمونى نغب التهمام أنفاسا، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم. وهل احد منهم أشد لها مراسا، وأقدم فيها مقاما منى، لقدنهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأى لمن لا يطاع [1].

١- نهج البلاغة.

لم تدم الحياة طويلا للإمام على بعد هذه الخطبة، فسرعان ما قتل وهو يؤدى صلاة الصبح فى جامع الكوفة، فقد قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى الذى كمن للإمام فى ركن من أركان المسجد وضرب بالسيف المسموم على رأسه وهو فى حالة السجود وسمع المصلين الإمام يقول : «فزت ورب الكعبة» فعرفوا بأن الواقعة قد وقعت، وتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام، واختار المسلمون بعده الإمام الحسن خليفة لهم، وعندما سئل الإمام على وهو فى فراش الموت عن الرجل لذى يرشحه للخلافة قال :

«أترككم كما ترككم رسول الله»

وبهذه العبارة البليغة أراد أن يذكر الأمة بحقها الدستورى فى انتخاب من تراه أهلا للخلافة، ولتولية إمرة المسلمين.

انتصار الأعداء
هرقل و معاوية

والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. - الإمام على .

إن عام ٤١ هجرى هو عام المنعطف الخطير فى تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها، حيث تغيرت فيه حياة الأمة رأسا على عقب، واستمرت قرونا. إنه العام الذى تنازل فيه الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وأصبح هذا الأخير حاكما يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد.

ولقد اشترط الإمام الحسن فى بنود الصلح ما يمنع الكارثة التى كان يتنبأ بها، وكانت الأمة تخاف منها، فلذلك نصت شروط الصلح على أن تكون الخلافة وإمارة المسلمين بعد موت معاوية بالشورى، ينتخب المسلمون من يرونه أهلا لقيادة هذه الأمة. وقبل معاوية بالشروط فى ظاهر الأمر وأقسم على العمل بها، ولكنه بدأ بالتخطيط للقضاء على كل المكاسب التى جاء الإسلام بها ضمانا لحقوق الأمة، من الحقوق الاجتماعية والسياسية والعدالة والحرية، فى ظل نظام الشورى، وسيادة الأمة فى حق تقرير المصير، واحترام الدستور (القرآن الكريم) والالتزام المطلق ببنوده وواجباته وشروطه، والسير على متمم الدستور (سنة رسول الله (ص).

ولقد كان هدف معاوية الأسمى هو تغيير النظام الديمقراطى (الشورى) الذى كان يسير عليه السلف لصالح من أمة محمد (ص) فى عهد الخلافة الراشدة والأمة الرشيدة

إلى نظام ستبدادى إرثى، يفعل الحاكم خلاله ما يشاء، ويحكم بما يريد.

إن تغير الحالة الاجتماعية التى أحدثها الإسلام بالمعجزتين الخالدتين؛ معجزة التشريع ومعجزة الرسول فى خلق أمة فاضلة تلتزم بالدستور وتنفذه على القاصى والدانى، وتحكم نفسها، وتختار حاكما بأغلبية آرائها، وتحاسبه على الصغيرة والكبيرة، وتكون هى المسيطرة على مقاليد أمورها، اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا إلى حالة من الاستبعاد وقبول الاستبداد، والاستجابة لكل ما يأمر به الحاكم لم يكن أمرا سهلا. بل كان من أصعب الصعاب . فلذلك كانت الخطة الهادفة إلى فرض السيطرة هى القيام بإرهاب شديد وتعذيب وسفك دماء يفوق التصور، ويحدث حالة من الرعب والهلع يحسب كل شخص حسابه، مهما كان شأنه وموقعه بين الأمة.

إن القضاء على المكاسب العظيمة التى جاء بها الإسلام لم يكن يتحقق إلا بإخراج الأمة من الساحة العملية وإنهائها اجتماعيا وسياسيا واستبدالها بأمة مستهلكة فى الفرد تقول «هو» بدلا من «انا» وتأتمر بأمر الحاكم بدلا من أوامر الله وكتابه وسنة رسوله، وبغض النظر عن حقوقها المنصوصة فى الكتاب والسنه معا. إن القيام بمثل هذا التغيير الجذرى فى الحالة الاجتماعية الإسلامية كان يصطدم بصعوبات كبرى وبمواجهة مباشرة بين الأمة والحاكم الجديد. فلذلك كان تنفيذ الخطة يحتاج إلى استعمال القوة بأى شكل وبأى ثمن. ومعاوية كان يعرف صعوبة المهمة وخطرها، فلذلك ابتكر نظاما جديدا كقناع يحجب عن الأمة عظيم المؤامرة، يمكن أن نطلق عليه «نظام الحفاظ على المظاهر الإسلامية، وتدمير القيم الإنسانية». وبذلك تظاهر فى الحفاظ على الإسلام وجميع مظاهره العبادية. فالصلاة كانت تقام فى المساجد وشعائر الحج إلى بيت الله لم تتعطل، ومظاهر الصوم فى شهر رمضان كان واجبا ومفروضا على كل

مسلم، وأذان الصلوات كان يعلو منائر المساجد خمس مرات فى كل يوم، والزكاة كانت تؤخذ عنوة لمن كان يريد الفرار منها. غير أن الجناح الآخر من الإسلام الذى هو الحرية والعدالة الاجتماعية وتقرير المصير وسيطرة الأمة على مكاسبها الاجتماعية والإنسانية فى ظل المساواة والشورى، كان مُدَمَّراً كل التدمير. وبذلك اصبحت البلاد الإسلامية التى نَفَّذَ معاوية سياسته فيها، بلاداً عليها مظاهر الإسلام، إلا أن الأمة فيها كانت خارج الساحة؛ مأمورة ومطيعة.

إنها هى السياسة التى استمرت أربعة عشر قرنا فى المجتمع الإسلامى، وتسير عليها حتى اليوم أكثرية الأنظمة الإسلامية فى شرق الأرض وغربها. فلذلك نعتقد أن تغيير النظام الذى ابتكره معاوية كان من أطول الأنظمة السياسية فى تاريخ البشرية، وهو ثانى أطول نظام ينفذ على الأجيال جيلا بعد جيل، بعد نظام الملكية فى اليابان. والذى عمره ٢٦٠٠ عام. غير أن الفرق العظيم بين النظام الإسلامى المعاوى وغيره، هو أنه طبق بدقة قارات متباعدة الأطراف فى ظل الحكام والأنظمة الإسلامية والقوميات والأقطار المتعددة طيلة أربعة عشر قرنا من الزمن، أما النظام اليابانى فقد طبق على شعب واحد وبلاد واحدة غير أن هذه الخدعة الجديدة التى أسميناها «الحفاظ على المظاهر الإسلامية، وتدمير لقيم الإنسانية» لم تنفذ بسهولة ويسر، فلقد عرفت الأمة أبعادها، وحصل رد فعل عنيف ضد الحاكم المستبد الجديد. الذى أخذ يغير سيرة السلف الصالح من أمة محمد (ص)، وتناقص. أعماله سيرة الرسول ونظام الخلافة الراشدة بممارساته اليومية، وسحقها لحقوق الإنسان. وكيف انتهى إلى إلغاء أهم بند من بنود الدستور (القرآن الكريم)؛ وهو العمل بالشورى فى انتخاب قائد الأمة، وجعل الحكم وراثيا فى نظام عضوض يرثه ابنه يزيد من بعده.

لقد وقفت المعارضة الإسلامية التى كانت تمثل الأمة جميعا مطالبين بالدستور وأحكامه، منددين بمعاوية وأعماله. فكان الطريق للقضاء على المعارضة الإرهاب والتطميع. واستعمل معاوية الاثنين معا، غير أن التطميع وبذل المال لم ينفع فى أغلب الأحيان فى المسلمين الصامدين، فكان يأتى دور الإرهاب والتخويف والترهيب. أما التخويف فكان يرافقه استعمال القسوة والشدة التى لم يألفها المسلمون منذ أن انتهى عهد الجاهلية، حيث أصبح المسلمون فى عهد الرسول والخلافة الراشدة رحماء بينهم أشداء على الكفار، يحبون بعضهم بعضا، وكان كل واحد للآخر كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وإذا بهذه الأمة تواجه نظاما عنيفا قاسيا، يريد فرض السيطرة عليها بأى ثمن، وبأى شكل. فازادادت المعارضه غيظا ونشاطا لحفظ مكاسب الإسلام مستمدةً القوة من الأكثرية الناقمة على السياسة الجديدة، التى أخذ بتنفيذها الحاكم الجديد الذى وصل إلى الحكم بوعود كاذبة وخِدَع كبرى. فكان لا بد من التمسك بذريعة تبرر استعمال العنف والقسوة مع المعارضة.

فبدأ بتصفية المعارضة التيأخذت تنقم على سياسته الجديدة، وسلك طريقا ذكيا غريبا فى فصل المعارضة عن الأكثرية الإسلامية الناقمة. فلأول مرة استعمل معاوية فى الساحة الإعلامية عبارة «شيعة على» ولم يكن يقصد من «شيعة على» آنذاك فى منطق معاوية إلا تلك الفئة التى كانت ترى فى نظامه ما يتناقض مع واقع الإسلام ونظام الخلفاء الذين سبقوه. وأخذ معاوية يسفك دماء المعارضة وتعذيبهم، بذريعة أنه يريد القضاء على «شيعة على».

ومعاوية كان أدرى من غيره بأن القضاء على الذين كانوا يوالون الإمام عليا يعنى القضاء على الأكثرية الإسلامية، ولم يكن بمقدوره القيام بهذا الأمر، لأن المسلمين

آنذاك كلهم كانوا يحبون الإمام على ويوالونه كل الولاء. وعلينا أن نعلم أيضاً أنه بعد استشهاد الإمام على فإن الإمام الحسن الخليفة الشرعى تنازل لمعاوية عن الخلافة، وبايعه مع كل الموالين للإمام على، وذلك لإنهاء الفتنة بين المسلمين وحقنا لدمائهم. فإذاً لم يبق هناك فى الساحة من مسلم كان يوالى عليا وهو يعادى معاوية بعد البيعة معه.

إذاً فإن الغرض من سياسة الإرهاب إنما كان هو استتباب الحكم له بالصورة الاستبدادية، وتأديب كل من يقف ضده بذريعة أنه من «شيعة على» والتمهيد لخلافة ابنه يزيد. ولا شك أن المسلمين كلهم فى ذلك العصر كانوا يتفقون فيما بينهم بأن الخلافة إن كانت بالوراثة فأهل بيت رسول الله وأولاد الإمام على أولى بالخلافة من يزيد بن معاوية.

هذه الفكره التى كانت الشغل الشاغل للأمة آنذاك، كانت تهدد سياسة معاوية بالفشل، لذلك أراد أن يعطى الإنذار الأخير لكل من يقف بوجه نظامه ويعارض رغباته. فقتل الصحأبى الجليل حجرالكندى ومعه ابنه وزمرة من أصحابه، وأعطى لهذه الجريمة النكراء ذريعهة يعرفها الجميع، وهى أن الكندى كان من أصحاب على ولم يكن يتبرأ منه، فلذلك أوجب قتله. وكلنا نعلم علم اليقين أن معاوية لو كان يطلب من كل الصحابة والتابعين المعاصرين لحجر الكندى أن يتبرأوا من على فما كان أحد يعير لكلامه وزنا. ولكن أصابت القرعة اسم هذا الصحأبى الجليل فقتله شر قتلة لكى يكون نذيرا لكل من يقول لا لسياسته الشريرة، ثم ليعلم الجميع أن معاوية لا يفرق بين الصحأبى وغير الصحأبى إذا ما لزم إهدار دمه.

ومع أن الأمة سكتت فى ظاهر الأمر على هذا العمل الشنيع، إلا أنها كانت تغلى فى واقع أمرها وهى لا تستطيع التعبير، لأن معاوية أنهى دورها فى الساحه بالإرهاب

والتخويف، الذى كان يستعمله بحق المعارضة. ولم يكن غرض معاوية هو قتل الناقمين السياسيين، بل كان يهدف إلى أمر أكبر من ذلك كما قلنا، وهو أن يجعل من الأمة دمية تتحرك بأمره، وترضخ لكل ما يأمر ويريد، ولا يجرى على ألسنتها إلا ما يتفق وهواه.

وإذا سكتت الأمة على مقتل حجر بن عدى الكندى إلا أن اثنين لم يستطيعا السكوت على هذا العمل القبيح، بل اعترضا أشد الاعتراض ووبخاه عليه أشد التوبيخ، هما الإمام الحسين أولا، الذى كتب له فى رسالة غاضبة:

«ألست القاتل حجرا أخا لكندى والمصلين العابدين الذى كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع ولا يخافون فى الله لومة لائم . . قتلتهم ظلما وعدوانا ..».

والثانى هى السيدة عائشة أم المؤمنين لتى لامته بغضب وعنف عندما دخل بيتها فى المدينة زائرا فقالت له:

« أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه يا معاوية! ».

ولم يقنع معاوية بقتل الرجال وتعذيبهم، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فهو أول من ابتكر التعذيب الجسدى فى الإسلام بعد العهد الجاهلى. فقد روى المؤرخون أن معاوية أمر بسجن آمنة زوجة عمر بن الحمق الخزاعى على أمل أن يسمع زوجها باعتقالها فيسلم نفسه، أو أن زوجته تنهار بمقاومتها فتشى به. فاحتملت عناء السجن سنتين حتى أن استطاع عبد الرحمن بن الحكم لن يظفر بعمر بن الحمق فقتله، وبعث برأسه إلى معاوية فأمر معاوية بأن يؤخذ الرأس إلى السجن ويطرح فى حجر الزوجة، فعندما فعلوا ذلك ارتاعت لساعة من الزمن ثم وضعته بين يديها ووضعت يدها على رأسها وقالت:

«واحزناه . . نفيتموه عنى طويلا واهديتموه إلى قتيلا، فأهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية، وانا له اليوم غير ناسية» .

ثم نادت على الحرس وقالت له: عد بالرأس إلى معاوية وقل له تقول لك آمنة:

«أيم الله ولدك وأوحش منك أهلك ولا غفر ذنبك»[1] .

لقد كان هدف معاوية من هذا الأمر فى تعذيبه للنساء، إفراغ الأمة من نصف محتواها الذى هو عنصر الأنثى الذى كان عنصرا فعالا فى ذلك العصر، كى يسهل عليه تطويق الأمة من كل جانب، وإخضاعها لمآربه. ومعاوية هو أول من أنهى وجود المرأة فى الساحة الإسلامية على خلاف ما كانت عليه فى عهد الخلافة الراشدة والرسول الكريم (ص) ، حيث كانت المرأة تقوم بأدوار كبيرة فى تسيير النظام الاجتماعى، وتشترك فى غزوات الرسول، وتبايع الخلفاء، وتقوم بأعمال الدعوة إلى الإسلام والتبشير. وكلنا نعلم عن النساء المهاجرات اللواتى هاجرن إلى الحبشة خوفا من المشركين، وقيامهن بالدعوة إلى الإسلام فى تلك الأرض الغريبة، وعلى رأسهن أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان التى تزوجها الرسول بعد أن مات زوجها عنها. والسيدة خديجة أم المؤمنين التى كانت من أثرياء قريش. وبذلت أموالها فى سبيل الدعوة إلى الإسلام وفى إرساء رسالة زوجها النبى العظيم (ص) .

ولا نريد أن نستطرد فى تفصيل دور المرأة البارز فى عهد الرسول والخلافة الراشدة، غير أننا نريد أن نقول إن معاوية هو أول من سلك السياسة الهادفة لإنهاء المرأة من الساحة الإسلامية. وبإنهاء هذا النصف، استطاع أن ينهى النصف الآخر الذى يتمثل فى الرجال.

١- بلاغات النساء لطيفور، وأعلام النساء لعمر كحالة.

ولكى يعطى معاوية بعدا أكبر للقضاء على المعارضة أمر بسب الإمام على على المنابر، وإنى اعتقد جازما أن غرضه من سب الإمام لم يكن إحياء للنعرات القبلية وتشفيا لقتل جده وخاله وأخيه فى غزوة بدر[1]، فمعاوية كان أدهى من ذلك بكثير.

إن سب الإمام على من على المنابر الإسلامية كان يهدف إلى أمور خطيرة لم ينتبه إليها المؤرخون. ولا أهل السير والحديث عبر التاريخ، فقد كان الهدف الأول هو تضعيف الأسرة النبوية والخلافة الراشدة. تمهيدا لإخراج الخلافة من هذين الصنوين، ودفعها إلى من يريد. وثانيا كان يريد التعرف على مناوئى النظام من خلال رد الفعل الذى كان يحدث فى المساجد. فالمعارضة لم تقبل بسب الإمام كما أن الأكثرية الصامتة لم تقبل بذلك أيضاً. غير أن التاريخ، حيث لم يستطع أفرادها السكوت والمجاملة، فكانت تدخل فى قائمة المناوئين لحكم معاوية. فيقتلون بعد ذلك أو يعذبون بذريعة انهم من «شيعة على» أو كان يشترى ضمائرهم ليصبحوا ضمن الموالين للسلطة الجديدة.

ومعاوية كان قد مهّد للقضاء على الخلافة الراشدة، منذ أن اتهم الإمام على بالاشتراك فى دم عثمان، وكانت حرب صفين هى النتيجة التى كان يريدها، حيث كانت تهيئة نفسية للوقوف فى وجه الخليفة الشرعى الذى هو زوج البتول، وأبو الحسنين، ومن بناة الإسلام الأوائل تحت قيادة الرسول (ص).

إذاً فإن معاوية لم يواجه خطرا يهدد حكمه، اسمه «شيعة على» بل كان الخطر من المعارضة الإسلامية التى كانت تمثل الأكثرية وهى الطبقة الجريئة التى كانت تبدى النقد وتبين الواقع. وحينئذ كانت تصفى جسديا. وقد بلغ الإرهاب مرحلة لا تطاق

١- جد معاوية لامه عتبة بن أبى ربيعة وخاله الوليد بن عتبة وأخوه حنظله بن أبى سفيان قتلهم الإمام على يوم بدر.

عندما أراد الدستور فى الشورى وإنهاء السيرة التى سار عليها السلف الصالح، وهى أخذ البيعة قسرا لابنه يزيد كى يكون وليا للعهد، وخليفة من بعده.

لقد كان فى الأمة الإسلامية فى ذلك العهد آلاف من الذين عاصروا الرسول الكريم، وكانوا فى صحبته يوم «غدير خم» حين رجع من حجة الوداع إلى المدينة وهو يخاطبهم بقوله :

«إنى تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتى، فانظروا كيف تخلفونى فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض»[1].

كان من الصعب على معاوية أن يخرج على الدستور ومتممه «القرآن الكريم، والسنة النبوية» إلا بتعطيل وجود الأمة كأمة آمرة ناهية فى الساحة، وفرض نظام جديد يتناقض. مع النظام الذى عوَّد رسول الله (ص) أمته عليه.

ونحن هنا عندما نتحدث عن إنهاء وجود الأمة فى الساحة الإسلامية لا نقصد وجودها المادى أو العلمى أو الثقافى أو تأثيره البناء من هذه النواحى فى الأمم الأخرى. معاذ الله أن نقول كلاما كهذا. فالإسلام وصل إلى حدود فرنسا بعد فتح الأندلس، وفى عهد الخلافة العباسية وصلت الأمة إلى أوج ازدهارها، وكانت بغداد موطن الحضارة المادية واالعلمية والثقافية الكبرى فى ذلك العصر والسلاجقة كانوا يحكمون بلادا شاسعة واسعة ممتدة من سوريا إلى أسوار فيينا وبلاد البلقان وفى الشرق وصل الإسلام إلى تخوم الهند وبفضله أسست الدولة المزدهرة المغولية فيها. فالمسلمون خدموا العلم والثقافة الإنسانية، من خلال تعاليم الإسلام، خدمة عظيمة ودفعوا عجلة المعرفة والحضارة

١ – اخرجه مسلم فى صحيحه.

الإنسانية إلى الإمام، وكانت بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس، تشع بالعلم والمعرفة على المجتمع البشرى فى وقت كانت أجزاء كبيرة من أوربا تعيش فى الظلام. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما وراه المؤرخ الكبير «ويل ديورانت» فى تأليفه الضخم «قصة الحضارة» حيث يقول : «إن الفنلنديين حتى القرن الحادى عشر الميلادى كانوا يأكلون لحم الإنسان». هذا فى وقت كانت فيه الحضارة الإسلامية تشع على آفاق بعيدة وعلى أرجاء كثيرة من الأرض، وإذا ما تراجعت تلك الحضارة فيما بعد، لأن المسلمين لم يستطيعوا حفظ المكاسب التى حصلوا عليها، واسترد منهم ما أخذوه، كما حصل فى الأندلس. وفى البلقان وفى أجزاء كبيرة من الهند ومناطق كبرى من الصين.

لقد كانت الضرورة تملى علىّ أن أبين هذا الموضوع بكل وضوح كى لا يثقل الكتّاب الذين لا تروقهم هذه الصراحة على أنفسهم، ويردوا علينا متبجحين بالحضارة الإسلامية فى عهودها الماضية، وأن يعلموا أنه لا ولن يستطيع أى إنسان أن يبخس الحضارة الإسلامية العلمية والثقافية فى العهود التى أشرنا إليها، ولكن فى الوقت نفسه لا يستطيع أحد أن يتباهى بوجود الأمة فى الساحة فى ظل نظام ديمقراطى حر أمر به القرآن الكريم، وسار عليه السلف الصالح من أمة محمد (ص) فى العصور التى أشرنا إليها.

إن الأمة الإسلامية منذ أن استلم معاوية الحكم فقدت كل المثل والمفاهيم المتعلقة بحقوق الإنسان، وحرية الرأى وتقرير المصير. فلذلك كانت الأمة تعيش فى كر وفر. فعندما يكون نصف الإسلام معطلا أو بالأحرى الجناح الآخر للإسلام لا يعمل به، فحينئذ تعيش الأمة تحت رحمة الحاكم. فإذا كان الحاكم جسورا، شجاعا متبنيا للخير سعدت الأمة إلى حد ما فى ظله. وإذا كان فاسقا جائرا فاجرا شقيت فى ظله. وما أقل

النوع الأول من الحكام فى تاريخنا، وما أكثر النوع الثانى. هذا إذا جاز أن نستعمل كلمة الصلحاء فى حق الذين يحكمون الشعب رغما عن إرادتهم، ولو قاموا وأمروا بعمل الخير.

وإذا كان تغيير النظام الديمقراطى إلى نظام استبدادى عنيف أمراً خطيراً وصعبا، ولكنه لم يكن مستحيلا، فلقد شاهدنا فى تاريخنا المعاصر أمما ديمقراطية اختارت حاكمها بطيب الرضى والقناعة، وسرعان ما خانها ذلك الحاكم وجعلها كعصف مأكول. لقد عاصرنا الشعب الألمانى الذى اختار هتلر بالأكثرية الساحقة غير أن هذا الأخير انقلب على شعبه بالاستبداد وحكمه بالنار والحديد، فى ظل النازية التى جعلت من البلاد جحيما. ولذلك نقول بوضوح إن الحضارة المادية شىء، والحضارة الديمقراطية التى تنبع من سيادة الأمة شىء آخر. إن فارس وروما القديمة ومصر والصين وبابل كانت تتمتع بحضارات مادية مزدهرة عظيمة. ولكن الإنسان كان مضطهدا فى ظل تلك الحضارات أشد الاضطهاد، وفى حياتنا المعاصرة شاهدنا حضارة مادية وهى روسيا التى احتلت أعظم المراتب فى القوة المادية، إلا أن الإنسان كان فيها مضطهدا وبائسا.

فالطريقة التى تبناها معاوية لم تكن شاذة فى تاريخ الأمم قديما وحديثا، حيث إن العنف والقسوة وما بحكمها يعتبر الطريق الوحيد لإذلال الشعوب ولامتهانها.

وأعود إلى ما أنا فيه لكى أثبت هنا أن الذين سفك معاوية دماءهم من المسلمين الصالحين. سواء كانوا من صحابة الرسول أو التابعين أو غيرهم وسماهم «بشيعة على» إنما كانوا من المعارضة الإسلامية التى تمثل القاعدة الإسلامية الكبرى، وأعنى الأمة. وهذه المعارضة لا يخلو من وجودها فى الساحة فى أى عصر ومصر، وفى أى امة وملة.

فلذلك كانت الذريعة إلى القضاء على المعارضة هى تسميتهم «بشيعة على». وقد زاد هذا التعذيب والقسوة على المعارضة بعد أن استطاع معاوية أن يصفى وجود الإمام الحسن ويقتله بالسم على يد زوجته جعدة. التى وعدها معاوية بمال وفير، وبالزواج من ابنه يزيد. فعندما نفذت الزوجة الخطة الشنيعة بعث معاوية لها بالمال، وقال لها : أما الزواج بيزيد فلا.. فأخشى أن تفعلى به ما فعلت بالحسن بن على.

ولم تكن هذه أول مرة يستعمل معاوية فيها السم لقتل أجلاء المسلمين، فقد دس السم لمالك الأشتر فى عهد الإمام على، وكانت له كلمته المعروفة : «إن لله جنودا من عسل».

إن تغيير مسار أمة من الخير إلى الشر، ومن الحرية إلى الاستبداد، ومن العدالة إلى الظلم، أمر صعب لا بد أن يسانده دعم روحى يبرز ظلم الحاكم لقبول الأمة بالظلم. أو للحالة السيئة التى تريد أن تنتقل إليها.

وهنا استعمل معاوية دهاءه العظيم بشراء الضمائر التى لم تكن تمتنع عن وضع أحاديث ملفقه ينسبونها إلى رسول الله (ص) للرضوخ إلى الحاكم الظالم، أو السكوت أمامه أو التسليم له أو عدم الأهتمام بشئون الأمة، والاختباء فى المنازل عندما تظهر الفتن أو الأحاديث الاخرى التى كلها تكون فى مصلحه الحاكم االظالم الجائر، والنصيحة للأمة بعدم مواجهته، أو لسكوت عن أعماله. كل هذه الأحاديث بدأت تظهر فى عهد معاوية. تمهيدا لإضفاء الشرعية على نظامه أو حمل الأمة على قبول حكمه.

ولا نريد أن نذكر فى هذا المجال عشرات الأحاديث التى نسبت إلى رسول الله (ص) بل نكتفى بحديثين رواهما البخارى، واختيارنا للبخارى فى هذين الحديثين إنما

هو دليل قاطع على أن مثل هذه الأخبار قد أخذت طريقها حتى إلى كتب الصحاح التى تعتبر من الروافد الأساس فى فقه المذاهب الأربعة الإسلامية.

يذكر البخارى فى كتاب «الفتن» عن ابن عباس ما هذا نصه :

(من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه. فإن من فارق السلطان شبرا إلا مات ميته جأهلية) .

عن أبى هريرة عن النبى (ص) قيل :

«ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى».

ويذكر فى كتاب البخارى أيضاً عن انس بن مالك رضى الله عنه فقد شكا إليه ما لقى الناس من الحجاج فقال :

«اصبروا فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» . – سمعته من نبيكم – .

إن من الوضوح بمكان أن وضع هذه الأحاديث كلها لتكون فى مصلحة الحاكم المستبد، والصبر على كل ما يصدر منه، والهدف منها إلغاء وجود وإرادة الأمة من الساحة، وأن تكون مأمورة مطيعة بدلا من أن تكون آمرة مطاعة. وهذه الأحاديث تتناقض مع النصوص الدستورية فى القرآن الكريم من الالتزام بالعدالة ومقاومة الظلم بقوله تعالى:

١– الحج : ٣٩

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1].

ويتناقض أيضاً مع الحديث الصحيح عن رسول الله (ص) :

«إن يوم المظلوم على الله أشد من يوم الظالم عليه».

أى أن المظلوم سيحاسب أمام الله بشدة لصبره وسكوته على ظلم الظالم. ويتناقض أيضاً مع ما رواه الإمام على حيث قال : سمعت من رسول الله (ص) فى أكثر من موطن :

«لن تقدس أمة لا يؤخذ فيها للضعيف حقه من القوى»

وإذا قرأنا القرآن الكريم بإمعان وقرأنا عشرات الآيات التى وردت فى وجوب العدالة، وتقبيح الظلم لعلمنا بوضوح أن الأحاديث التى تحث الأمة على الرضرخ إلى حكم الظالم والصبر عليه، والسكوت أمام مطامعه وأعماله وأفكاره، إنما وضعت فى صالح الأنظمة الاستبدادية الكبرى التى جاء الإسلام لتدميرها.

ومعاوية لم يقنع باستخدام من وضعوا الأحاديث عن رسول الله (ص). بل أحدث تحويرا خطيرا فى تأويل النصوص القرآنية والأحاديث التى وردت عن النبى (ص) حيث وجهها نحو قبول خلافته ونظامه، الاستبدادى.

فلذلك نحن لا نتعجب مطلقاً عندما نقرأ فى التاريخ أن الأسرى من أهل بيت رسول الله (ص) عندما دخلوا إلى مجلس يزيد فى الشام يتقدمهم على بن الحسين بن على بن أبى طالب - زين العابدين - وبطلة كربلاء السيدة زينب بنت على بن أبى طالب أن يخاطب يزيد القافلة النبوية المنكوبة التى طاف على البلاد بها من كربلاء إلى

الشام. إذ يبرر فعلته الشنيعة وقتله للإمام الحسين خير الناس أباً وأماً وسيد شباب أهل الجنة بتلاوته لهذه الآية :

(قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ الْمُلْكِ تُؤتِى الْمُلْكَ مَن تَشاَءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشاَءُ وَتُعِزُّ مَن تَشآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشآءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِير)[1].

لقد سلك يزيد ما سلكه أبوه فى حرب صفين، عندما قتل جيشه عمار بن ياسر الصحابى الجليل الذى تنبأ رسول الله (ص) باستشهاده بقوله :

«رحمك الله ياعمار ستقتلك الفئة الباغية

وآخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن».

فعندما هاج وماج القوم الذين سمعوا هذا الحديث عن رسول الله(ص) وكادت تشب ثورة داخلية ضد معاوية ومن معه، لأن رسول الله نعتهم بالفئة الباغية، فسر معاوية معاوية هذا الحديث – بوحى من عمرو بن العاص – بأن الذى قتل عمار هو الإمام على. لأنه دفعه إلى القتال، ولكن تفسير الأحاديث والآيات لم تتوقف عند هذه الحالة. بل حدث ذلك التفسير الرهيب لذلك النص الدستورى من القرآن الكريم على نقيض ما كانت تعنيه الآية، إنه النص الذى فسر على نقيضه عبر التاريخ كسند يحمى الحاكم المستبد من المواجهة مع الأمة. بل يساند شرعية وجوده وشرعية قوته وشرعية أعماله وأقواله. إنه الآية الكريمة.

(1) آل عمران : ٢٦.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1].

إنها الآية التى اجتمع القابضون على عقول وقلوب هذه الأمة شيعة وسنة على تفسيرها فى صالح الأنظمة الاستبدادية الفردية، وبذلك حصل أخطر اضطهاد فكرى فى تاريخ الفكر الإسلامى. اضطهاد الأمة الإسلامية بكل فرقها على السواء.

وتظهر عبقرية معاوية ودهاؤه فى خطوة أخرى نفذها بدقة وحكمة وبذلك سيطر على عقول الأمة فى التوجيه الإعلامى وصرفها تماما عن حقها الأساسى. إنها الطريقة التى تتبع حتى الآن فى العالم الإسلامى منذ أن انتهج معاوية هذا المنهج، وسار عليه ولم يشذ عنه وسارت عليه معظم الأنظمة الإسلامية.

لقد حذف معاوية من خطبة الجمعة نصف الأهداف التى جاء الإسلام لأجْلها؛ وهو التنظيم الاجتماعى والسياسى على مبادىء دستورية من الكتاب والسنة فى نظام الحكم والشورى والحرية والعدالة، وكل ما يمت إلى تنظيم المجتمع العادل بصلة.

لقد كانت الخطب التى يلقيها الخلفاء الراشدون على المسلمين فى المساجد، وكذا الخطباء فى عهد الأمة الراشدة فى كل مكان، خطبا تحتوى على جناحين : الجناح التشريعى للإسلام وهو الجناح العبادى والأخلاقى؛ أى حث الناس على التخلق بأخلاق الإسلام صدقاً وقولاً، والقيام بالواجبات وعدم التهاون فيها، كالصلاة والصوم والحج والزكاة. وكان الجناح الثانى هو البحث عن القيم الأساسية لتثبيت القيم الإنسانية

١- النساء : ٥٩.

فى المجتمع، ووجوب حضور الأمة فى الساحة، والأخذ بالشورى والانتخابات الحرة، ووجوب السير على العدالة فى كل ما يمس المجتمع، والأخذ بالمسأواة بين أفراد الأمة، وغيرها من ركائز الديمقراطية والأخلاق التى جاء رسول الله (ص) لإتمامها، وقد صرح صلى الله عليه وسلم بذلك قائلا :

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

فلا تتحقق السعادة فى المجتمعات المتحضرة، إلا بأن تكون الأخلاق ومكارمها مصونة فيها.

فلذلك أمر معاوية أن تكون خطب الجمعة كلها قاصرةً على القسم الأول. وهو حث الناس على الجانب التشريعى والقيام بالعبادات، مع الإهمال الشديد لواجب الأمة فى حضور الساحة وأخذها بحقها الشرعى وانتخابها للحاكم، ومما سبته، وجعل نفسها السيدة التى لايستطيع الحاكم أن يتخذ قرارا إلا بعد الرجوع إليها.

إن حذف البنود المتعلقة بواجبات الأمة فى اتخاذ ما تراه ضروريا فى تقرير المصير، وإهمال النصوص الدستورية من القرآن الكريم بهذا الشأن، وإغفال ما سنه الرسول وسار عليه الخلفاء الراشدون فى هذا الباب فَرَضَ على الأمة حالةً من التأهب للعودة بها إلى النظام الاستبدادى الذى تتلاشى فيه الأمة. فلو أنك تصفحت الخطب التى كانت تلقى فى مساجد المسلمين فى عهد معاوية، وقرأت الخطب التى كانت تلقى بعده فى جوامع المسلمين عبر التاريخ واستمعت لعشرات الآلاف من الخطب التى تلقى فى المساجد فى العالم الإسلامى من جبل طارق حتى بحر الصين فى كل يوم جمعة، أو استمعت إلى الخطب الدينية التى تلقى وتنشر فى أجهزة الإعلام الإسلامى مرئية ومسموعة، شرقا

وغريبا ستجد أن كل هذه الخطب تشمل جناحاً واحداً من العقيدة الإسلامية، وأن هذه الخطب كلها تغفل الجانب الاجتماعى، وما يتعلق بصون القيم الإنسانية. فلا ولن تحتوى على الحرية فى نظام الحكم، وتطبيق العدالة فى توزيع ثروات الأمة والمساواة بين الناس. إن هذه الخطب كلها تبدأ بكلمة طالما سمعناها عبر القرون، «ياعباد الله اتقوا الله» ثم كلام فى فضل الصلاة والصوم ونصائح شخصية، الغرض منها كلها إعطاء الأمة درساً واحداً من دروس الإسلام التى لا تمس نظام الحكم بما يكدر صفو أعماله واستبداده.

إننا لا نسمع فى هذه الخطب كلها كلمة واحدة عن الديمقراطية وواجب الأمة فى كيفية الحصول عليها، أو عن واجب الأمة في دحر النظام المستبد، أو فى واجب الأمة فى مقارعة الظلم والطغيان، أو فى حث الأمة على عدم الرضوخ للأنظمة غير الشرعية التى تحكمها، أو لبيان الطرق التى شرعها الإسلام لإحقاق الحق وإماتة الظلم. وبعبارة أخرى نسمع فى هذه الخطب كل شيء ما عدا الأمة، وكل ما فقدت من حقوق وواجبات. ثم تنتهى هذه الخطب عادةً بالتضرع إلى الله أن يمد فى عُمْر ولىّ الأمر الذى هو الحاكم الآخذ برقاب هذه الأمة، ويعنى هذا الدعاء فى حقيقته إطالة عمر الحاكم وقطع نفس الأمه، وطمس هويتها.

إن هذا المنهج الإعلامى كان من أهم الأسباب التى أدت إلى إنهاء الأمة وضياعها، وأثّر في المنهج الفكرى عند الأمة الإسلامية. فلو نظرنا نظرة فاحصةفى الكتب الفقهية التى أُلفّت عبر القرون عند الشيعة والسنة على السواء لوجدناها كلها على وجه الحصراهتمت بالجانب التشريعى، صلاة وصوماً وحجاً وزكاةً وطهارةً وديات وقصاصاً، وأغفلت التنظيم الاجتماعى فى الإسلام، ونظام الشورى، وحق الأمة فى تقرير المصير، وكل ما يمت بصلة إلى الجناح الثانى الذى يجب أن يسير المسلمون عليه فى شئونهم

نحو التحرر والتنوير والتقدم.

الضياع الفكرى

الضياع الفكرى دائما يسبق الضياع المادى. فلا تستطيع أمة أن تضيع ماديا عند استسلامها للظلم، أو للخزعبلات والبدع والأهواء إلا بعد أن تضيع فكريا، وينتهى أمرها من ناحية الاستدلال المنطقى والبديهيات العقلية إلى قبول البدع والأوهام. لقد استعمل معاوية دهاءه فى إماتة عقل الأمة وتضييعه بفضل القابضين على ناصية الإعلام الإسلامى، الذين هم الخطباء والوعاظ الذين جندهم لهذه الغاية. وقد استطاع أن يصل إلى مآربه بعد أن وجد من القوم فئة كثيرة توافقه على تفسير الآية الكريمة التى أشرنا إليها وهى: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بوجوب الإطاعة للحاكم بغض النظر عن شرعية وجوده أوشرعية أوامره، أوشرعية الأعمال التى تصدر عنه. وهكذا جعل من الحاكم سلطانا يأمر فيطاع، وتساند الشرعية تلك الإطاعة مهما كان شكلها أو مضمونها أو فحواها.

ولكن الأخطر من هذا هو تفسيره للحديث المروى عن رسول الله (ص) «من اجتهد وأصاب فله أجْرأن ومَنْ اجتهد وأخطأ فله أجر واحد».

إن الاجتهاد الذى أشار إليه رسول الله (ص) ليس الاجتهاد العملى بل هو الاجتهاد النظرى، كما أنه لا يقصد (ص) بذلك الاجتهاد فى الموضوعات. بل كما هو واضح يقصد الاجتهاد فى الأحكام الشرعية التى لا نص فيها فى الكتاب أو السنة. والفقيه إذا ما اجتهد فى مسألة وأدلى برأيه فيها فإن أصاب فله أجران وإن اخطأ فله أجر واحد. أما من اجتهد وزعم أن قتل نبى من أنبياء الله واجب فقتله. أو اجتهد وزعم أن

مال الغير ماله فسرقه، واجتهد أن زوجة الغير زوجته فاغتصبها، فهل له أجر واحد ولا يُحاكم أمام محكمة، ولا ينزل به القصاص! معاذ الله أن يعني رسول الله شيئا مثل هذا الأمر. وهكذا استطاع معاوية أن يتخذ من هذا الحديث تبريرا في مواجهته مع علي.

ونحن نرى بوضوح أنه منذ عهد معاوية حتى هذا اليوم اتخذ هذا الحديث ستارا سميكا لتغطية كل ما يصدر من حكام الأنظمة الإسلامية وإعطاء الشرعية لكل جريمة ارتكبها الطغاة ضد الإسلام وضد مصالح المسلمين باسم الخطأ في الاجتهاد. فمنذ أن وقف معاوية يشهر سيفه لضرب الإسلام، ويقتل المسلمين بلا حساب، حتى كتابة هذه السطور والأمة الإسلامية تُلَقَّنُ هذا الكلام، الذي لعب بعقول الأمة وكان له عظيم الأثر في تخديرها ورضوخها، وقبولها لكل ما صدر ويصدر من الأعمال عن الحكام، مبررة أعمالهم الشنيعة التي كانت تهز السموات والأرض وحملها على الخطأ في الاجتهاد، ونيلهم الثواب بدلا من العقاب. ويحهم ثم ويحهم، إن تبرير أعمال معاوية بالاجتهاد يعني أنه لا يوجد حاكم ظالم على وجه الأرض، فكل الظالمين اجتهدوا وأخطأوا ولهم أجر، وحينئذ بطل الثواب والعقاب في الآخرة، وأغلقت المحاكم في الدنيا، وانتفى موضوع العدالة في الحكم، ولا حاجة للحاكم أن يكون متصفا بالعدالة على الإطلاق.!!!

كيف استطاع معاوية أن يغير مصير «أمة» استطاعت أن تسيطر على أكبر رقعة من العالم المتحضر في ثلاثين عاما، وتغير أفكارها ومبادئها وأخلاقها؟ أمر لا يحتاج بيانه إلى كثير عناء.

إن معاوية لم يكن وحيداً يسير وراء المبادىء التي كان يريد إحياءها. بل كانت معه أفراد وجماعات تناصر المدرسة التي أخذ بإحيائها من جديد، ولعل من أهم الأخطاء التي

ارتكبها المؤرخون والمسلمون جميعا أنهم تصوروا أن المواجهة بين على ومعاوية إنما هى مواجهة بين رجلين. كلا وألف كلا، بل إن المواجهة كانت بين مدرستين متناقضتين فى المبادىء والأهداف : مدرسة الإسلام التى تمثل تضمين القيم الإنسانية وأهدافها السامية، ومدرسة الاستبداد التى تمثل هدم القيم الإنسانية ومبادئها الرفيعة. فكانت المواجهة بين الحرية وكل ما يمت إليها بصلة، وبين الاستبداد وكل ما يمت إليه بصلة.

ولهذا كله دخل معاوية الحرب للقضاء على المدرسة التى أرساها الإسلام. ومعه حاشية طويلة عريضة من الذين كانوا للامة أعداء متربصين بها من داخل العالم الإسلامى ومن خارجه، ولم يكن من السهل على معاوية إنهاء المدرسة الإسلامية والأمة التى تقف وراءها من كل جهاتها، فلذلك كما قلنا قبل قليل، احتفظ بجزء من المدرسة كشعار لدولته، ومظهر من مظاهر حُكْمه ألا وهو الجانب التشريعى. أى الجناح الأول من الإسلام، فحافظ على الصلوات والصوم والحج، وكل ما يوحى بمظاهر الأمة الإسلامية، وقضى على الجناح الثانى ودمره تدميرا، ألا وهو القيم الإنسانية الرفيعة التى جاء الإسلام لإرسائها، من عدالة وحرية ومساواة. وهنا لا بد بأن نذكر بشىء من التفصيل السياسة التى انتهجها معاوية لإنهاء وجود «الأمة» من الساحة.

١- لقد أمر معاوية بسب الأمام علىٍّ على المنابر فى خُطَب الجمعة التى كانت تقام فى مساجد المسلمين. ومن الغباء أن نتصور كما تصور مئات الكتاب والمحدثين والمؤرخين أن الغرض من هذه الخطوة إنما هو التشفى أو أخذ الثأر من رجل كانت تمتد الضغناء والشحناء بينهما إلى نصف قرن. فمعاوية أدهى من أن يحقد على أحد عندما كانت المصلحة تقتضى التودد إليه. أن السر الخطير الذى كان يكمن وراء سب الإمام على أمران يعتبر كل واحد

منهما مكملا للآخر، الأول : معرفة أنصار المدرسة التى كان الإمام يمثلها للقضاء عليهم والبطش بهم، أى إنهاء المعارضة. والثانى : إذلال الأمة الإسلامية وتعويدها على الرضوخ والسكوت أمام إرادة الحاكم حتى لو تجسدت فى سَبّ صنو الرسول وأبى الحسنين، وإن شئت قل سب الإسلام، وأهم من هذا أن معاوية كان يريد إنهاء الثقلين اللذين أوصى رسول الله (ص) بالتمسك بهما، كتاب الله وعترة نبيه، أما الكتاب فأنهاه بإنهاء الشورى، وجعل الخلافة ملكا عضوضا فى أعقابه، وأمّا العترة فأراد القضاء عليها بِسبّ علىٍّ من على المنابر.

لقد كان الخطباء يؤمَرون بسب على فى خطب الجمعة وكان الترغيب أو الترهيب يعمل دوره فى حَمْل الخطيب على هذا القول الشنيع، وكانت عيون معاوية تراقب فى المساجد ردود فعل المصلين، فمن سكت وطأطأ رأسه كان يعتبر مناصراً للنظام الجديد، ومن انبرى واستنكرَ كان يُؤخَذَ أخذَ عزيز مقتدر.

وهكذا استطاع معاوية أن يعرف أنصار المدرسة الإسلامية والمتحمسين لها ليقضىَ عليهم، ويدخل الرعب فى قلوب الأكثرية الصامتة التى بدأت تنحو نحو الانزواء فالضياع.

٢- أسس معاوية الشرطة السياسة التى كانت موجودة فى الأنظمة الاستبدادية الفردية فى فارس وروما. حيث كان يناط بهم استقدام المناوئين للسلطة وتعذيبهم وقَتْلهم، الأمر الذى لم يكن معروفا فى النظام القَبَلى الذى انحدر معاوية منه، مما يعزز ثقتنا بأنه كان يسير بخطى دقيقة بوحى من الرومان، وبما أن الشرطة السياسية بحد ذاتها لا تستطيع أن تعمل إلا إذا كان هناك جهاز

للتجسس يتجسس على عقائد الناس وأفكارهم، والأنظمة الاستبدادية فى ذلك الوقت شأنها شأن الأنظمة الاستبدادية فى تاريخنا كعيون وآذان للنظام، تنقل إليه ما يقوله الأعداء والناقدون والساخطون والمعارضون، وكلنا نعلم جيدا أن القرون الوسطى شهدت فى أوربا أسوأ المحاكم فى تاريخ البشرية. أى محاكم التفتيش؛ حيث كانت الأجهزة التجسسية الدينية تفتش عن عقائد الناس وسرائرهم حتى تشى بمن لا يؤمن بالمسيحية عند «البابا» فيعاقبه عقابا على ذلك عظيما.

إن هذه الحالة لم تكن حالة مألوفة عند الأمة العربية التى نشأ وترعرع معاوية فى كنفها، بل إن عظمة الإسلام تظهر بوضوح عندما نعلم أن النص الدستورى فى القرآن الكريم حرم التجسس بكل أنواعه. بل وحتى الغيبة، وعبّر عن الجاسوس بالذى يأكل لحم أخيه بالآية الكريمة :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)[1].

٣- ومعاوية أسس نظاما تجسسيا، وكانت عيونه وأذانه تأتى له بأخبار المعارضة التى سماهم بـ «شيعة على» ليحيل أمرهم إلى الشرطة السياسية، وأنصار على ومحبوه لم يكن يعنى أكثر من أنصار مدرسة محمد والمؤمنين بتعاليمها. أن سب علىٍّ على المنابر فى حقيقته لم يختلف أبدا عن سب الإسلام ونبى

١- الحجرات : ١٢.

الإسلام إلا فى المظهر والصورة، فإذا كان معاوية لم يستطيع أن يسب الإسلام ومحمدا بالاسم والرسم، لكنه استطاع أن يسبهما من خلال سب على بن أبى طالب، وبذلك بدأت الأمة تتهيأ لأمر رهيب، ألا وهو تغيير المسار الذى شرعه الإسلام وانتهجه محمد (ص) وسارت عليه الأمة الرشيدة فى عهد الخلافة الراشدة، وكان القتل والتعذيب لكل من يمتنعون عن سب الإمام على والبراءة منه، وكانت اخبار هذا التعذيب تنتشر فى العالم الإسلامى وتعرف الأمة أن نظاما إرهابيا جديدا حل محل العدالة والحرية، وأن من يتكلم ضد أهواء ورغبات الحاكم يجلد حتى الموت، أو يقطع لسانه أو تقطع يداه ورجلاه، أو يترك فى السجن فيموت جوعا.

٤- ولأول مرة أسس معاوية السجن السياسى. الأمر الذى لم يكن له وجود فى عصر الرسالة والخلافة الراشدة، وكانت السجون تضم بين جدرانها آلافا من أنصار المدرسة الإسلامية، ومن خصوم مدرسة الاستبدادية التى قضى الإسلام عليها. حيث إن الإسلام اطلق حرية الإنسان عقيدةً وفكرا، وَحرَّم اضطهاد الإنسان لعقيدته وفكره وأثبته فى نصوص دستورية صريحة :

(لا إكْراهَ فِى الدِّينِ قد تبَيَّنَ الرُّشد مِنَ الغَىِّ...)[1].

(قُلْ يأيُّهَا الْكفرُونَ. لا أعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أنتُمْ عَبدُونَ مَآ أعْبُدُ وَلا أنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلا أنتُمْ عَبِدُونَ مَآ أعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِى دِينِ)[2].

١- البقرة : ٢٥٦.
٢- الكافرون : ١ - ٦.

وقد بلغ الإرهاب فى عهد معاوية أوجهَ عندما توفى الإمام الحسن، واشتهر فى حينه أن معاوية قد مَهّدَ الطريقَ لقتله فى سم دس فى طعامه. ونحن لا نجد غرابة فى ذلك، فهو الذى كان يريد قتل الإمام على «الإمام الشرعى» فى الحرب التى خاضها ضده حتى يحل محله، فهل كان يتردد فى قتل الإمام الحسن، كى يخلو له الجو من مرشح يختاره المسلمون للخلافة إذا مات، ويمهد الطريق لاستخلاف ابنه يزيد!

وبلغ الإرهاب قمته عندما قتل معاوية الصحابى الجليل حجر الكندى وابنه وأصحابا لهما، على مرأى ومسمع من المسلمين، لأن هذا الصحابى كان متحمسا لمدرسة الإسلام مناوئا لمدرسة الاستبداد. لقد قتله معاوية ومعه ستة من أصحابه، وهم من خيار المؤمنين فى عصرهم، ويكفى أن نقرأ فى لائحة الاتهام هذه الفقرات التى قرأها عليهم الجلاد قبل الإعدام كى نعرف فداحة الخطب :

«إن أمير المؤمنين – يعنى معاوية – أمرنى بقتلك وقتل أصحابك يا رأس الضلال، ومعدن الكفر والطغيان والمتولى لابى تراب، إلا أن ترجعوا عن كفركم وتعلنوا صاحبكم وتتبرؤوا منه» .

ودافع حجر عن نفسه دفاعا مقتضبا لا يتجاوز بضع كلمات «ان الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه، ثم القدوم على الله وعلى نبيه أحبُّ الينا من دخول النار» .

وهكذا انتهى الحوار الحزين بين صحابى عظيم من أصحاب رسول الله (ص) وجلاد محترف شاهرا سيفه. ثم أوصى حجر بوصية فى نصف سطر وقال :

«لا تطلقوا عنى حديدا ولا تغسلوا عنى دما فإنى ملاق معاوية على الجادة» .

وعرفت الأمة من أقصاها إلى أقصاها أن الخليفة ارتكب هذا الجُرم العظيم متحدياً حدود الله وحقوق الأمة. إن تلك الواقعة الحزينة كانت إيذانا بضياع الأمة وانتهائها وتوقفها فى مكانها.

إن «الأمة» الإسلامية لن تتحرك من حالة الضياع التى فرضها عليها معاوية بعد مقتل ذلك الصحابى الجليل قيد أُنملة إلى الأمام، ووقفت فى مكانها تصفق للحكام الظالمين، وتبتسم فى وجههم وتلبى أوامرهم، وتهمس بحَذَرٍ، وبدون أن ترفع صوتا عما يصيبها من أذىً وظلم وشر، نستثنى من هذه القاعدة تلك الفئات المعارضة التى لم يَخْلُ منها عَصْرٌ أو مِصْر.

وهكذا أصبحت التصفية الجسدية والتعذيب شعار الأنظمة الاستبدادية حتى كتابة هذه السطور.

٥- عَيَّنَ معاوية ابنهَ يزيد خليفةً للمسلمين، وأرغم الأمة على هذا التعيين بالطريقة التى كان قد سلكها ترهيبا وترغيبا، ولم يكن للأمة بُدٌّ من قبول يزيد خليفةً للمسلمين. إنه شأن كل أمة ضائعة ترضخ لِما لا تريد، لأن إرادتها مُغَيَّبة .

مات معاوية وقد أكمل رسالته وخلف وراءه أمة ضائعة مستهلكة فى الفرد. لا تجد طريقها إلى الصواب، وهى حائرة فى آخرها، إلا أنه ظلّت بين الأكثرية فئات تستوعب ما وصل إليه الحال وعلى رأس هذا النفر القليل، الحسين بن على بن أبى طالب، سبط الرسول وريحانته.

لقد أراد الحسين أن ينقذ الأمة فى أصعب ساعات تاريخها، وبذل قصارى جهده

فى سبيل، ولكنه لم يستطيع الوصول إلى ما كان يصبو إليه، فالطريق محشوة بالنار والشوك.

ولنعلم أن الحركة التى بدأها الحسين لتغيير الوضع الذى فرضه معاوية وأنصاره على الأمة لم يكن حركة ثورية فحسب. بل كان حركة فلسفية علمية، بُنِيَتْ على قواعد أساسية لتغيير مسار «الأمة» وإخراجها من الظلمات إلى النور، ودفعها إلى الأمام وإحيائها بعد أن أصيبت فى مَقْتل. غير أن الذى يبدو لى واضحا هو أن الأمة كانت قد وصلت إلى مرحلة خطيرة من الضياع فلم تستوعب الحركة الحسينية، والمدرسة التى أسسها لإرسائها.

إن الأمة الإسلامية بعد عشرين عاما من الاضطهاد الفكرى والجسدى الذى فرضته عليها مدرسة الاستبداد المتمثلة فى النظام الاستبدادى الفردى كانت قد وصلت إلى مرحلة لا تستطيع استيعاب الحركة الجديدة التى كان الحسين يقودها، فلذلك انتهت حركة الحسين وفلسفته بقتله وسبى عائلته، وحتى هذه الملحمة العظيمة لم تدفع الأمة إلى قيام عام، وبقيت فيما كانت عليه من الضياع. نستثنى الثورات المحلية التى نشبت وأخمدت، وكلها كانت تريد استبدال الفرد بالفرد، لا استبدال الفرد بالأمة، مثلما كان هدف الحسين والذى ثار من أجله.

ان الحركة الحسينية عام ٦٣ هجرية حركة لم تستوعبها الأمة الإسلامية فى وقتها، ولم تستوعبها أجيال هذه الأمة عبر القرون، فلا الشيعة حتى الآن عرفت فلسفة الثورة الحسينية ولا السنّة أيضاً.

فلو كانت الأمة استوعبت تلك الحركة المقدسة العظيمة التى كانت امتدادا لرسالة

الإسلام التى جاء بها جده محمد (ص) ثم نفذها بمؤازرة صحابة مخلصين، لتغير حال الأمة من السيء إلى الأفضل ولو أن الأمة استوعبت منهج الحسين، وفلسفته فى الدعوة التى دعا إليها، وسار عليها، ما بقى حاكم ظالم فى سدة الحكم ولا محكوم مظلوم.

وأهم الخطوات التى اتبعها معاوية وأكثرها خطرا على الأمة لاستتباب حكمه، إنما كانت سيطرته المطلقة على بيت المال وتجريد الأمة من حقها، وخرق السيرة التى كان يسير عليها السلف الصالح، بدلا من تقسيم ثروات الأمة من غنائم وزكاة على المسلمين بالمساواة. فاستبد بأموال الأمة وخصصها لمآربه السياسية والشخصية، وعزز بها جنده وحرسه والفئة التى كان يستعين بها للقضاء على المعارضة الإسلامية التى أطلق عليها اسم «شيعة على».

إن صرف أموال الأمة فى سبيل قمعها والقضاء على مصالحها بدأ منذ عهد معاوية، واستمر عليه الخلفاء الذين ورثوا الحكم من بعده، امويين كانوا أو عباسيين أو غيرهم، حتى أصبحت السياسة المتبعة للأنظمة الإسلامية المتعاقبة، وبعد أن كانت أموال الأمة فى عهد الخلافة الراشدة ملكاً وحقا للأمة، أصبحت فى عهد معاوية ملكا للخليفة يهبها لمن يشاء ويحرمها على من يشاء. وقد استمد معاوية سياسته هذه بكلمة أعلنها بصراحة ووضوح بقوله إن :

«الأرض لله وأنا خليفة الله فما أخذ من الله فهو لى وما تركته منه كان جائزا إلى».

وبعد معاوية بتسعين عاما قال المنصور الخليفة العباسى :

«أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه».

وبعد المنصور بثلاثة عشر قرنا يقول فقهائنا نحن الشيعة الإمامية :

«نحن الأولياء المسيطرون على رقاب الشيعة فمن لم يأتمر بأمرنا وتخلف عنا مات ميتة الجاهلية» .

ومن الخطوات الأخرى التى استطاع معاوية بها أن يشق وحدة المسلمين، هو إيجاد التفرقة العرقية والعنصرية بين أمة محمد (ص) ونسف الدستور القرآنى الذى يقول :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَكُمْ)(1).

وجعل معاوية التفاضل بين الناس بسبب العرق والدم، وهو أول من استعمل كلمة الموالى، للذين دخلوا فى الإسلام من غير العرب وصنفهم فى ضمن هذا التصنيف ورسول الله (ص) قال فى سلمان الفارسى : «سلمان منا أهل البيت» وعين بلالاً الحبشى مؤذنا له ليثبت للناس أن العراق واللون لا مكان لهما فى الإسلام.

وتتجلى عبقرية معاوية ودهاؤه وعبقرية المدرسة التى أرسى قواعدها أنه بعد ١٤ قرنا يذكره أغلبية المسلمين «برضى الله عنه» وعبروا عنه عبر التاريخ بالصحابى الجليل، وكاتب الوحى ودافعوا عنه وعن أعماله، وأنه اجتهد وأخطأ وله اجر واحد. وصحابيا مقربا كانهم لم يعلموا أن عبد الله بن أبى سرح كان من كتبة الوحى وصحابيا مقربا ولكنه ارتد عن الإسلام فأمر رسول الله (ص) بقتله، وعندما قيل هذا ابن اخطل معلقا بأستار الكعبة قال (ص) اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصيا (2).

إن هذه السذاجة التى هى من صفاتنا نحن المسلمين، والإذعان بقبول كل ما

١- الحجرات : ١٣

٢- سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٩٠ - ٩١.

نسمع ونقرأ بدون تفكير وإمعان جرّت علينا من الهوان والبلايا ما لا يعد ولا يحصى، ثم إن موقف الشيعة من معاوية وتجريحة بتلك الصورة العنيفة أحدث رد فعل لدى السنة، كان نتيجته هو الإغماض عما ارتكبه من أعمال لهدم الإسلام وحمل أعماله على الاجتهاد، ولا شك أن السبب الآخر هو الخلط فى تجريح معاوية والخلفاء الراشدين معا، الذى املاه لأول مرة على الشيعة معز الدين البويهى فى عام ٣٣١ هجرى، كما سنشير إليه فى موقعه. وبهذا الخلط بين العمل الصالح والعمل الطالح، حُصّن معاوية وأعماله وموقعه فى تاريخ الإسلام.

إن مدرسة معاوية كما قلنا لا يمكن هدمها إلا بتعريتها وبيان ما صدر منها من أعمال، فالاقتناع العلمى لا يحصل إلا بالبرهان والمنطق، ومن سلك طريقا غيره لم يصل إلى مبتغاه.

وأود أن اشير إلى أمر خطير لم ينتبه إليه أحد من علماء الأمة والمفسرين حتى الآن، وهو أن الآية الكريمة:

(يأيّها الّذينَ ءَامَنّوا أطيعّوا اللهَ وأطيعّوا الرّسّولَ وَأولِى الأمْرِمنكُمْ...)

واضحة وصريحة، فى أن وجوب إطاعة الحاكم الذى ينتخب انتخابا شرعيا إنما هو فى الأمور السياسية، وليس فى الأمور الشرعية والقضائية، والشطر الأخير من هذه الآية يوضح هذا الأمر حيث يقول رب العزة:

(فَإِن تنزعتمْ فِى شىءٍفَرُدّوهُ إلَى اللهِ والرّسولِ...)[1].

وهذا نص صريح فى أن إطاعة الحاكم لا تجوز فى القضايا الشرعية، وهذا هو دليل أكيد على فصل القوة التنفيذية عن القوة التشريعية.

١- النساء : ٥٩

عصر الإنقاد

العترة - أئمة أهل البيت

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ «الشورى : ٢٣»

ج ابن المنذر وأبو نعيم، والبغوى في تفسيره، وابن المغازلى فى المناقب عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله مَنْ قرابتك هؤلاء ت علينا مودتهم!؟ فقال : عليٌّ وفاطمة وأبناؤهما.

لا ولن نستطيع أن نخوض فى هذا الفصل الذى سميناه عصر الإنقاد إلا أن عصر الرسول الكريم (ص) وعصر الخلافة الراشدة، ونذكر بعض الأحاديث على لسان النبى (ص) فى فضل الإمام عليٍّ وعترته وأهل بيته لنلقىَ الضوءَ ب التى كانت تفرض على المسلمين الاقتداء بأئمة أهل البيت والإذعان التام روحية على المجتمع الإسلامى، ومن ثمَّ نبين بكل وضوح أن وجود ائمة أهل الساحة الإسلامية حتى آخر القرن الثالث الهجرى كان السبب فى إنقاد الأمة من المهالك التى تعرضت إليها، وأن هذا العصر أنتهى بالاعلان عن غيبة ى ومن ثم تطويق الغيبة بالصورة التى سنقرأها فى فصل بهذا الاسم.

أ بعصر الرساله :

ج الحاكم في مناقب على من مستدركه [1] عن زيد بن أرقم قال لما رجع

ث ص ١٠٩.

رسول الله (ص ٩ من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن فقال : «كأنى دعيت فأجبت وإنى قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى وعترتى، فانظروا كيف تخلفونى فيهما؛ فإنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض. ثم قال إن الله عز وجل مولاى وأنا مولى كل مؤمن ثم اخذ بيد على فقال : مَنْ كنتُ مولاه فهذا وليُّه، والِ من والاه وعادَ من عاداه».

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده [1] من حديث زيد بن أرقم قال نزلنا مع رسول الله (ص) بواد يقال له وادى خم فأمر بالصلاة فصلاها بهجير وظلل لرسول (ص) بثوب على شجرة سمرة من الشمس فقال : «ألستم تعلمون أو لستم تشهدون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا بلى قال فمن كنت مولاه فعلىٌّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وأخرج النسائى فى الخصائص العلوية هذا الحديث أيضاً : [2].

وحديث غدير خم يكاد يكون من المتواترت، غير أن هناك أحاديث أخرى فى فضائل الإمام على كل واحد منها يدل على القيادة الروحية التى كان رسول الله (ص) قد أوصى بها لعلى من بعده.

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر هنا بكل اختصار بعض الأحاديث التى وردت على لسان رسول الله (ص) فى الإمام على لنكون على بيِّنة من الأمر.

١- الجزء الرابع ص. ٣٧٢.
٢- ص. ٢١ الحديث نفسه.

١- قوله صلى الله عليه وآله أوحى إلى فى على ثلاث : «أنه سيد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين». اخرجه الحاكم فى ص ١٣٨ من الجزء الثالث من المستدرك.

٢- أوحى إلى فى على أنه سيد المسلمين وولى المتقين وقائد الغر المحجلين أخرجه ابن النجار فى ص ١٧٥ من الجزء السادس من الكنز.

٣- «أول من يدخل من هذا الباب إمام المتقين وسيد المسلمين ويعسوب الدين وخاتم الوصيين وقائد الغر المحجلين» فدخل على فقام صلى الله عليه وآله وسلم مستبشرا وجعل يمسح عرق جبينه وهو يقول له : «أنت تؤدى عنى وتسمعهم صوتى وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى». أخرجه أبو نعيم فى حليته عن أنس ونقله ابن أبى الحديد فى ص ٤٥٠ من المجلد الثانى من شرح النهج.

٤- «يا معشر الأنصار ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا،؟ هذا على فأحبوه بحبى، واكرموه بكرامتى، فإن جبرائيل امرنى بالذى قلته لكم عن الله عز وجل». أخرجه الطبرانى فى الكبير وهو الحديث ٢٦٩٥ من الكنز ص ١٥٧ من الجزء السادس.

٥- «أنا مدينة العلم وعلى بابها». أخرجه الترمذى فى صحيحه، والمتقى الهندى فى ص ٤٠١ من الجزء السادس من كنزه.

٦- «من سب علياً فقد سبنى» أخرجه الحاكم فى ص ١٢١ من الجزء الثالث من المستدرك.

٧- «يا على طوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك» أخرجه الحاكم فى ص ١٣٥ من الجزء الثالث من المستدرك ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد.

٨- «يا فاطمة أما ترضين ان لله عز وجل اطّلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين : أحدهما أبوك والآخر بعلك!» أخرجه الحاكم فى ص ١٢٩ من الجزء الثلث من المسندرك.

٩- «يا على أنت سيد فى الدنيا وسيد فى الآخرة. حبيبك حبيبى وحبيبى حبيب الله. وعدوك عدوى وعدوى عدو الله، والويل لمن أبغضك من بعدى». أخرجه الحاكم فى ص ١٢٨ من الجزء الثالث من المستدرك.

هذه الروايات التى ذكرناها غيض من فيض، وكلها من كتب أهل السنة وهناك روايات مستفيضة كثيرة أخرى كلها فى فضائل على وأهل البيت. أما الأحاديث التى ذكرتها كتب الشيعة فى فضائل على فهى أيضاً لاتقل عن الفضائل التى ذكرتها كتب السنة.

فلذلك نستطيع القول والاعتقاد أن رسول الله (ص) اوصى بإمامة على لكى تكون القيادة الروحية بيده بعده، كما تدل عليها الأحاديث المتواترة.

لقد كان موقف الإمام على بعد وفاة الرسول (ص) فى تعاطفة وإسناده للخلفاء الراشدين ونصحه لهم دليلا واضحا على أن الإمام كان يؤدى دور الإنقاذ للأمة بكل إخلاص، فقد بايع أبا بكر مع أنه كان يعتقد أنه أولى بالخلافة منه، وقد تأخر عن البيعة بعض الوقت إثباتا لحقه الدستورى ومعه السيدة فاطمة الزهراء وبنو هاشم، إلا أنه سرعان

ما عاد إلى أبى بكر يبايعه ومعه أهل بيته. ولم يسلك الطريق الذى سلكه سعد بن عباده الذى لم يبايع أبا بكر وعمر واعتزل البيعة حتى مات لأنه كان يعتقد أنه أولى بالخلافة منهما أيضاً. وبعد أبى بكر بايع عمر بن الخطاب وأخلص له فى الرأى والمشورة، وزوجه ابنته أم كلثوم. وبعد مقتل الخليفة عمر بايع عثمان ابن عفان ووقف معه يسانده حتى اللحظة الأخيرة من حياته. وعندما قتل عثمان غضب الإمام علىّ على الذين لم يستطيعوا الدفاع عنه حتى إنه لطم الحسنين فى صدرهما حيث كان قد أوكل بهما حراسة الخليفة عثمان إلا أن القتلة تسوّروا عليه وقتلوه قبل أن تصله النجدة.

وعندما أراد المسلمون بيعته أبى ذلك وهو يقول كلمته المشهورة :

«إنى لكم وزيرا خير لكم منى أميرا».

ولكنه أُرغم على قبول البيعة. وجاءت حرب الجمل كأول عاصفة على خلافته، ولكنه أنقذ الموقف بعظمة النفس وعظمة التفكير فى سبيل مصلحة الأمة، فأعاد السيدة عائشة أم المؤمنين التى قادت تلك الواقعة من البصرة إلى المدينة معززة مكرمة وقال فيها كلمته لشهيرة :

«ولها بعد حرمتها الأولى»

وفى خرب صفّين مع أنه كان على قاب قوسين أو أدنى من النصر ودحر معاوية وجيشه إلا أنه نزل عند التحكيم إنقاذاً للأمة وحفظا لإراقة دمائهم ولكن خدعة أموية وراءها عقول أجنبية جبارة كما مر ذكره، فى فصل «انتصار الأعداء» جعل من التحكيم خدعة يعرفها الجميع. وعندما ضربه ابن ملجم بالسيف وقد أشرف على الموت لم يوص بالخلافة لابنه الحسن. بل قال كلمته الشهيرة اتركتكم كما تركتكم رسول الله (ص).

غير أن المسلمين أجمعوا على مبايعة الإمام الحسن ما عدا معاوية وأهل الشام. والإمام الحسن بدوره تنازل عن الخلافة لمعاوية إنقاذا للأمة وحفاظا على أرواحها حتى قتله معاوية، كى يخلو له الجو ليعين ابنه يزيد خليفة على المسلمين، ويجعل الخلافة ملكا عضوضا، والإمام الحسين قام بإنقاذ الأمة فى موقفه الخالد فى عدم مبايعته يزيد أميرا للمؤمنين. ومن ثم وقف فى وجهه شاهرا سيفه يدافع عن كرامة الإسلام والإنسان معا.

ومع أننا أوضحنا بصورة تفصيلية ثورة الإمام الحسين وفلسفته فى فصل «تشويه الثورة» فلذلك لا نريد تكرار ما جاء فى ذلك الفصل، إلاّ أنه من التكرار النافع أن نذكر أمراً واحداً فقط لنثبت كيف أن الثورة الحسينية أنقذت الإسلام وصانته من الأعادى. ليس فى ذلك العصر فقط. بل حتى هذا اليوم، فلذلك سمينا الكتاب الذى ألفناه عن الإمام الحسين بـ «الإمام الحسين ملتقى الأجيال والعصور».

وخلاصة هذا الرأى أن تضحية الإمام الحسين وثورته فى يوم عاشوراء كان صوتا دويا يدوّى فى العالم الإسلامى وفى خارجه، إن يزيد هذا لا يمثل الإسلام الذى جاء به محمد رسول الله (ص) ولا الأمة الرشيدة التى كانت فى الساحة فى عهد الخلافة الراشدة، وإنه عنصر غريب عن الإسلام ولا صلة له به. فلولا هذا ما انبرى للوقوف فى وجهه سبط رسول الله (ص) وابن على وفاطمة الزهراء والذى قال فيه رسول الله (ص) :

«حسين منى وأنا من حسين»

وقال رسول الله (ص) أيضاً :

«الحسن والحسين إماما قاما أو قعدا»

إن أعداء الإسلام الذين كانوا يتربصون بالإسلام خارج الحدود الإسلامية كانوا يرون فى الدين الجديد وتعاليمه العظيمة ونظامه الديمقراطى فى الحكم وإدارة البلاد ما يهدد حياتهم ومستقبلهم، وقد اتخذوا من يزيد وعبثه بالقيم الإنسانية وبالأخلاق سند الضرب الإسلام. كما أن الأجيال الإسلامية الفتية التى لم تعاصر عصر الخلافة الراشدة أخذت ترى فى معاوية ويزيد نظاما غريبا لا صلة له بالإسلام الذى ينتمون إليه، وهنا أخذت الشكوك تراود قلوب الجيل الإسلامى الذى عاصر معاوية ويزيد، وكان مما لا شك فيه، أن استمرار يزيد فى الحكم، وهو يشرب الخمر، ويلعب النرد، ويتجاهر بالموبقات وهو جالس على الوسادة التى كان يجلس عليها رسول الله وخلفاؤه الراشدون، كان يؤدى إلى إضعاف العقيدة بالإسلام، لأن الجيل الفتى كان ينظر إلى الإسلام من خلال هذا الجالس على منبر رسول الله (ص)، كما أن أعداء الإسلام كانوا يستشهدون بوجود رجل مثل يزيد على نفى الفضائل والمكاسب التى جاء بها الإسلام، لأنهم لم يفرقوا بين الخليفة وبين الدين الذى ينتمى إليه فى ظاهر الأمر.

إن تغيير هذه الصورة الحزينة التى كانت تهدف إلى القضاء على الإسلام وكل مكاسبه فى الداخل والخارج كان يحتاج إلى وقفة حاسمة يكون لها دوى عاصف يجلب الأنظار إليه. إن ثورة الحسين عصفت بالنظام الاموى وعرّته داخليا وخارجيا وعرفته كنظام لا صلة له بالإسلام. بل هو دخيل عليه عنوة وقهرا وأنه يناقض حقيقة الإسلام، فالإسلام برئ من هذه الخلافة غير الشرعية التى لا تمت إليه بصلة، والدليل على ذلك أن حفيد الرسول وريحانته شهر سيفه للقضاء عليها، لكى يثبت للأجيال الحاضرة واللاحقة أنه لا ارتباط بين الإسلام وبين هذه الخلافة التى تحكم الأمة الإسلامية باسمه. فجاءت ثورة الحسين وموقفه إنقاذا للإسلام فى حاضره ومستقبله، إذا ما أراد أحد أن يستهزئ بالإسلام ومكاسبه ويستشهد بما صدر عن يزيد والأمويين من

تدمير للإنسانية ومفاهيمها، ويحسبها على الإسلام، فإن الجواب الشافي والكافي على ذلك إنما يكون هو الحسين وثورتة. وبذلك نستطيع القول أن الحسين أنقذ الإسلام فى عصره وفى عصور لاحقة، وهذه هى معجزة الرسول (ص) فى قوله:

«حسين منى وأنا من حسين»

إذا فإن المؤمرة التى حيكت على يد معاوية، ومن ثم ابنه يزيد للقضاء على واقع الإسلام وحقيقته وبمؤامرة رومانية هرقلية أصبحت مكشوفه، وعرف الناس من الشرق إلى الغرب أن الإسلام الصحيح والمبادئ العظيمة التى جاء بها رسول الله (ص) لا صلة لها بهؤلاء الحكام الذين نصبوا انفسهم على الأمة ظلما وعدوانا وأنهم يريدون طمس دين محمد، فلذلك نحن لا نتعجب أبدا عندما قال الحسين يوم عاشوراء قبيل المواجهة بينه وبين عساكر الأمويين:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلى يا سيوف خذينى

إن نسف النظام الأموى كان بحاجة إلى تضحية جسيمه عظيمة؛ تعرّيها وتظهر حقيقتها لترفع هذه النكبة من اسم الإسلام. فلذلك جاءت تضحية الحسين بنفسه وأولاده وأهل بيته أهل بيت رسول الله (ص) فى يوم عاشورء فى عام ٦١ هجرى كعاصفة قصمت ظهر الخلافة الاموية وأخذت تدوى فى آفاق الأرض وتسمع الصم البكم.

ومن هنا نحن ننظر إلى الحركة الحسينية وثورتها كحركة منقذة للإسلام ولسمعته ليس فى العصر الحسينى. بل فى كل العصور.

فيا ترى لو لم يقم الحسين بتلك التضحية العظيمة الكبرى كيف كنا نستطيع الدفاع عن الإسلام ودين محمد (ص)، وقد احتل وسادته خليفة مثل يزيد يأمر وينهى باسم الإسلام، وكيف كنا نستطيع تعرية ذلك النظام وتعريفة بأنه نظام لا صلة له بواقع الإسلام وحقيقته بل يناقص مبادئه العظيمة. لقد أثبت الحسين ذلك للعالم كله بثورته وتضحيته، وأثبت أن الإسلام الذى جاء به جده رسول الله (ص) يختلف عن الإسلام الذى يدعيه الحكم الأموى وها هو يدافع عن عقيدته، ويضحى في سبيله بالنفْسْ والأهل وقد فعل ذلك صابرا محتسبا فى سبيل الله. فسلام عليه يومَ وِلِدَ ويوم استشهد ويوم يبعث حيا.

وبعد استشهاد الإمام الحسين انتقلت القيادة الروحية إلى ابنه الإمام السجاد على الذى لقب بزين العابدين، والذى استطاع أن يقوم بدور قيادى لحفظ الأمة عقيديا فى عصر كانت الخلافة الأموية تلاحق المناوئين للنظام فى كل مكان، باسم «شيعة على»، ولم يزل سب اسم الإمام على قائما فى المساجد، وكانت الثورات الأهلية المتلاحقة باسم اخذ الثأر لمقتل الإمام الحسين تقلق مضاجع الذين ورثوا الحكم من يزيد، فكانت ذريعة الفتك بالأعداء هى الذريعة نفسها فى عهد معاوية وابنه يزيد وهى «شيعة على». وقد عاصر الإمام السجاد، عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وكان الحجاج بن يوسف الثقفى وإلى عبد الملك فى العراق يفتك بالمسلمين باسم «شيعة على» حتى ذكر الرواة أنه قَتَلَ أكثر من مائة ألف رجل صبرا.

وفى هذه الفترة العصيبة التى كانت الأمة الإسلامية تعانى فيها أشد أنواع الاضطهاد كانت الطريقة التى رسمها الإمام السجاد لحياته الخاصة مثلا يقتدى به. فقد شُغِلَ عن الدنيا بالعبادة وتبليغ دين جده محمد (ص)، فلقد كفاه ما رآه من قتل أبيه

وإخوته وأعمامه وأسرته فى يوم عاشوراء، وأسره مع أهل بيت الرسالة والسير بهم من كربلاء حتى الشام إلى مجلس يزيد.

وبعد وفاة الإمام السجاد انتقلت القيادة الروحية إلى ابنه محمد الباقر. وفى هذا العصر أخذ المذهب الفقهى لأهل البيت يُدرَّس رسميا فى مسجد رسول الله (ص) بالمدينة وقد كتب المؤرخون ان الإمام الباقر كان يقوم بدور القيادة العملية والروحية فى مسجد جدهُ رسول الله (ص) بالمدينة المنورة، وكان مئات الناس يختلفون إلى دروسه ليأخذوا عنه العلم والفقه والدين، وانتقلت القيادة الروحية «الإمامة» بعد وفاته إلى ابنه الإمام جعفر الصادق الذى يعتبر رئيس المذهب الجعفرى، وإليه ينسب المذهب الفقهى للشيعة الإمامية الاثنا عشرية والإمام الصادق بدوره كان يقوم بتدريس الفقه والدين ويعتبر عصره من أزهى العصور الفقهية والعلمية، حيث إن فى هذا العصر دخلت روافد جديدة من الأفكار الفلسفية إلى الفكر الإسلامى، وكان لا بد لهذه الأفكار أن تطرح على مائدة البحث العلمى والنظر العقلى. ولقد قام الإمام الصادق بدور جبار هائل فى إضافة العلوم العقلية إلى العلوم الفقهية وهو يعتبر أول رائد إسلامى استطاع أن يتخذ العقل ويستند عليه فى إثبات العقائد الإسلامية التى لم تكن تطرح حتى ذلك العصر على مائدة البحث العقلى. بل كان يعتقد بها ضوء النقل، ولا شك أن ذلك العصر الذى اختلط فيه أصحاب الديانات الأخرى بالمسلمين، لم يكن من المقدور محاججتهم بالأدلة النقلية وبنصوص الكتاب والسنة، وكان الطريق المقنع لهم هو استخدام العقل والقواعد المنطقية، وهكذا فعل الإمام الصادق فى محاججته مع الملاحدة واليهود والنصارى. ولأول مرة فى تاريخ العقيدة يستخدم الإمام الادلة العقلية، فى اثبات وجود الله ووحدانيته وأزليته وأبديته. وكتاب «توحيدا لمضل» الذى ألفه أحد تلامذة الإمام الصادق لا زال فى متناول إليد، وهو المرجع الذى يرجع إليه أساطين المعرفة الإسلامية للاستنارة به فى إثبات وجود

الله تعالى بالطرق العقلية التى هى حجة للجميع.

ولذلك، فان الإمام الصادق كان دوره دورا عظيما فى حفظ عقائد الأمة من غزو الأفكار الدخيلة أولا ومن ثم إضافة بُعْدٍ جديدٍ إلى الأفكار الإسلامية لكى تكون حجة على غير المسلمين. وإضافة إلى هذا فإن الإمام الصادق قام بأعظم دور فى إنقاذ حياة المعارضة؛ فقد كان الخلفاء العباسيون يقومون بقتلهم واضطهادهم وتسريدهم باسم «شيعة أهل البيت»، وكان الخليفة المنصور ثانى الخلفاء العباسيين من أشد الناس عداوة للإمام الصادق، وكان يريد النيل منه، فلذلك أمر أنصار الخلافة بوضع روايات وأخبار كاذبة ينسبونها إلى الإمام حتى يتخذ الذريعة للبطش به أولاً وللاستمرار فى ملاحقة المعارضين بدعوى أنهم من أنصار الإمام الصادق. وقد تمادى الملفقون على الإمام الصادق فى وضع روايات نسبوها إليه يصل بعضها إلى مرحلة غريبة، ولكن... مع هذا وقف الإمام موقف الصامدين، ودافع عن نفسه وعن المعارضة التى كانت تُقتل وتُعذّب باسم «شيعة أهل البيت» وكان لموقف الإمام القاطع والجرىء والشجاع والصريح — على الملأ — فى الكوفة، وفى المدينة أثره الناجح فى دحر المؤامرة الدينية التى كانت تحاك ضده وضد المعارضة.

ولا نريد أن ندخل فى تفصيل كل ما ذكر عن الإمام الصادق، لأن البحث يطول، ولكننا نذكر نماذج لها لإلقاء الضوء على ما نحن بصدده فى هذا الفصل.

لقد كان أحد الذين استخدمتهم الخلافة العباسية للنيل من الإمام الصادق ومن المعارضة رجلا اسمه بشار الشعيرى، وكان قد استوطن الكوفة، ونسب إلى الإمام الصادق أمورا فى الغلو فى الإمام على، وفى التناسخ، وغيره فأرسل له الإمام الصادق مرازم بن حكيم الأزدى وقال له قل لبشار يقول لك جعفر بن محمد :

«يافاسق يا كافر يا مشرك. أنا برىء منك»[1].

وتقـول الرواية: إن بشـارا هذا عندمـا دخل على الإمـام الصـادق قـال له الإمـام : «اخرج عنى لعنك الله لا والله لايظلنى وإياك سقف أبداً! ولم يكن بشار الشعيرى هذا إلا واحدا من مجموعة كبيرة سخرتهم الخلافةُ العباسية للنيّل من الإمام، منهم أيضا حمزة الزبدى وحائد النهدى والمغيرة بن سعيد، وبما أن هؤلاء قد اتخذوا الكوفة مقرا لهم، وكانت رسل الإمام الصادق ورسائله تتوالى على أهلها بين الحين والآخر يحذرهم فيها من الوقوع في شباكهم. فقد روى هشام بن الحكم عن الإمام الصادق :

«لا تقبلوا علينا حديثا إلا ما وافق القرآن والسنة وتجدون معه شاهدا من أحاديثنا، فإن المغيرة بن سعيد دس فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنّة نبينا».

وقال الإمام مرة أخرى وهو يخاطب هشام بن الحكم :

«إن اصحاب المغيرة المتسترين بأصحاب أبى كانوا يأخذون كتب أصحاب أبى، ويدفعونها إلى المغيرة فيدس فيها الكفر والزندقة والإلحاد، ويسندها إلى أبى ثم يدفعها إلى أصحابه ويأمر أن يبثوها بين الناس، فكل ما كان فى كتب أبى من الغلو فذاك مما دسّه المغيرة بن سعيد فى كتبهم ومؤلفاتهم.».

وقال مرة أخرى :

«إن قوما كذبوا علىّ ما لهم.!. أذاقهم لله حر الحديد! فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، إن رحمنا الله فبرحمته، وإن عذبنا

١- سير الأئمة الاثنى عشر - هاشم الحسينى - ج٢ ص ٢٦٢.

فبذنوبنا، فوالله ما لنا على الله من حجة ولا معنا منه براءة، وإنا لميتون ومقبورون ومنشورون وموقوفون ومسئولون، ما لهم... لعنهم الله! لقد آذوا الله وآذوا رسول الله في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين، وها أنا بين أظهركم أبيت على فراشي خائفا وَجلاً، إنى امرؤ ولدنى رسول الله، وما معى براءة من الله، إن أطعته رحمنى، وإن عصيته عذبنى عذابا شديدا» (١).

وهكذا كان الإمام الصادق يقوم بدوره القيادى لإنقاذ الأمة من التجاويف والتجاعيد والبدع التى كان أعداء الإسلام يريدون دسها فى فى العقيدة باسمه، ومن ثَمّ كان يقوم بإنقاذ المعارضة التى كانت الخلافة العباسية تريد أن تلصق بهم هذه العقائد. ذريعة لتصفيتهم عن الساحة. ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر أن أبا حنيفة رئيس المذهب الحنفى كان قد درس على الإمام الصادق سنتين. وأن أنس بن مالك وهو رئيس المذهب المالكى كان يختلف إلى الإمام الصادق، ويحضر مجالس دروسه، وكفى فى مالك فخراً أن الإمام الصادق قال عنه :

«لا يُفتى ومالكٌ فى المدينة»

وبعد وفاة الإمام الصادق انتقلت الإمامة إلى ابنه موسى بن جعفر. غير أن اضطهاد الخلافة العباسية فى عصر هذا الإمام للمعارضة قد بلغ ذروته، فقد سجن هارون الرشيد الإمام موسى بن جعفر اربعة عشر عاما فى سجن السندى بن شاهك فى بغداد، كى يستطيع بذلك أن ينهى المعارضة دون أن يكون هناك سند يحميهم كما كان يحميهم الإمام الصادق.

غير أن التعسف الذى وقع بحق الإمام موسى بن جعفر زاد فى نشاط المعارضة

١- المصدر : نفسه ٢٦٤

الإسلامية التى كانت تدعو للعودة إلى عهد السَلَف الصالح عصر الشورى، ووجود الأمة فى الساحة، فاضطر الخليفة المأمون العباسى الذى ورث الخلافة بعد أبيه هارون الرشيد ومقتل أخيه الأمين، أن يُعيِّن الإمام على بن موسى الملقب بالرضا وليا لعهده، وذلك كى يخفف من حِدّة المعارضة ويسيطر على الوضع الذى كان ينذر بنسف الخلافة، فكما قلنا أكثر من مرة إن المعارضة كانت تنطلق فى مواقعها من وصية الخلافة العباسية بأن القرآن الكريم ينص على الشورى فى انتخاب الخليفة «القيادة السياسية» وحديث الرسول (ص) صريح فى تعيين أئمة أهل البيتأئمة للقيادة الروحية، فلا مجاال للمنحدرين من صلب عباس بن عبد المطلب أن يكونوا خلفاء لرسول الله بدون أن تساندهم شرعية الانتخاب «الشورى» وإرادة الأمة، فإنْ كان لا بد من أن تكون الخلافة إرثية. فلماذا لا تكون فى أئمة أهل البيت الذين أوصى الرسول بإمامتهم وقيادتهم الروحية من بعده.

والإمام الرضا الذى عينه المأمون خليفة له توفى قبل المأمون وروايات تقول انه قتل مسموما حتى تبقى الخلافة فى العباسيين، ولا تنتقل إلى العلويين. كما أن ابنه الإمام الجواد، وهو الإمام التاسع للشيعة مات وهو فى سن السابعة والعشرين، وفى ظروف غامضة. وبعد وفاة الإمام الجواد انتقلت الإمامة إلى ابنه الإمام على الهادى.

وكان الإمام الهادى فى المدينة يقوم بدور«القيادة الروحية» كما كان شأن آبائه. غير أن المتوكل العباسى أحضره إلى سامراء ومعه ابنه الحسن العسكرى ولم يسمح المتوكل العباسى ولا الخلفاء الذين جاءوا بعده بخروج الإمامين من سامراء بل بقيا تحت مراقبة الخلافة، وإن كانا معززين مكرمين.

وولد الإمام المهدى فى سامراء وهو ابن الحسن العسكرى فى عام ٢٥٥ هجرى. أى قبل وفاة والده الحسن العسكرى بخمس سنوات والإمام المهدى هوآخر الأئمة الاثنا عشر

الذى يستمر عصر الانقاذ معه حتى عام ٣٢٩ وهى السنة التى يبدأ فيها تطويق الغيبة، ويبدأ عصر التدمير. وقد خصصنا فصلا خاصا لهذا الموضوع على القارىء الكريم قراءته بإمعان.

وقبل أن نختم هذا الفصل نضيف أمراً مهماً، هو أن أهل القرون الثلاثة كانوا يسيرون على مذهب أئمة أهل البيت، وإنما أخذت المذاهب الأربعة الأخرى تنتشر فى العالم الإسلامى بعد «عصر التدمير»، وأبو الحسن الاشعرى الذى أخذ المسلمون بآرائه فى تفسير أصول العقيدة بالطرق الفلسفية، إنما ولد فى ٢٧٠ هجرية وتوفى سنة ٣٣٠ ونيف، ولم يكن له وجود فى العصر الذى كان المسلمون يسيرون فيه على ضوء مذهب أهل البيت فى الأصول.

أما فى الفروع، فإن ابن حنبل رئيس المذهب لحنبلى ولد سنة ١٦٤هـ. وتوفى سنة ٢٠٤، أما مالك فولد سنة ٩٥ هـ. وتوفى سنة ١٧٩، وولد أبو حنيفة سنة ٨٠ هـ. ومات سنة ١٥٠ والإمام الصادق ولد سنة ٨٣ هـ وتوفى سنة ١٤٩ والشافعى ولد فى سنة ١٥٠ هـ. وتوفى سنة ٢٠٤ وبذلك نرى أن أئمة أهل البيت بما فيهم الإمام الصادق سبقوا الأئمة الأربعة الذين انبثقت المذاهب الفقهية الكبرى عنهم.

غير أن لمذاهب الأربعة الأخرى بدأت تتقدم على مذهب أهل البيت، منذ اواسط القرن الرابع لهجرى وأخذ المذهب الجعفرى «مذهب أهل البيت» يتراجع شيئا فشيئا. أليس هذا التراجع للمذهب الذى كان هو المذهب السائد على الأمة الإسلامية حدث بسبب «تطويق الغيبة» وعدم وجود إمام فى الساحة يستطيع الدفاع عن التجاويف والتجاعيد والبدع التى أخذت الخلافة العباسية المعادية لأهل البيت، تلصقها بهم من جديد، ولم يكن أحد منهم فى الساحة يدافع عن تلك الاتهامات.

فلذلك أود أن أقول بكل صراحة إننى لا أستغرب أبدا عندما أرى أن كثيرا من الروايات التى نسبت إلى أئمة الشيعة، وترويها كتبنا نحن الشيعة الإمامية، وهى لا تتلاءم مع الواقع ومع الحقيقة، موجودة فى كتب أهل السنة، وحتى فى الصحاح أيضاً. أليس هذا يعنى أنه كانت هناك حركة منسقة للقضاء على الشيعة التى ظهرت بهذا الاسم فى القرن الرابع الهجرى، ورميهم بأمور تفصل بينهم وبين الأكثرية الإسلامية، وأقول مرة أخرى إننى لا أستغرب أبدا عندما أقرأ فى كتب السنة روايات تؤيد ما يفتى به فقهاء الشيعة بجواز المتعة. أى «العقد المنقطع»، فأحمد بن حنبل أيضاً يروى فى مسنده روايات كثيرة تطابق ما ترويه نحن الشيعة الإمامية فى جواز هذا الأمر، كما أن ما تذكره كتبنا فى الغلو وكثير من القضايا التى تتنافى مع العقيدة السليمة فى كيفية زيارة الأئمة والأولياء أو طلب الشفاعة والحاجة منهم، نجدها أيضا فى المصادر السنية، وهكذا فإن فكرة تحريف القرآن التى نسبت إلينا نحن الشيعة وحتى بعض علمائنا ألفوا كتبا لإثباتها نجد لها أصولا فى المصادر السنية أيضاً.

ولم تكن هذه الأمور التى ذكرتها هى الأمور التى تسربت إلى مصادر الفريقين على وجه الحصر بل هناك أمور أخرى تتميز وتشتهر بها الشيعة. إلا أنها لها مصادر فى كتب السنة، مما يجعلنى أثق فى أن الخطة التى رسمت لإقناع الشيعة بتلك الآراء كانت دقيقة جدا، بحيث وضعوا لهم روافد تعينهم على آرائهم من كتب السنة أيضاً. أى من كتب الخصم، كى تكون الحجة أقوى فى الجدل، والتمسك بالرأى، وسنشير إلى نماذج كثيرة من هذا الأمر فى فصول لاحقة من الكتاب.

الإمام المهدى

و

فلسفة الغيبة

تعتقد الشيعة الامامية أن الإمام المهدى هو محمد بن الحسن العسكرى ونسبه يتصل بالإمام على وفاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) بالتسلسل المذكور فى عقائد الشيعة، وهو على وجه التحديد، «محمد بن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب» وأن رسول الله (ص) نص على هذا الأمر فى مواطن كثيرة ثم إن كل إمام كان يدلى باسم خلفه تبيانا للحق. وحتى تستمر القيادة الروحية التى أوصى بها رسول الله (ص) متجسدة فى عترته وأهل بيته. أما أهل السنة فيعتقدون بظهور رجل من أهل بيت رسول الله اسمه المهدى كما هو وارد فى أكثر كتب الصحاح المعتبرة عندهم. لكن هذا المهدى ليس شخصا معينا غائبا ينتظر الظهور بإذن الله كما تعتقد الشيعة، بل يبعثه الله عندما تقتضى إرادته — كما أرسل الانبياء، وذلك لينقذ البشرية بالسعادة التى فقدتها وتمتلىء الأرض قسطا وعدلاً.

بعد ما ملّت ضلما وجورا فكرة ظهور رجل ينقذ البشرية من الظلم ويبنى المدينة الفاضلة التى تتجسد فيها العدالة والفضيلة موجودة عند اصحاب الأديان الأخرى. فالمسيحيون يعتقدون بظهور المسيح، واليهود بدورهم يعتقدون بظهور منقد ينقذ البشرية فى آخر الزمان.

ونحن لا نريد هنا أن ندخل فى تفاصيل آراد الأديان والمذاهب الأخرى وظهور رجل فى آخر الزمان لإنقاذ الإنسان، وإنما نريد هنا أن يبحث هذا الأمر على صعيد واحد فقط، وهو عقيدة الشيعة فى الإمام المهدى، حيث إن لهذا الاعتقاد آثار عملية يومية فى حياتنا نحن الشيعة الإمامية، من الصباح حتى المساء. فنحن نتعامل مع هذا الموضوع معاملة اليقين، ونؤمن بوجود إمام غائب يرى ويسمع أعمالنا، ونحن نؤدى إليه ضريبه أرباحنا، متمثلة فى الخمس، وتعدمها إلى يد النواب العاملين، الذين نعتبرهم نواب الإمامن المهدى، وهؤلاء النواب هم المجتهدون الذين نعتقد فيهم أن الراد عليهم نواب الإمام. كالراد على الإمام والراد على الإمام كالراد على النبى والراد على النبى كالراد على الله، وأنه يجب علينا تقليد أحد المجتهدين فى المسائل الشرعية والفقهية، وبدون هذا االتقليد تكون أعمالنا باطلة عاطلة.

وإذا كان كثير منا نحن الشيعة الإمامية يقفون من المجتهدين وسلطاتهم موقفا شاكا أو مناهضا. إلا أن موقف الشيعة بالنسبة إلى الإمام المهدى موقف ثابت لا يتزحزح، وهو يعتبر حجر الأساس فى عقيدة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية. ولا بد لى هنا أن أشير إلى أمرين خطرين من الأهمية بمكان.

أولا : هو نحن معاشر الشيعة لا نجد صعوبة فى الاعتقاد بوجود رجل من أهل بيت رسول الله (ص) شاء الله أن يعيش آلاف السنين حتى يأذن له بالخروج لإنقاذ الإنسان معارضا للقوانين الطبيعية التى لا تقر بإطالة عمر الإنسان لآلاف السنين، ولكن بما أننا نؤمن بالغيب، ونؤمن بكثير من الأمور الخارقة للعادة وللطبيعة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، وجاءت على لسان الصادع بالوحى الرسول الأمين الصادق، فلذلك نعتقد بهذه الحالة الخارقة للطبيعة فى الإمام المهدى، لأن من الثابت لدينا نحن الشيعة الإمامية أنه

جاء على ذكره رسول الله (ص). ونحن أيضا نؤمن أن النبى نوح (عليه السلام) لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما. كما هو صريح فى القرآن الكريم :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

وأصحاب الكهف لبثوا فى كهفهم ثلاثة قرون وتسع سنوات :

﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾[2].

وأن عيس المسيح عليه السلام لم يقتل، ولم يصلب. بل رفعه الله إليه حيا يرزق :

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُـــمْ وَإِنَّ الـــَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَـــاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[3].

كل هذه القضايا هى خرق للقوانين الطبيعية ولنواميس الحياة ومسيرة الكون. فلذلك نحن الشيعة نعتقد بأن وجود المهدى وإطالة عمره لآلاف السنين يكون مشابها لما حدث لنوح وأصحاب الكهف وعيسى المسيح (عليه السلام).

والاعتقاد بالأمور الغيبية التى هى خارج دائرة موازين الطبيعة والحسية إنما هو داخل فى صميم العقيدة الإسلامية. حيث إن الإيمان بالإسلام إنما هو إيمان بعالم الغيب والشهادة معا :

١- العنكبوت : ١٤.
٢- الكهف : ٢٥.
٣- النساء : ١٥٧ - ١٥٨.

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)[1].

ولا يكمل الإيمان بالإسلام إلا بأن يكون المسلم معتقدا بعالم الغيب وعالم الشهود معا. إذاً ما هو المانع من الاعتقاد بوجود رجل يطيل الله به العمر آلاف السنين، خلافا لكل موازين الطبيعة كما مرت الإشارة إلى أنماط مثلها. كما أننا نحن معاشر الشيعة نعتقد أن الإمام العسكرى عندما توفى كان المهدى فى الخامسة من العمر، أو يزيد قليلا ومع كل هذا أناط الإمامة به، والغيبة حصلت وهو فى هذه السن. ونحن لا نجد صعوبة فى هذا الاعتقاد أيضاً حيث إنه سبق الإمام المهدى أنبياء أتاهم الله الحكم فى صباهم كما تقول الآية الكريمة :

(يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ الحُكْمَ صَبِيًّا)[2].

كما أن القرآن الكريم يصرح بأن عيس عليه السلام كان فى المهد نبيا وقد أعطاه الله الكتاب:

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيّاً. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً) [3].

والآن وإذا ما ذكرنا بكل اختصار عقيدة الشيعة بالإمام المهدى الذى ألف المؤلفون من الشيعة عنه عشرات الكتب وطبعت بالآلاف، وتوزع كتب كثيرة حول الإمام المهدى ليل نهار، إلا أننى أريد أن أشير إلى أمر خطير لم يتعرض له أحد حتى الآن فى

١- البقرة : ٣.
٢- مريم ١٢.
٣- مريم : ٢٩ - ٣٠.

تلك المؤلفات الكثيرة التى ألفت لإثبات وجود الإمام المهدى. منذ بضع قرون. ألا وهو «فلسفة الغيبة».

وبيان «فلسفة الغيبة» يوضح لنا أخطر مؤامرة حيكت ضد الإمام المهدى، والعترة الطاهرة، وكنا نحن الشيعة ضحايا لها، ولعل هذا هو االسبب الذى جعل من الذين يؤرخون للإمام المهدى، ويريدون إثبات وجوده لم يتعرضوا إلى «فلسفة الغيبة» لعدم استيعابهم لها. أو لأن هذه الفلسفة إذا فصلت بشكل واضح فإنها ستهدم المرجعية الشيعية التى كانت هى المستفيدة الثانية بعد الخلافة العباسية من نسف «فلسفة الغيبة» بالمؤامرة التى سنشير إليها.

فلسفة الغيبة

إن فلسفة الغيبة لا يمكن أن تطرح على مائدة البحث دون الرجوع إلى تاريخ أئمة أهل البيت، ابتداءً من الامام علىّ حتى الإمام المهدى، وبدون البحث والتعمق فى ذلك الحديث النبوى الذى ذكره الفريقان. شيعة وسنة وجاء فى صحاح السنة أيضا، والذى جاء فى وصية رسول الله (ص) فى يوم «غدير خم» حيث قال:

«تركت فيكم ثقلين كتاب الله تمسكوا به وعترتى أهل بيتى .. الله الله فى عترتى أهل بيتى».

فالحديث صريح وواضح، أن رسول الله (ص) أوصى بالقيادة الروحية إلى أهل بيته، وهذه القيادة الروحية تبدأ بالإمام علىّ، كما أن هناك روايات كثيرة وصريحة ترويها المسانيد وكلها تحكى عن هذه الوصية بوضوح :

«أنا مدينة العلم وعلى بابها».

«ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين».

«أنت من بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى».

إن هذه القيادة الروحية تبدأ بالإمام على، وتنتقل منه إلى الحسن والحسين. فقد قال رسول الله :

«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا».

ثم بعد الإمام الحسين تنتقل القيادة والإمامة الروحية إلى الأئمة الآخرين بدءاً من الإمام زين العابدين على بن الحسين إلى أن تنتهى الإمامة إلى الإمام المهدى، الذى غاب عن لأمظار لكى يبقى فى مأمن من كيد الأعداء ويؤدى دور الإمامة والقيادة الروحية، ولذلك حصلت الغيبة.

ان «فلسفة الغيبة»لم يستوعبها السنّة لأنهم نظروا إليها نظرة ازدارء وتهكم على الشيعة وعقائدها، ولا الشيعة عرفتها أيضاً، والسر العميق الذى كان وراءها، هو أن ولاة الفقه المستبدين المنتفعين من التآمر على الإمام المهدى، الذى حصل على يد الخلافة العباسية، والحكم البويهى، وبتنسيق دقيق معهم وضعوا حجابا سميكا على المؤامرة، والأسباب التى أدت إليها، وما حصل من عظم الإجحاف بحق أهل بيت االعصمة والنبوة.

لقد كانت الغيبة التى تعنى حضور الإمام المهدى فى الساحة الإسلامية بدون أن تستطيع الخلافة العباسية الحاكمة على رقاب الأمة ليل ونهار أن تنال منه كما نالت من

أسلافه من الأئمة، وها هو يؤدى دور القيادة الروحية والدفاع عن مبادئ الإسلام العظيمة ويكذب ما ينسب إلى المعارضة الإسلامية، التى سميت فى ذلك العصر ولأول مرة بـ «الشيعة الإمامية»، التجاويف والتجاعيد والبدع. لقد كان هذا الأمر يعنى أن وجود الإمام غائبا يقود الأمة وهو فى مأمن من كيد الأعداء وقيامه بدوره القيادى - الروحى للامة إنما هو تهديد للخلافة العباسية، وضربة تقصم ظهرها. وكان فى الوقت نفسه استمراراً لعصر الإنقاذ الذى مرت الإشارة إليه، فى فصل خاص بهذا الاسم، وإنهاء للسياسة العدائية التى كان ينتهجها النظام الحاكم نحو المعارضة، وإبقائها فى الساحة ممثلة عن الأكثرية الإسلامية التى كانت ترى فى الخلافة خروجا على نصوص الدستور «القرآن الكريم» وعدم شرعيتها.

إن استمرار الغيبة بالصورة التى بدأت فى عام ٢٦٥ هجرية والتى سميت بـ «الشيعة الصغرى» كان إيذانا بحرب طويلة الأمد، تقودها الأمة الإسلامية بقيادة المعارضة، لإنهاء الخلافة لعباسية غير الشرعية فى الساحة الإسلامية الكبرى. وقد استمرت هذه الحالة ما يقارب السبعين عاما، ووجود الإمام غائبا عن الساحة ظاهرا وهو يقود الأمة واقعاعن طريق نواب عيّنهم لبيان آرائه، بدأت تنهك الخلافة العباسية وهى لا تستطيع أن تعمل شيئا لإنهاء سلطة الإمام وقيادته الروحية، ولا تستطيع أيضاً أن تفتك به كما فتكت بجده موسى بن جعفر الإمام السابع. أو بالإمامين الجد والأب للإمام المهدى، حيث أحضرا إلى سامراء قسرا، وأقاما فيها جبرا تحت رقابة الخلافة وأجهزتها السرية.

وإذا كان الإمامان الجد والأب الإمام على النقى وابنه الحسن العسكرى عاشا معززين محترمين مكرمين فى سامراء ولم يمسّا بسوء فى ظاهر الأمر إلاّ أن التاريخ

يحدثنا عن معاملة سيئة كان يتعرض لها الإمام الهادى فى مجلس الخليفة المتوكل العباسى، وكفى بحقهما ظلما إبقاؤهما فى سامرا وعدم الإفساح لهما بالعودة إلى مدينة جدهما رسول الله (ص).

ولا شك أن المتوكل العباسى الذى بلغ به الحقد على أهل بيت رسول الله (ص)، أى على بنى أعمامه إلى ذلك الحد المريع، ألا هو حرث قبر الإمام الحسين ،إغراقه بالماء، لإخفاء معالمه، ومنع الزوار من معرفة مكان ذلك القبر الطاهر والسلام على صاحبه.

إن خليفةً كهذا لم يتهيب قط من قتل كل من كان يقف فى المنتصر غيلة ليصبح خليفة يجلس فى كرسى أبيه، فكان له ما أراد بعد مقتل المتوكل.

إن خلافة تصل الحالة بها إلى أن يقتل الابن أباه ويصبح خليفة للمسلمين لا تتورع قط من القضاء على إمام يقود الأمة الإسلامية روحيا وهو مرشح للقيادة السياسية «الخلافة» أيضاً، فكان لا بد من انهاء هذه الحالة التى لو استمرت بالقوة والمنعة لأنهت الحالة الشاذة التى كان المسلمون يعيشون فى ظلها ويؤدون ضريبتها.

وفى عام ٣٢٦ هجرية اصطدمت الأمة الإسلامية بخبر مريع، ألا وهو الإعلان عن سد باب اللقاء بالإمام المهدى، وتكذيب كل من يدعى رؤيته، وأن صلاحيات الأمامة انتقلت إلى المشايخ أو فقهاء الشيعة. وكان هذا الخبر يعنى أنهاء دور الإمام فى القيادة، وحجبه عن الأمة الإسلامية، وإنهاء قيادته الروحيه ثم وضعوا لهذا الإعلان اسما هو «الغيبة الكبرى».

لقد تنفست الخلافة العباسية الصعداء من إنهاء دور الإمام القيادى وخروجه من الساحة إلى ما لا يعلم أمده إلا الله. إن أغلاق باب الالتقاء بالمهدى كان يعنى توقف قيادته الروحيه، ويجعل الخلافة العباسية أولا فى مأمن من وجود رقيب خطير، كان يهددها ليل نهار، ثم كان يفسح المجال لهذه الخلافة أن تفتك بالمعارضة الإسلامية متهمة إياها بالبدع والخزعبلات التى ألصقتها بها، ولم يكن هناك إمام يدافع عن المعارضة، بتكذيبة للخزعبلات التى ألصقت بها، كما فعل آباؤه فى عصر الإنقاذ، بل أكثر من هذا، إن غيبة الإمام وإنهاء الاتصال به فتح الباب لكى تنسب الخلافة العباسية والذين كانوا يلفون حولها شتى أنواع الخزعبلات والبدع إلى أئمة الشيعة أيضاً، دون أن يكون هناك مرجع يستطيع تكذيبها.

إن الخدعة الكبرى والمكر الرهيب الذى حدث بين عشية وضحاها أنهى كل الآثار المترتبة على فلسفة الغيبة إنهاء أبدياً، وبدأت الخلافة العباسية تنام قريرة العين وهى ترقص على أنغام هذا البيت:

يا لك من قبرة بمعمرى خلا لك الجو فبيضى وصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

ولم تقتنع الخلافة العباسية والماكرون والمخططون لهذه المؤمرة الخطيرة فحسب، بل قاموا بمؤامرات كلها تهدف إلى إنهاء المعارضة الإسلامية التى أخذت تلقب نفسها بالشيعة الإمامية فى ذلك العصر على وجه التحديد، غير أن هذه المؤامرة لم تحدث على يد الخلافة العباسية فحسب. بل اشترك فيها بعض زعماء الشيعة آنذاك، ثم لحق بهم المشايخ والفقهاء الشيعة؛ لأن حجب الإمام الاتصال بالنواب وبالناس وبالمسلمين عن

طريق نوابه كما كان يحدث فى السنوات الخمس والسبعين التى سبقت الإعلان عن «الغيبة الكبرى» كان يوفر لهم حصة الأسد من جراء هذه المؤامرة.

ولكى نوضح بصورة تفصلية النيات السيئة التى كانت وراء المؤامرة، وكيف بدأت وكيف انتهت، ثم كيف استغلتها الخلافة العباسية والحكام البويهيون من جهة، وولاة الفقه الشيعة من جهة أخرى لا بد من تخصيص فصل لهذا الموضوع. وهكذا فعلنا. ونطلب من القراء ولا سيما الشيعة الامامية، أن يقرءوا الفصل المسمى بـ «تطويق الغيبة» بكل دقة وإمعان، إنه جواب لمئات الاسئلة التى وجهت إلى كثير من فقهائنا ولم يجب أحد عليها حتى الآن.

عصر التدمير

يجب أن يسبق هذا البحث بيان الظروف والأحوال التى سبقت «عصر التدمير» وعلينا أن نعود إلى الوراء إلى عام ٤١ هجرى وهو العام الذى استتبت الخلافة فيه لمعاوية. ونحن هنا لا يسعنا إلا أن نكرر بكل اقتضاب ما مر فى الفصول السابقة حتى نربط سلسلة الأحداث بعضها ببعض، وبدون الانفصام بينها. لقد كانت سياسية معاوية هى إنهاء الأمة من السّاحة؛ وذلك بالقضاء على الشورى، واختيار الأمة للقائد الذى يحكمها، وجعلها فى ورثته، أو بالأحرى ملكا عضوضا يرثه الأبناء عن الآباء. وكان يقصد أيضاً إنهاء القيادة الروحية لأهل بيت رسول الله؛ وبكلمات أخرى كان يريد القضاء على وصية الرسول (ص) فى أهل بيته الذى أشرنا إليها تكرارا. ولذلك أمر بسب الإمام علىّ على المنابر، واستمر ذلك خمسين عاما أو يزيد، حتى جاء الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز فنهى عنه.

ولم يكن من شك فى أن هذه الخطوات التى بدأ بها كانت تُجَابه مجابهة شديدة من الأكثرية الإسلامية والتى استطاع معاوية إخضاعها وإسكاتها بحد السيف تارةً وبالمال أخرى، ولكنه إذا ما نجح فى إخماد صوت الأكثرية إلا أنه كان يلاقى صعوبة بالغة فى إخماد صوت المعارضة التى هى القمة التى تهيىء القاعدة للقيام بالثورة والوثبة. ولذلك كانت سياسة معاوية هى إنهاء هذه المعارضة والقضاء عليها رجالا ونساء كما مرّ تفصيلها فى فصول سابقة. وكان التبرير لقتل المعارضين وتعذيبهم هو تسميتهم بـ«شيعة على».

وبلغ هذا الاضطهاد أوجه عندما قَتَلَ يزيد الإمام الحسين، وأمر بسبى عائلة رسول

الله (ص). والذى يقرأ تاريخ تلك الملحمة الحزينة يستطيع أن يعرف بوضوح أن الغرض من قتل الحسين وأولاده وصحابته وسبى أهل بيته لم يقصد منه دَفْعُ خَطَرٍ يهدد الحكمَ الأموى، بل كان السببُ امتهان العترة النبوية التى كانت إحدى الثقلين أولا، ثم إعطاء درس للمعارضة التى كانت تقاوم الحكم الأموى، لأن الإمام الحسين بعد أن خرجت الكوفة عن طاعته ولم يَبْقَ معه إلا ٧٠ رجلا كان من الواضح أن المواجهة بينة وبين يزيد مواجهة خاسرة، فلذلك عرض الإمام الحسين على عمر بن سعد، قائد الجيش الأموى، الذى حاصره أن يعطيه واحدا من ثلاثة أمور: إما أن يُخْلِيَ سبيله كى يعود إلى المدينة، أو يذهب إلى آحد ثغور المسلمين للدفاع عن مكاسب الإسلام، أو يذهب بنفسه إلى الشام ويلتقى بيزيد ويُصَفِّى الامرَ معه. ولكن ابن سعد لم يقبل بهذه العروض، وإنما خيَّر الحسين بين أمرين، إما البيعة وإما القتل، فكان ما كان أمرٍ رهيبٍ لا زالت الأمة الإسلامية تدفع ضريبته حتى هذا اليوم.

وكانت المعارضة تنطلق فى بيان موقفها من الحكم الأموى على أن الخلافة إنما هى بالشورى، كما ينص عليها الدستور «القرآن الكريم» وليست بالإرث كما حدث على يد معاوية. فإذا خرجت الخلافة عن مسارها الدستورى، فأهل بيت الرسول أولى بالخلافة من أولاد بنى عبد شمس. وهذه الفكرة التى كانت تنادى بها الأقلية المعارضة إنما كانت هى الفكرة السائدة لدى المسلمين عموما فى ذلك العصر، فلذلك سعى معاوية وابنه يزيد والذين جاءوا من بعدهم من الأمويين والمروانيين – نستثنى منهم عمر بن العزيز – بالقضاء التام على هذه المعارضة باسم شيعة على، وعندما استولى العباسيون على الخلافة بذريعة أنهم أولاد عم رسول الله (ص) لم تغيِّر المعارضة موقفها، فلو كان لانتساب إلى الرسول (ص) ذريعة لنيل الخلافة فأهل بيت الرسول الذين أنيطت بهم

القيادة الروحية أولى من العباسيين، فلذلك سار العباسيون على نهج الأمويين فى القضاء على المعارضة باسم شيعة أهل البيت.

وعندما نلقى نظرة فاحصة على تاريخ الأمة الإسلامية سواء فى عهد الأمويين أو عهد العباسيين حتى أوائل القرن الرابع الهجرى، أى إلى أول العصر الذى نسميه بـ«عصر التدمير»، نرى بوضوح أن البلاد الإسلامية التى كان يحكمها الأمويون أولاً ثم العباسيون ثانيا كانت تجابه بثورات متتالية مستمرة، وكل ثورة كانت تريد الوثوب على النظام الحاكم المتجسد فى الخلافة. فالأمويون حتى نهاية حكمهم واجهوا ثوراتٍ دامية كانت تنتهى إلى خروج أجزاء من البلاد التى كانوا يحكمونها من أيديهم؛ كما حدث فى ثورة مصعب بن الزبير، ومن ثم استردادها بالقوة، إلى أن انتهى الأمر بثورة أبى مسلم الخراسانى التى قضت على الخلافة الأموية فى المشرق، وحلت محلها الخلافة العباسية. وتلك الخلافة بدورها كانت تجابه بثوراتٍ دامية فى أطراف البلاد، وكانت تكلف الخلافة جهدا كبيرا، وتكلف الثائرين دماء وعرقاً. وكان المتنفس الوحيد للعباسيين، أو الطريقة الوحيدة التى لجأوا إليها لإخماد صوت المعارضة وتخويف الأكثرية الصامتة هو قتل المعارضة أو تعذيبهم والتنكيل بهم، أو سجنهم ..... ويجرى كل ذلك باسم شيعة أهل البيت.

وقد عاصر الخلفاء العباسيون ابتداء من أبى العباس السفاح حتى المتوكل سبعةً من أئمة أهل البيت الذين كانوا يمثلون امتدادا طبيعيا لعترة الرسول، وكان المسلمون يرجعون إلى هؤلاء الأئمة فى مسائلهم الشرعية والفقهية. وهذا العصر الذين يبدأ بالإمام الصادق، وينتهى بالإمام المهدى أفردنا له فصلا خاصا، سميناه بـ «عصر الإنقاذ» فلذلك لا نريد أن نكرر هنا ما جاء فى ذلك الفصل إلا بقدر ما نحن بحاجة إلى تكراره هنا

لحفظ تسلسل البحث، وعدم التشويش على أفكار القارىء المتتبع لتلك الأحداث... ولذلك أعود فأقول إن الخلافة العباسية عندما رأت نفسها عاجزة عن القضاء على المعارضة بالقتل والتعذيب والتنكيل، فَكَّرَتْ في بناء جدار سميك يفْصِلُ بين المعارضة، أي بين الأقلية الذين سنسميهم بـ «القمة» وبين الأكثرية الذين سنسميهم بـ«القاعدة». فلذلك كانت تنسب إلى المعارضة عقائد غريبة وأموراً عجيبة، مما كان يُحدث تباعدا وتنافرا بين الأكثرية الإسلامية والأقلية، وبدورها كانت هذه الأمور تنسب تلقائيا إلى الأئمة الذين كانت المعارضة تلتف حولهم والذين، اطلق عليهم فيما بعد أئمة الشيعة. غير أن وجود الائمة في الساحة وتكذيبهم لما يُنسب إلى المعارضة باسم عقيدة شيعة أهل البيت كان سَنَدا يحمي المعارضة جسدياً إلى حدٍّ ما، ويحميهم فكرياً إلى حد كبير، ولم يسمح هذا الموقف للسياسة العباسية الهادفة للفصل بين المعارضة وبين الأكثرية، فتكذيب التُّهم التي كان العباسيون ينسبونها إلى المعارضة على لسان الأئمة، إنما كان صيانة لهم تحميهم أمام الرأي العام.

وهذه الحالة كانت مستمرة إلى عام ٣٢٩ هجري ،وهو العام الذي أُعلن عن «الغيبة الكبرى» وعن إنهاء دور الإمام المهدي في الساحة وتكذيب كل من يدعي رؤيته، وبذلك طوقت الغيبة، وأُنهِيَ الاتصال بين الأمة والقائد مما أفسح المجال للخلافة العباسية كي تلصق بالمعارضة – التي سميت في ذلك العصر بـ «شيعة الإمامية» – كُلَّ التجاويف والتجاعيد والبدع، وتنسبها بدورها إلى أئمة أهل البيت. ولا شك أن ذلك التحالف الغريب الذي حدث بين الخلافة العباسية، وبعض رجال الدين الشيعة آنذاك قد ساهم مساهمة كبرى في تثبيت هذه البدع كلِّها على الشيعة. والشيعة بدورهم يتصفون بالسذاجة التي كانت السمة الغالبة للأمة الإسلامية آنذاك، وبالإذعان لكل ما تقرأ وتسمع فتبنت تلك البدع والتجاويف، وبذلك ساهمت هي فيما خططت له الخلافة

الأموية والعباسية، وبهذا نشأت الفجوة الفاصلة بين المعارضة. أى بين الأقلية والأكثرية. ففقدت الأقلية الدعم الذى كانت تحصل عليه من الأكثرية فكريا ومعنويا وروحياً ووحدوياً.

وكانت المرحلة الأولى التى بُنِىَ عليها عصر التدمير هى تكذيب رؤية الإمام وَحجْب الاتصال به، وجعله خارج المسئولية العامة لمناطة بالإمامة. ومن ثَمَّ خلقُ نوابٍ يمثلون ذلك الإمام بأعداد لا تحصى، وكانت أولى القضايا التى أدخلت على تفكير الأمة الإسلامية فى بداية «عصر التدمير» هو الجمع بين الخلافة والإمامة، وذلك كمقدمة لإيجاد الخلاف بين المعارضة التى كانت تسمى بالشيعة وبين الأكثرية التى كانت تعقد على المعارضة آمال المستقبل والعودة بفضلهم إلى عهد السلف الصالح وإعادة الأمة إلى الساحة وحصولها على حقوقها المسلوبة.

ولذلك فإننا عندما نستعرض الأمور التى أدخلت فى عقيدة المعارضة – التى تسمى بالشيعة – فى ذلك العهد، واحدةً بعد الأخرى يَثْبُتُ لنا بكل وضوح أن الغرض من كل ذلك لم يكن إيجاد سَدٍّ يفصل بين الشيعة الأقلية آنذاك والأكثرية التى سميت بالسنَّة آنذاك فحسب، بل كان الغرض هو القضاء على الشيعة قضاء تاما، وإخراجها من الساحة الإسلامية إلى الأبد، وجعلها فئة ضعيفة حاسرة على نفسها، لا صلة لها بالأكثرية الإسلامية، ولا صلة للأكثرية الإسلامية بها، ثم استمرار تحكم الخلافة فى رحاب الأمة الإسلامية بصفة عامة، ولهذا أصبحت التضحية بالمعارضة الإسلامية – باسم «الشيعة الإمامية» أمر ضرورياً لبقاء النظام العباسى كوجود وكيان.


بسم الله الرحمن الرحيم

تطويق الغيبة

إن موضوع تطويق الغيبة من أخطر وأهم القضايا التى تتعلق بعقيدتنا نحن الشيعة الإمامية. فهو من المواضيع التى تحتل الصدارة فى العمل والعقيدة الشيعية، ولكنه فى الوقت نفسه فى حاجة إلى أن نفسح المجال لشجبه، وكشف الغطاء عن ملابساته.. وتلك مسألة هامة.

إن كشف الغطاء عن تطويق الغيبة سيؤدى إلى كارثة تنسف على الفور منصب ولاية الفقيه، وسلطة الفقهاء عن بكرة أبيها، وفى الوقت نفسه، يكشف أسراراً خطيرة عن الأحداث التى سبقت عصر الغيبة قبل التطويق وبعده، ثم إنه يكشف القناع عن مؤامرة خطيرة اشتركت الخلافة العباسية فيها بمؤازرة بعض أجنحة الشيعة، لإنهاء أثر الإمام المهدى، وقيادة أهل البيت فى المجتمع الإسلامى، وتطويقه وإعطاء صلاحيات الإمامة وكل شئونها إلى أناس آخرين، لا يستطيعون القيام بالدور القيادى المطلق، الذى كان يقوم به الإمام أولا، ثم تحييدهم فى نهج خاص وبعيد عن الدور الإصلاحى الذى كان أئمة الشيعة، أو بالاحرى أئمة المسلمين يقومون به فى عصر الإنقاذ.

وتطويق الغيبة يبدأ ضمن معادلة غريبة وشاذة لم يسبق للأمة الإسلامية شيعة وسنة أن رضخت لنتائجها، وذلك حين تمّ الاعتماد على الخبر الواحد فقط فى هدم أهم وأكبر صرح قيادى للأمة، وإنهاء دور صاحبه بكلمات مكتوبة نسبها فَرْدٌ واحد إلى الإمام المهدى.

وحتى قيام هذا الفرد الواحد الذى هو السيمرى آخر النواب الأربعة بهذا الأمر، فالقضية تتعلق بخبر واحد أيضاً. فنحن لا نعلم على وجه التأكيد هل أن السيمرى حقا

أخبر عن تسلمه للرقعة التى نسبها إلى الإمام المهدى، أم أن هذا الخبر نُقِلَ وحُكِيَ عنه. لقد حان الوقت بعد الف ومائة عام من الغيبة الكبرى أن نَكشف القناع عن ملابسات المؤامرة التى كان ضحيتها الإمام المهدى، ونحن الشيعة الإمامية مشينا فى ظلها نؤدى ضريبتها الباهظة، ومنعنا الإمام المهدى عن القيام بدوره القيادى الذى صرح به جده رسول الله (ص) وأخبر به الأئمة الذين جاءوا، واستلموا القيادة الروحية للأمة الإسلامية.

إننا نشرح بقليل من الإسهاب الأسباب التى أدت إلى تطويق الغيبة، والنتائج التى ترتبت عليها ، لكى يُلِّم القارىء الشيعى الذى يؤمن بوجود الإمام المهدى، ويقلد فقهاءنا بصفتهم نوابا عامين عنه، يؤدى لهم «الخمس» من أرباح مكاسبه، وينفذ أوامرهم كواجب شرعى يجب تنفيذه، أن يعرف جيدا ما حدث فى عصر الغيبة، وكيف انتهت بالغيبة الكبرى على تعبير القوم؟ ولماذا انتهت؟ ومن هم المستفيدون من ورائها؟

إننا نحن معاشر الشيعة كما قلنا لا نجد صعوبة فى الإيمان بوجود المهدى، وأن الله سيطيل به العمر حتى يأذن له بالظهور عندما يرى سبحانه وتعالى مصلحة فى ذلك. وأثبتنا الأدلة التى يستدل الشيعة بها على وجود المهدى، كما جاء على لسان الصادق والصادع بالوحى الآمين، محمد (ص)، ومن ثم أكدته أئمة المسلمين من أهل بيته واحدا بعد واحد، حتى وصل إلى العصر الذى ولد فيه لمهدى ثم غاب، وهذه الغيبة تسمى بالغيبة الصغرى وعمرها ٧٥ عاما.

فنحن نسير حتى هذه اللحظة على ضوء الأحاديث والروايات التى نعتقد بصحة صدورها، ولكن الشيئ الذى لم تذكره الأحاديث والروايات التى تبشر بوجود المهدى، ومن ثمّ غيبته، ومن ثم ظهوره، هو أن بين الغيبة والظهور ستحدث غيبتان، غيبة صغرى يقوم الإمام بدوره القيادى فى أثنائها عن طريق نوابٍ يعينهم، ثم غيبة كبرى ينتهى بها

دور الإمام القيادى، ويعتزل الأمة ويبقى منتظرا الظهور، ويستولى على صلاحياته أناس لم يعرفهم ولم يمتحنهم ولم يختبرهم وفى الوقت نفسه إذا ادَّعى أحد رؤيته لبيان رأىٍ أو حُكْمٍ أو قدح فى حق أحد النواب الذين لصقوا أنفسهم به فلا بد أن يُكَذَّب تكذيباً قاطعا، ويخرج من دائرة المجتمع الشيعى بصفته كذاب وضال ومارق.

وإن شئت المزيد من التوضيح فأقول : إن الإمام المهدى حسب أكثر الروايات المعتمدة عندنا نحن الشيعة ولد فى عام ٢٥٠ هجرية أى قبل وفاة والده الإمام الحسن العسكرى بخمس سنوات، وقبل أن يتوفى الإمام العسكرى أوصى بالإمامة لابنه المهدى، وبعد وفاة العسكرى مباشرة غاب الإمام المهدى، وذلك لأن الخلافة العباسية كانت تريد القضاء عليه؛ وإنهاء دور إمامة أهل بيت رسول الله (ص) من الساحة الإسلامية، وإنهاء قيادتهم الروحية، بل إنهاء وجودهم بسبب الخطر العظيم المرتقب من بقائهم بين الأمة.

ومنذ أن انتقلت الإمامة إليه بعد وفاة ابيه لم يكن من الميسور الاتصال به والاجتماع إليه خلال سبعين عاما تقريبا، إلا من خلال سفرائه الاربعة، وأولهم كان عثمان بن سعيد العمرى، ثم ابنه محمد بن عثمان العمرى، ومن ثم حسين بن روح النوبختى، ثم على بن محمد السيمرى، الذى كانوا حلقة الاتصال بينه وبين الناس الذين كانوا يريدون الاستضاءة بالقيادة الروحية لأئمة أهل البيت.

ويتفق علماء الشيعة اتفاقا تاما على أن كل نائب كان يسمى النائب الذى يتولى شئون النيابة الخاصة بعد وفاته، وكان آخر النواب هو على بن محمد السيمرى الذى لم تطل مدته فى السفارة أكثر من ثلاث سنوات، ومن هنا تبدأ تلك المعضلة التى لا يريد أحد من فقهائنا أن يعترف ويذعن لها، وهى أن السيمرى قبل وفاته بستة أيام أخرج للناس كتاباً جاء فيه ما يلى :

«فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بعد أن يأذن الله تعالى، وذلك بعد طول المدة وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جورا، وسيأتى من شيعتى منْ يَدّعى المشاهدة، فَمَنْ ادعَّاها فهو كذاب مُفْتَر، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

إن هذه الرواية هى الرواية الوحيدة التى تنهى وجود الإمام المهدى فى الساحة الإسلامية، وتطوق كل صلاحياته، وكل عمل مثمر كان من شئون الإمامة القيام به. ولأول مرة نرى أن الخبر الواحد الذى لا يمكن أن يكون حجة يستند عليها يُعامل معاملة الخبر المتواتر أو مكان الإجماع أو الضروريات التى لا يمكن أن يشك الإنسان فيها.

إن هذه هى بادرة المصيبة الكبرى فى تطويق الغيبة، حيث إن خبرا واحدا يأخذ مكان الخبر المتواتر، أو الإجماع أو البديهيات العقلية، وحتى يومنا هذا لم يحدث قط أن بحث أحد فقهاء الشيعة أو كُتّابهم أو علمائهم هذا الموضوع بصورة تستحق الاهتمام بل آمنوا بهذه الرواية الواحدة إيمان المُسلّمات والبديهيات. ونحن ننطلق من هنا لكى نقول إن تطويق الغيبة بهذه الصورة وتطويق الإمام، وجعله خارج دائرة المجتمع، إنما تمت فى ظل مؤامرة عباسية كان الهدف منها إزاحة الإمام من الساحة. وكان ذلك هو الخطوة الاولى لتدمير فلسفة الغيبة، لأن تكذيب رؤية الإمام والاتصال به، والاستماع، أو الاستشهاد بنصائحه كان يعنى إنهاء دور القيادة الروحية المتمثلة فيه. وأولى نتائج هذا الأمر تشويه سمعة المعارضة التى سميت آنذاك بالشيعة الإمامية الاثنى عشرية، وإلصاق البدع بهم حتى يتم فَصْلَهم عن الأكثرية الإسلامية، وبدون أن تكون هناك قيادة روحية تدافع عن تلك الأمور التى تنسب إليهم، كما كان يحدث فى عصر الإنقاذ. عصر الأئمة.

غير أن من نافلة القول أن نعلن هنا، ولأول مرة فى تاريخ الفكر الشيعى وبكل جرأة أن الخلافة العباسية لم تكن قادرة وحدها على تنفيذ هذه الخطة الرهيبة التى حصلت عام ٣٢٩ هجرية إلا بمؤازرة أولئك الذين اخذوا يفرضون أنفسهم على المعارضة التى سميت بـ «الشيعة» باسم النواب العامين الذين يمثلون الإمام الغائب. ومن سوء حظنا أننا - نحن الشيعة قَبِلْنا بهذا الأمر طوعًا أو كرها، ونحن لا ندرى شناعة المؤامرة التى كانت تحاك للقضاء على الإمام المهدى.وإذا اردنا ان نعرف المستفيدين من هذه المؤامرة فعلينا أن نأخذ بتلك النظرية القانونية التى تقول : «ابحث فى كل جناية عن المستفيدين منها» . فنحن نجد أن فئتين كانتا المستفيدتين من تطويق الغيبة، وانتساب تكذيب من ادّعى رؤية الإمام إلى الإمام. الفئة الأولى : النظام الحاكم كما قلنا، والفئة الثانية هم القابضون على السلطة المذهبية، والذين ظهروا آنذاك فى المجتمع الشيعى، باسم الفقهاء والعلماء والمدافعين عن الشيعة ومذهبهم.

ولكى نعرف على وجه التحقيق كيف استطاعت هذه الفئة الثانية أن تفرض نفسها على الشيعة، وتكسب قلوبها بهذا الشكل، علينا أن نشير إلى الروايتين اللتين نقلتا عن الإمام المهدى، وعليها يستندولاة الفقه والمجتهدون فى فرض هيمنتهم وسلطتهم الاستبدادية على الشيعة.

تقول الرواية الأولى نقلا عن الإمام المهدى :

«أما الحوادث الواقعة فارجعوا إلى رواة أحاديثنا»

وتقول الثانية :

«أما من الفقهاء من كان صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه» .

وكلتا الروايتين لا تعنيان أبدا أن الفقهاء أو رواة الأحاديث لهم سلطة الإمام ومخصصاته ومزاياه، بل من البديهي والواضح ان الروايتين تعينان أن على العوام من المسلمين مراجعة الفقهاء لكي يعرفوا أحكام الإسلام. وما قاله الإمام هنا في تقليد العوام للفقهاء إنما هو امتداد للنص الدستوري الذي جاء في القرآن الكريم :

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (١).

إذاً الرجوع إلى الفقهاء كان قد شرع في عهد الرسول الكريم (ص)، وكان كثير من أهل البادية والمدن المجاورة للمدينة المنورة يأتون إليها ليتعلموا الفقه على يد صاحب الرسالة أو صحابته أو التابعين. ولم يذكر قط في عهد الرسول، ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولا في عهد أئمة أهل البيت أن من لم يقلد الفقيه إنما مات ميتة الجاهلية، وأن الرادّ عليه كالراد على الله كما تذكره كتب فقهائنا الذين نقلوا سلطات الإمام إلى أنفسهم بتطويق الغيبة.

وها هنا أريد أن أكشف قضية خطيرة قد لا يعرفها فقهاء السنة كما إنها خفيت على الشيعة عبر التاريخ، وهي أن المجتهد الشيعي الذي يصبح وليا للفقيه، ويفتي بوجوب إطاعة أمره، ويدّعي أنه نائب عام للإمام المهدي يختلف تماما عن المجتهدين والفقهاء الذين كانوا يؤدون رسالتهم الفقهية والدينية في عصرا لخلافة الراشدة، وفي عصر أئمة أهل البيت، حيث إن الاجتهاد وما يقال في تعريفه هو: ـ «العلم بالأحكام الفرعية الشرعية عن أدلتها التفصيلية»ـ كان يتم على يد فقهاء المسلمين، أو على يد أئمة اهل البيت، حيث كانو يقومون باستنباط الأحكام الشرعية التي لا نص فيها، وتخضع للعملية

١– سورة التوبة : ١٢٢

الاجتهادية من الكتاب والسنة والإجماع، ودليل العقل عندنا، أو القياس عند السنة، كل حسب قدرته وطاقته، وهؤلاء هم الذين قال رسول الله فيهم:

«من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحدا»

وهذه العمليه الاجتهادية التى كانت دأب الصحابه فى عهد السلف الصالح، وفى عهد الخلافة الراشدة، وفى عهد أئمة أهل البيت، إنما كانت عملية اجتهادية لا تتقيد بقيد ولا تخضع لشروط، ما دام المجتهد قادرا على استنباط الأحكام من أدلتها التى ذكرناها. وبقيت هذه الطريقة الاجتهادية هى السيرة الجارية حتى اليوم عند علماء السلفية وفقهائهم، أما عند الفرق الإسلامية الأخرى ما عدا الشيعة، فقد سُدَّ باب الاجتهاد بسبب صعوبته – كما يقولون – وأصبحت المذاهب الأربعة المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى هى التى تهيمن فقهيا على الأكثرية الإسلامية من السنة والجماعة، وأما الاجتهاد الذى يتميز به فقهاء الشيعة عن فقهاء السنة، هو انهم ينظرون فى عمليتهم الاجتهادية إلى فقهة الإمام الصادق وآرائه، وآراء أئمة أهل البيت كمصدر من مصادر التشريع، ويعنى هذا بكل وضوح أن العملية الاجتهادية عند فقهاء الشيعة تتوقف بل تكون حراما عندما يكون الإمام فى الساحة، شأنه شأن النبى (ص) عندما كان موجودا بين المسلمين. حيث لا يكون الاجتهاد عندما يكون المُشَرِّع موجودا وحيّاً، ويمكن السؤال منه مباشرة أو حتى عن طريق ثقاه يعتمد عليهم، فكان على الناس أن يسألوا النبى (ص) فى المسائل الفقهية التى لا نص فيها، ولم تكن من ضروريات الإسلام، وإذا تعسر الاتصال بالنبى (ص) أو بالثقاة من المسلمين الذين كانوا يعرفون رأى النبى (ص) فحينئذٍ يجوز العمل بالاجتهاد.

ويعنى هذا الكلام أن المجتهد الشيعى يختلف تماما عن المجتهدين الآخرين من

صحابة الرسول، وخلفائه وفقهاء الأمة بعد وفاته وفى مقدمتهم الإمام الصادق وأئمة أهل البيت الذين كانوا يقومون بالعملية الاجتهادية بدون أن يضاف إليها ذلك الاصطلاح الفقهى الذى دخل فى الفقه الشيعى، والذى سمى بـ «جواز الاجتهاد عند انسداد الباب» أى أن الاجتهاد يجوز فقط عندما يكون الوصول إلى الإمام ممتنعا، ويكون بابه مسدودا. أما إذا كان باب الوصول إليه مفتوحا كما كان فى عهد الغيبة الصغرى. حيث كان له نواب يسألونه عن الأحكام وعن الشريعة فحينئذ تحرم العملية الاجتهادية، وليس عليهم إلا العمل بكلام الإمام ورأيه.

إننا عندما نعرف أن العملية الاجتهادية عند فقهاء الشيعة تتبخر وتصبح هباء عندما يكون الإمام فى الساحة سواء كان الوصول إليه مباشرة، أو عن طريق نواب عيّنهم بالاسم، كما حدث فى عهد الغيبة الصغرى نعرف بوضوح حجم المؤامرة التى حيكت على أيدى الفقهاء فى تطويق الغيبة بتكذيب رؤية من يدعى رؤية الإمام أو ينقل عنه شيئا يتعلق بالأحكام أو العبادات او فى غيرهما من المسائل الشرعية.

وإنى اعلم مسبقا أن فقهاءنا نحن الشيعة الإمامية عندما يقرأون هذا الفصل سيأخذ كل واحد منهم معولا لهدم هذا الرأى الذى لوأتيح للشيعة أن يلتفوا حوله لتغير مجرى التاريخ الشيعى تغييرا كليا، وقبل التنبؤ بالجواب الذى يتمسك مشايخنا به لرد آرائنا، أود أن أقول هنا إننا لو تصفحنا كل الكتب الفقهية الشيعية، وكل الكتب التى كتبت فى الإمام المهدى لن نجد حديثا واحدا عن الرسول الكريم أو رواية واحدة عن أئمة أهل البيت تقول : «بأن غيبة الإمام تعنى خروجه عن الساحة تماما وإنهاء قيادته الروحية، وتكذيب من ادعى رؤيته أو اتصل به، فالغيبة شيء وتكذيب الرؤية شيء آخر.

ولقد أثبتنا فى فلسفة الغيبة بأنها كانت لا ستمرار القيادة الروحية فى أئمة أهل

البيت، العترة الطاهرة، المتمثلة في شخص الإمام المهدى، لا في غيره من الذين لا يعد ولا يحصى عددهم إلا الله، ويسمون أنفسهم النواب العامون. ووصية الرسول (ص) في جعل القيادة في العترة وحصرها في اثنى عشر إماما من أهل بيته، وبقاء الثانى عشر منهم آلاف السنين قيد الحياة، هو دليل واضح وأكيد أن هذه القيادة يجب أن لا تنتقل إلى غيره. بل تبقى فيه، ولذلك فإن تطويق الغيبة كان مؤامرة على وصية رسول الله (ص) ومن ثم على الإمام المهدى، وكان هو ضحيتها لكبرى.

أما الجواب الذى يقدم لرد رأينا فى تطويق الغيبة، والذى تنبئنا به وهو: لماذا لم يدافع الإمام المهدى عن نفسه عندما طوقت غيبته وأنهى وجوده من الساحة؟! فلقد كان باستطاعته أن يفند بشكل أو بآخر بطلان ما نسبوا إليه من تكذيب الرؤية!

أما الجواب الواضح والبديهى الذى يجعل من كلامهم هذا أمراً واضح البطلان هو أن من اتبع سيرة أئمة أهل البيت مبتدئا من الإمام علي يعرف بوضوح أن الأئمة كانوا دائما معرضين لمؤامرات صبروا عليها، حيث لم يمكنهم القضاء عليها بالطرق الطبيعية والعادية. فالإمام يخضع لكل ما يخضع إليه البشر الآخرون، ولا يمكن خرق هذه القاعدة الطبيعية التى تسير عليها الأحداث. فالإمام على استشهد فى ظل مؤامرة دنيئة كان وراءها أعداء الإسلام ،والإمام الحسن كان ضحية لمؤامرة أموية حيث سمته زوجته جعدة بوحى من معاوية بن أبى سفيان، والإمام الحسين قتل، وأخذوا يطوفون برأسه من كربلاء إلى الشام، والإمام موسى بن جعفر بقى فى سجن هارون الرشيد ١٤ عاما حتى أن سمّه سندى بن شاهك وهو فى السجن وتوفى من جراء ذلك. وهكذا كان أئمة أهل البيت معرضين لمؤامرات لم يستطيعوا الخلاص منها. فالإمام المهدى هو آخر أئمة أهل البيت، وإذا لم يستطع الخلاص من هذه المؤامرة فلا ضير ولا لوم عليه، وليس هذا ذنبه.

ثم علينا أن نعلم أن كتب الشيعة تروى أن كثيرا من الناس ادعوا رؤيته بعد تطويق الغيبة، ولكنهم كذّبوا تكذيبا قاطعا، ولم يُقْبَلْ بكلامهم، وَعَدّوهم ضمن الكذابين وأعداء الإمام! أليس لنا الحق فى أن نقول هنا بأن هؤلاء الذين كذبهم مشايخنا وفقهاؤنا لعلهم صدقوا فى ادعائهم، وكانت رؤيتهم للإمام نجدةً يُراد منها القضاء على «تطويق الرؤية» وما يدريك، فلعل الإمام حملهم هذه الرسالة، وأراد منهم أن يقفوا ضد هذه المؤامرة. إلا أن سلاح التكذيب كان أقوى من كل شىء، فكُذبوا وخُذلوا وأخرجوا من الساحة الشيعية. وبعد كل هذا فكيف يستطيع الإمام أن يدافع عن هذه المؤامرة وينهى مؤامرة «التطويق» !

وإننى عندما أذكر هذا الرأى لا يعنى أننى اعتقد بأن الذين ادعوا رؤية الإمام إنما كانوا صادقين، لأننى لا أعرف مدى أمانة هؤلاء فى سرد الأحداث، ولكن لى الحق أن أقف منهم موقفا محايداً، لأن تكذيبهم كان فى مصلحة «التطويق».

والأهم من هذا، والذى يمكن اعتباره تناقضا فى العمل والقول، والذى سار عليه مشايخنا فى كتبهم وأقوالهم، أنهم يذعنون بأن بعض المؤمنين من خيار القوم رأوا الإمام وزاروه بعد عصر الغيبة الكبرى حتى يومنا هذا، ولكن هؤلاء لم يعرفوا الإمام عندما كانوا فى حضرته، بل عرفوا أنه هو الإمام المهدى، بعد أن غاب عنهم. وهناك كتب كثيرة ألفها مشايخنا، وهى تذكر قصصا عن أكثر من لقاء تم بين أناس عاديين والإمام، أو بين بعض علماء من الشيعة والإمام، ولكن كل هؤلاء يتفقون على هذا القول بأنهم لم يعرفوا الإمام عندما كانوا فى حضوره، وإنما عرفوه بعد أن غاب عنهم.

والتناقض الموجود فى هذا الادعاء هو أن علماءنا وفقهاءنا يعلنون بكل وضوح أن مثل هذه الحوادث قد حدثت وتحدث، وبالصورة التى مر ذكرها، لكنهم يُجمعون على

أمرين، الأول : أن مثل هذه اللقاءات لا قيمة فقهية لها فى بيان الأحكام الشرعية ولا هى حجة فى بيان الأحكام، ويعنى هذا أن الذين يدعون مشاهدة الإمام مع العلم بأنهم لا يكذبون إذا كانوا من الأتقياء والصالحين، غير أنهم إذا ذكروا حكما شرعيا فقهيا سمعوه من الإمام فى هذا اللقاء، فلا قيمة له، ولا يعتبر حجة. ثانيا، إن الذين أدعوا بأنهم عرفوا الإمام فى حالة حضوره لديهم، فيجب أن يكذبوا تكذيبا قاطعا ولا يؤخذ بكلامهم، بل يذهب أدراج الرياح.

إن السؤال الذى لا بد من طرحه هنا ... وأنا أتحدى مشايخنا فى شرق الأرض وغربها، أن يجيبوا على هذا السؤال وهو : إذا كانت رؤية الإمام ومشاهدته حدثت فى أيام الغيبة الكبرى، وكثيرون ادّعوا المشاهدة، وأنتم تؤمنون بصدقهم وصلاحهم، فلماذا تقبلون بالمشاهدة، فقط وتكذبون رأيا فقهيا أو حكما شرعيا ينقله المشاهد عن الإمام؟ لماذا هذه الازدواجية فى تصديق النصف وتكذيب النصف الآخر؟! أليس من حقنا أن نذهب إلى القول أن مشايخنا لو أذعنوا بقبول صحة الروايات التى تنقل عن الإمام، لأصبحوا هم فى غير هذا المقام الذى يتربعون عليه، وذهبت سلطتهم، وانتهى دورهم ولم يبق أثر للولاية التى يدعونها على الشيعة باسم الإمام، وبذلك ينتهى دور من أدوار المؤامرة على الإمام المهدى وعلى الشيعة معا.

وأعتقد أن من سداد الرأى أن أسجل فى هذا الفصل أمورا شاهدتها وعاصرتها، وأمورا سمعتها، وهى معروفة ومتواترة عن لقاء بعض علماء الشيعة وبعض الصلحاء والاخيار بالإمام المهدى، وكل هذه اللقاءات كانت تتوقف عند حد الزيارة وتبادل بعض الكلمات المتعارفة ولكنها خالية من بيان الأحكام الشرعية، أو بيان رأى الإمام فى

فمثلا وليس على وجه الحصر، فإن السيد مهدى الذى لُقِّبَ ببحر العلوم، ويعتبر من كبار علماء الشيعة وفقهائهم، وهو جد الأسرة العراقية المعروفة بهذا الاسم، والذى كان يعيش فى القرن الحادى عشر الهجرى، كان من المعروف عنه أنه كان يلتقى بالإمام المهدى، ونقل عن بحر العلوم هذه العبارة : «كيف أقول لم أره وقد كان يضمنى إلى صدره» . إذاً فالسؤال الذى يَرِدُ هنا هو : ما الذى كان يدور فى هذه اللقاءات؟ وهل كان السيد مهدى بحر العلوم ينقل رأى الإمام فى تطويق الغيبة، وتكذيب الرؤية، والسجن الذى وضعوه فيه! كلا وألف كلا، فلو فعل ذلك لقطع سيف التفكير والتفسيق والتكذيب رقبته. وإلى يومنا هذا فإنَّ كثيراً من الشيعة الإمامية يزورون مسجد السهلة الواقع علذ بعد أميال من النجف الأشرف كل ليلة أربعاء تباعا، حتى يكملوا أربعين ليلة أربعاء، آملين رؤية الإمام المهدى. وعندما كنت فى النجف كنت أذهب إليه بعض ليالى الأربعاء مع جمع من الأصدقاء لأداء الصلاة فيه، ولكننى لم أكمل الأربعين مرة. ولكى أضع النقاط على الحروف لا بُدَّ من سرد هذه الواقعة التى تكشف أبعاد «فصل التطويق» .

عندما كان من العمر خمسة عشر عاما زرت شيخا وقورا اسمه الشيخ محمد الكوفى، كان يسكن فى إحدى حجرات مسجد السهلة الذى مَرَّ ذِكْره، وكان هذا الشيخ معروفا بالتقوى والورع والزهد، وهذا شأن من يسكن الجوامع ويزهد فى شئون الدنيا، وكان من المعروف لدى طبقة من الناس أن الشيخ كان يرى الإمام المهدى حمّله رسالةً شفهية إلى جَدِّنا الإمام الأكبر السيد أبى الحسن الموسوى الذى كان آنذاك مرجع الشيعة الوحيد فى كل أنحاء المعمورة. وقد قال لى الشيخ الكوفى إن الإمام المهدى قال له بلِّغ السيد أبا الحسن ما يلى : «ارخص نفسك وأجعل مجلسك فى الدهليز، واقض حوائج الناس نحن ننصرك» .

وأضاف الشيخ الكوفى أنه بلّغ الرسالة إلى السيد أبى الحسن، وعندما سألت الشيخ الكوفى عن معرفته للإمام حينما كان يتحدث معه، فقال كلا، ولكنه علم بذلك بعد أن غاب من أمامه.

وعند رجوعى إلى النجف ذهبت إلى دار جدّنا وأخبرته بما سمعته من الشيخ الكوفى، فقال مبتسما «أرخص نفسك أرخص نفسك» ثم سكت ولم يضف شيئا. وسألت الإمام الجد إذا كان الشيخ الكوفى وهو شيخ من عامة الناس يظهر له الإمام المهدى، فلا بد أنه يظهر لكم أيضاً وأنتم نائبه العام، فهل سبق أن رأيتم الإمام المهدى؟ فلم يُجِبْ، فكررت عليه السؤال فلم يجب أيضاً ألححت بالسؤال وهذه عادة الذين فى مثل سنى فى ذلك الوقت، فأجابنى بابتسامة وغضب «يا بنى مَنْ ادّعىٰ الرؤية فكَذّبوه» قلت له وأنا أتابع سؤالى. لكن الشيخ الكوفى لم يَكْذِبْ والناس يعتقدون بصحة كلامه، فأجابنى قائلا : يا بنى الشيخ محمد الكوفى يَدّعى أنه عندما رأى الإمام لم يعرفه، ولكنه أيقن أنه المهدى عندما غاب عن نظره، ثم إن الشيخ الكوفى لم ينقل حكماً شرعياً عن الإمام فلو أنه فعل ذلك لم يعتبر كلامه حجة، ولم يأخذ أحدٌ به.

وإنى أعترف أننى فى ذلك العمر لم أكن أفهم كثيرا من الملابسات التى كانت تدور حول غيبة الإمام، ولا الظروف التى آلت إلى تطويق الغيبة وتكذيب الرؤية، فإيمانى بالإمام المهدى وغيبته كانت هى العقدة الشائعة لدى شباب الشيعة فى مثل ذلك العمر.

وبعد سنوات من هذه الحادثة وعندما تبلورت عندى خطوط الغيبة، كانت لى تساؤلات كثيرة عن المسائل التى كانت تعتبر من المُسَلَّمات والبديهات فى عقيدتنا نحن الشيعة الإمامية، ولكن لم أسمع جواباً شافياً وافياً من أعلامنا الشيعة عنها.

وقبل سنة من هذا التاريخ، التقيت بأحد الاتقياء الصالحين من الشيعة، الذى كان من مقلدى الإمام جَدنًا وقد أطال الله به العمر حتى الآن، فقال لى هذا الرجل التقى الصالح إن السيد أبا الحسن جدكم كان يزور الإمام المهدى، أى أن الإمام كان يظهر له بين حين وحين، وعندما سألته من أين يعرف هذا الأمر، الذى لم أكن أعرفه، وقد عشت معه سنوات من العمر، فقال لى بأنه سمع الخبر من أحد أعلام الشيعة، وقد سَمّاه لى بالاسم وهو آية الله الشيخ عبد النبى الأراكى رحمه الله. وقد قلت لهذا الرجل التقى الصالح، وهب أن الإمام كان يظهر لجّدنا، ويعبر له عن آرائه فى كل شىء فما الذى كان باستطاعة جدنا أن يعمل لتغيير المسيرة التى سار عليها الفقهاء والقابضون على السلطة الدينية منذ ألف عام وسار وراءهم الشيعة بقضهم وقضيضهم؟ هل كل السيد أبو الحسن يستطيع أن يقول إن مؤامرة التكذيب وتطويق الغيبة كانت لإنهاء دور الإمام وقيادته الروحية إلى أمدٍ لا يعلمه إلا الله!وهل كان باستطاعته أن يقول إنها مؤامرة حيكت على الأمة الاسلامية جمعاء بتعاون من الخلافة العباسية وبعض المنتمين إلى الشيعة باسم رجال المذهب! وانتهى الحديث مع هذا الرجل الصالح حول هذا الأمر.

ولعل من المفيد أن نبسط القول فى هذا الموضوع لكى يصبح واضحا لا لبس فيه ولا غموض.

إن مؤامرة «تطويق الغيبة» التى كانت تعنى إنهاء القيادة الروحية للإمام المهدى لم تكن فى صالح الخلافة العباسية فحسب، بل كانت ولم تزل فى صالح كلّ الانظمة الاستبدادية، وفى صالح الزعامات الروحية معا. ولعل الزعامات الشيعية الروحية هى المستفيدة قبل الأنظمة الاستبدادية من فقدان القيادة الروحية المنتمية إلى رسول الله (ص)، والتى لو كانت فى الساحة لقالت كلمتها فى مصلحة هذه الأمة، وبينت

الأخطاء الرهيبة التى ارتكبتها الزعامات الروحية السيعية بدون أن يكون عليها رقيب مُدّعيةً السلطة المطلقة من قِبلَ الإمام الغائب الذين بنوا حوله أسلاكا شائكة لا يستطيع من خلالها القيام بدوره القيادى كما كان يقوم به فى الـ ٧٥ سنة خلال غيبته الأولى والتى سميت بـ«الغيبة الصغرى».

إنَّ نظرةً فاحصةً إلى المرجعية الشيعية التى بنت نفسها وكيانها على تطويق الغيبة تثبت لنا بكل وضوح التناقصات الغريبة التى تنبع من نقل صلاحيات الإمام المهدى إلى المجتهدين. فأولاً وقبل كل شىء لا توجد رواية واحدة تنسب إلى الإمام المهدى فى كل ما كتب عنه عبر التاريخ أنه قال بنقل صلاحياته إلى أُناسٍ يسمون أنفسهَم المجتهدين أو النواب العامين للإمام، كما أنّه لا توجد رواية تقول بوجوب إطاعتهم، أو أن الرادَّ عليهم كالراد عليه، وكيف يمكن للإمام أن يقول امراً كهذا. وهو أدرى الناس بأن العملية الاجتهادية لا تخص فردا واحدا على وجه الحصر، وإنما يستطيع كثير من الناس أن يلموا بها ويصبحوا مجتهدين، ويكون لكل واحدٍ رأى فقهى منهم يناقض رأىَ الآخر، فكيف تستطيع الشيعة أن تطيع المجتهدين وتنفذ آراء متناقضة وهى لا تدرى أيّاً منهم أقربَ إلى الصواب فى رأيه.

إن هذه القاعدة العجيبة الرهيبة التى هى وجوب إطاعة أوامر المجتهدين وتقليدهم على ضوء نقل صلاحيات الإمام إليهم أحْدَثتْ فى المجتمع الشيعى إرباكاً عظيما ليس مثله إرباك، ثم جعلت على الشيعة أوصياء وأولياء بعدد الرمل والحَصى لكثرة المجتهدين أو كثرة المُدّعين للاجتهاد.

إنى أذكر جيدا بعد وفاة جدنا الإمام السيد أبى الحسن أن ظهر فى الساحة الشيعية أكثر من ثلاثين مجتهدا شيعيا كانوا يدعون المرجعية، ويصدرون الإفتاء، والغريب فى

الأمر أن كلّ واحدٍ منهم كان يفتى بوجوب تقليدا لأعلم فى المسائل الفقهية ويعنى هذا أن كل واحد من هؤلاء الثلاثين كان يدعى أنه (أَعْلَمْ) من غيره فى الفقه. وأفعل التفضيل صفة لا تتحقق إلا فى شخص واحد، فلا يمكن أن يكون «الأعلم» اكثر من شخص واحد، ولكن الفوضى التى كانت سائدة فى المجتمع الشيعى قد أخْلَتْ لهم الجو، فاستغلوا هذه الفوضى أعظم استغلال، وكما هو المعروف أيضا أن مراجع الشيعة يتفقون فيما بينهم فى حرمة البقاء على تقليد الميت، ويعنى هذا أن على الشيعة أن يرجعوا إلى مجتهد حى عندما يموت مرجعهم، وبهذه ينتقل الشيعة من مجتهد إلى آخر، فلذلك لم نكن نستغرب أبدا تلك العبارات التى كانت تكتب على أغلفة الرسائل الفقهية التى تطبع فى المجتمع الشيعى وهى : «فقيه العصر آية الله العظمى الأعلم الأورع الأزهد الفقيه الربانى زعيم الشيعة ومحى الشريعة الإمام...» وكم كنتُ ولا زلت فى حيرة من أمر قوم يؤلِّفون كتبا باسم الله وللواجب الدينى والشرعى وهم يضعون لأنفسهم هذه الفضائل العظام، ويطبعونها على أغلفة كتبهم، والله تعالى يذكر رسوله بجملة واحدة «محمد رسول الله» وأعظم قادة الأمة البشرية فى عهد السلف الصالح كانوا يلقبون بأمير المؤمنين فقط، وهذا اللقب فى حقيقة ليس أكثر من وصف للمهنة!

وفى هذه اللحظة التى أخط بها هذه الخطوط، لنا نحن الشيعة الإمامية اكثر من عشرة مراجع للتقليد، أصغرهم يقارب الخمسة والسبعين وأكبرهم قد تجاوز المائة أو على قاب قوسين منها. ولكل واحد رسالة فقهية عملية، وكل واحد يرى نفسه أعلم من غيره، وأتقى وأورع وأزهد من زميله؛ بعضهم فى النجف، وبعضهم فى قُم وخراسان، وبعضهم فى أماكن أخرى من العالم، وكل واحد منهم يرى نفسه نائبا عاما للإمام المهدى يجب على الشيعة تقليده فى المسائل الشرعية وإلا بطلت صلاتهم وصومهم!

والسؤال الذى يطرح هنا نفسه هو : ما بال هؤلاء القوم يَسْعَوْن إلى هذه المرجعية، ويسيرون وراءها، ويبذلون قصارى الجهد لتصدرها! إن السبب الأساسى يعود إلى أن هؤلاء المراجع لا يَدّعون تمثيلَ الإمام فى بيان الأحكام الشرعية فقط، فلو كان كذلك لهان الأمر، ولكنهم يدعون بأن الحقوق الشرعية التى كانت تدفع للإمام المهدى فى عصره، إنما هى تعود إليهم فى عصر الغيبة، ويجب دَفْعُها إليهم حتى يصرفونها فى شئون الحوزات الدينية وشئون المذهب.

من هذه القاعدة ينطلق المجتهد الشيعى نحو الزعامة ليتزعم على الشيعة لأن فى يدها الإمكانات المادية التى يحصل عليها من المقلدين والتابعين.

فإذا وراء تطويق الغيبة زعامات دينية كثيرة ومتعددة قد تصبح هباء منثورا إذا كانت الغيبة لم تُطَوَّق بالتكذيب.

وقد يسألنى سائل : ما هى الأموال التى يجب على الشيعة إذاً أن تدفعها للإمام؟! فلهذا الموضوع قصة أخرى لأنها تحكى عن تحوير خطير فى آية الخمس التى سنشير إليها فى فصل خاص بهذا الاسم حيث إن تفسير الخمس فى الغنائم التى تصرح به الآية الكريمة فى قوله تعالى :

(واعْلَمُوا أنّمَا غَنِمْتُمْ مِن شىءٍ فإنّ لله خُمُسَهُ وَللرّسُولِ وَلِذِى القُرْبى وَالْيَتَمى وَالمَسَكينِ وَابْنِ السّبِيلِ...) [1].

لقد فُسِّرت هذه الآية بعد عهد التطويق بالخُمْس فى أرباح المكاسب، مع أنها

١- الانفال : ٤١

صريحة وواضحة ويفهمها كل من يعرف لغة الضاد على أن الآية تقول بوجوب الخمس فى الغنائم، أى فى غنائم الحرب، وليس فى أرباح المكاسب، كما فسره فقهاء الشيعة بعد عهد التطويق، لاستمرار قيادتهم المذهبية التى لم تأخذ القرار إلا برصيد مالى دائم مستمر، ولذلك نحن لا نجد من حرج عندما نحمل مسئولية تطويق الغيبة على الخلافة العباسية وعلى جمع من الشيعة الذين كانت مصلحتهم تتوقف على إنهاء القيادة الروحية للإمام المهدى وتطويقه تطويقا كاملا لايستطيع بعده من بيان أحكام الله وسنة رسوله.

وقبل أن نبدأ بفصل الخمس أود هنا أن أجيب على سؤال خطير جدا وهو أنه : ما الذى يجب على الشيعة أن تفعله إذا ما أيقنت بأن تطويق الغيبة مؤامرة على الإمام المهدى؟! جوابى لهذا السؤال هو أن إصلاح أحد عشر قرنا من التدمير، وسيرة سار الشيعة عليها من الصعوبة بمكان، فليس من المعقول العودة إلى عصر الغيبة الصغرى بعد أن طوقت ألف عام. إن أمرا كهذا سيحدث فوضى ليس بعدها فوضى، وفى هذه الحالة فإن عدد الذين سيدعون أنهم يرون الإمام كنواب خاصين له يتجاوز عددهم عدد النواب العامين ويكون من المستحيل التفريق بين الصالح والطالح والصادق والكاذب، فلذلك ليس على الشيعة إلا أن تدعوا الله كى يفرج على الأمة الإسلامية بالظهور التام ليملأ الأرض قسطا وعدلا، كما أخبر بذلك رسول الله (ص)، ولكن الشيء الذى يجب على الشيعة أن تعرفه هو أن الفقيه أو المجتهد إذا أحسن الظن فيه ليس أكثر من متخصص فى الفقه شأنه شأن المتخصصين فى العلوم الأخرى، وأنه ليس أكثر من داع إلى الشريعة ليبين أحكامها، وحلالها من حرامها، لا ميزة له عليَّ الآخرين، ولا فضل له على الناس. هكذا كان شأن الفقهاء والعلماء فى عصر السلف الصالح، وفى عصر أئمة أهل البيت، لا تضخيم ولا ألقابَ ولا امتيازات ولا تَصرُّف فى أموال الناس كيفما يريدون ويشاءون.

ويعنى هذا أنى ادعوا إلى إنهاء هذه الصورة المريعة فى المرجعية الشيعية، وإعطاء الفقيه حجماً طبيعياً لا يزيد عما للطبيب والمهندس والفيلسوف والصيدلى والحقوقى وسائر العلماء فى شئون الدين والدنيا من فضل.

وقبل أن أُنهِىَ هذا الفصل ينبغى على اَنْ أسجل هنا موضوعا بالغ الخطورة ولعله جواب عن سؤال مقَدَّر، سيوجهه إلينا كل من يقرأ فصل التطويق، وهو : هل كان أعلام الإمامية منذ القرن الرابع الهجرى حتى اليوم والذين أذعنوا لتطويق الغيبة، وإنهاء القيادة الروحية للإمام المهدى كانوا على عام بهذا التطويق أم خفيت عليهم تلك المؤامرة التى كان الإمام المهدى ضحيةً لها؟ بل كانت الإمامة وشئونها ضحيتها الكبرى! الجواب عن هذا السؤال هو : أن الذين ورثوا عهد التطويق بصورته الحالية لم يكن لهم بدٌ إلا الاذعان به، فلا شك أن كثيرا منهم كانوا يعتقدون اعتقاد جازما برواية تكذيب الرؤية التى نسبت إلى الإمام، ولا نستطيع أن نطعن فى شخصيات كبيرة مثل الشريف المرتضى والشيخ الطوسى والعلامة الحلى، والمتأخرين من أعلام الشيعة الذين كانوا جميعاً يعتقدون بهذا الأمر، ولعلَّ السبب الأساسى فى هذه العقيدة يعود إلى أنه لم يجرؤ أحد حتى الآن أن يثير هذا الجَدَل الفقهى والعقلى، وأن يبحث موضوع تطويق الغيبة على ضوء الأحاديث التى رويت عن رسول الله (ص) أو الروايات التى رويت عن أئمة أهل البيت. لذلك أخذت تكذيب الرؤية فى ضمن المسلمات والبديهات. ولكننى مع كل هذا أستغرب كل الاستغراب من أن الكتب التى أُلِّفت فى الإمامة والخلافة من القرن الرابع الهجرى حتى يومنا هذا، والتى تتجاوز الآلاف من المجلدات، وفى ضمن المؤلفين أعلام الإمامية مبتدئا من الشريف المرتضى ومنتهيا إلى أعلام الشيعة فى هذا القرن، لا نجد كلمة واحدة عن هذه النقطة الخطيرة فى عقيدتنا نحن الشيعة الإمامية. فكل أولئك الذين بسطوا القول فى شئون الإمامة وما يتعلق بها، وفى شئون الإمام

المهدى وإثبات وجوده وغيبته، لم يشيروا ولو بكلمة واحدة إلى دليل واحد مقنع بإنتهاء عصر الغيبة التى سُميت بالصغرى... وهو العصر الذى كان فيه الإمام بالساحة يقود الأمة عن طريق نوابه إلى إنهاء هذه القيادة التى كانت تعرف بـ «الغيبة الكبرى» ليحل محل الإمام ولاةُ فقه لهم صلاحيات الإمام وموقعه وشأنه، حيث إنه كما قلنا ونكرر القول فيه أن سنده ينتهى إلى رواية واحدة فقط والخبر الواحد لا يمكن أن يكون حجة، ثم إننا لا نعلم بصورة مؤكدة أن صاحب هذا الخبر الذى هو السيمرى قد روى حقا هذه الرواية أم أُسنَدتْ إليه، ولا سيما نحن نعلم علم اليقين أن السيمرى توفى بعد أن نسبت إليه هذه الرواية بأيام معدودة، وهل إن الرواية حقا ذكرها قبل وفاته أو نسبت إليه بعدها؟.

ثم هناك قاعدة فقهية عقلية يستدل بها كل الفقهاء فى الوصول إلى الأحكام اليقينية الشرعية، واسمها فى اصول الفقه «الاستصحاب» وهى القاعدة الفقهية التى رويت عن أئمة أهل البيت بقولهم : «لا تنقض اليقين بالشك» أى عندما يكون عندك أمر يقينى، فلا يمكن نقضه بالشك، ومن هذه القاعدة الفقهية ننطلق بصورة لا شك فيها.

إن عهد الغيبة الصغرى الذى كان عهدا يقينيا لا يمكن أن ننقضه بعهد آخر ما دمنا نحن نشك فى صحة الخبر الواحد، لذلك نستطيع القول إن السبب الأساسى فى عزوف أعلام الإمامية عن توضيح هذه النقطة الخطيرة فى تاريخ الفكر الشيعى وعقيدتنا نحن الشيعة الإمامية، إنما يعود إلى أن لتطويق الغيبة آثاراً عملية يومية فى حياة القابضين على السلطة الدينية عندنا، ومن ثَمّ على حياة الشيعة معا، لأن من هذه النقطة الخطيرة تبدأ كل البدع والتجاويف التى أُلصقت بعقيدتنا ولم يكن بمقدور الإمام تكذيبها أو

تفنيدها بسبب الحصار الذى فرضوه عليه تحت غطاء «تكذيب الرؤية» ومن هنا تبدأ الزعامات المذهبية التى يساندها الاستيلاء على سلطة الإمام، وما ينجم عنها من آثار عملية وفكرية ومادية. حيث إنها هى قاعدة الوصل بين الشيعة وبين المجتهدين. ولولا هذه القاعدة لم تكن هناك من زعامة استبدادية مذهبية بهذا الشكل، ولم تكن ترضخ لأوامرهم وفتاواهم، خارج حدود العقل والمنطق والصواب، ولم تكن تدفع إليهم تلك الأموال الكثيرة باسم حق الإمام، وحينئذ لم تكن تبنى صروحاً وقواعد تنطلق - منها ... وهو ما نعانى منه اليوم.

إن مئاتٍ من أعلامنا الذين بحثوا موضوع الإمامة والخلافة فى كتبهم منذ ألف عام حتى لآن، صبوا جهدهم كله على ما حدث فى عصر الرسول (ص) وبعده، وعلى ذكر فضائل أهل البيت، أو تجريح السلف الصالح فقط، أى بحثوا عن أمور لا علاقة لها بواقعنا الحالى. أما البحث فى تلك النقطة الخطيرة الحساسة التى لها علاقة مباشرة وعضوية بحياتنا الاجتماعية والسياسية والفكرية، ونحن نتفاعل فى ظلّها ونعيش فيها ألاَ وهى «تطويق الغيبة» فقد عزفوا عن بحثها بل والإشارة إليها لا من القريب ولا من البعيد؛ لأن الدخول فى هذا البحث كان يَجُرّهم إلى المهالك! وكان فيه هدم لكل الامتيازات التى كانت ولا زالت تدر عليهم، ثم كما قلنا إنها كانت فى صالح الأنظمة الإسلامية الاستبدادية التى عاصرناها نحن الشيعة الإمامية جيلا بعد جيل، كما مرّت الإشارة إليها فى فصول سابقة وسنشير إليها أيضاً فى فصول لاحقة.

وها هنا أوجّه هذا السؤال الذى سيكون أخطر سؤال يُوجَّهُ حتى الآن إلى مشايخنا، وأطلب منهم أن يوحدوا صفوفهم ويبذلوا قصارى جهدهم للجواب عنه : وهو أننا لو تصفحنا مئات الكتب التى أُلفت فى الإمامة والخلافة عبر ألف ومائة عام، لوجدناها

كلها تبحث عن مسائل وأمور لا علاقة لها بصميم حياتنا، إنها قضايا تخص القرون الأولى من الهجرة ولا أثر لها فى حياتنا اليومية. أما الموضوع الذى نحن نتفاعل معه ليل ونهار وندفع ضريبته كل يوم. وهو ربط الشيعة بمذهبهم من خلال تمسكهم برأى الفقهاء والمشايخ وتقليدهم فى العقيدة فقد أغفل تماما فى هذه الكتب، ولا يشار إليه، ولا يذكر دليل واحد يؤيد هذا الارتباط الذى يتم به تحت غطاء نائب الإمام، حيث يكون التعامل مع هذا التحوير الخطير كالتعامل مع المُسلمات والبديهات.

أين موقع الغيبة الكبرى والحلقة الموصلة بين الإمام والمشايخ فى هذه الكتب؟ وأين أدلة الغيبة الكبرى، وتطويق الغيبة فى هذه المؤلفات؟ وأين وأين الأدلة التى تقول بنقل صلاحيات الإمام إلى الذين يسمون بالنواب العامين؟

وأخيرا ما هى أدلة ولاية الفقهاء وسيطرتهم على الشيعة فى كتب القوم؟. قد تنقضى قرون ولا نجد لتبرير هذا التحوير الخطير فى عقائدنا نحن الشيعة الإمامية جواباً!!

الحل

والآن وبعد أن أصبح واضحاً أن الإمام المهدى كان هو الضحية الكبرى بتطويق الغيبة، ومن بعده نحن الشيعة الإمامية. وأصبح واضحا أن فقهاءنا ومراجعنا هم الذين يستفيدون من هذا التطويق، أو بالأحرى من اضطهاد الإمام المهدى، سواء علموا بالمؤامرة التى حيكت ضده أو لم يعملوا بها. فلذلك يجب علينا أن نعلم أن كل ما هو مبنى على أمر غير صحيح... فغير صحيح أيضاً. ويعنى هذا بكل وضوح أنّ المرجعية الشيعية بهذه الهيمنة التى ترى نفسها امتداداً لصلاحيات الإمام المهدى ليست أكثر من

تآمر على الإمام، ولا يحق للمتآمرين أن يستمروا فى الإساءة لحق الإمام المهدى، أو يجلسوا على وسادته ويتحكموا فى رقاب المسلمين باسمه. إن على الشيعة إن كانت مخلصة لإمامها ومُحبّةً لقائدها ان لا تسير وراء فئة اضطهدت الإمام المهدى بعلم، أو بغَير علم ألفاً ومائة عام، وجرعته هموما وغموما لا حدَّ لها ولا حصر، أما الحقوق الشرعية التى بذمتهم، فعليهم أن يؤدوها بأيديهم إلى الفقراء والمحتاجين مباشرة، أما فى مسائلهم الشرعية والفقهية فمراجعتهم للفقهاء هو مثل مراجهتهم للأُطباء والمهندسين والمتخصصين فى المسائل العلمية ومجالاتها، فلا فرض ولا إطاعة ولا هيمنة فى هذا الارتباط؛ شأن الفقيه الشيعى شأن الفقيه السنى، يؤدى واجبه بدون أن ينتظر خضوعا أوخشوعا أو عبودية من الناس أو ولاية عليهم، وعلينا أن ننظر إلى الفقيه كما تنص عليه الآية الكريمة فى سورة التوبة حيث يقول رب العزة والجلال :

﴿... فَلَوْلا نَفَرَ من كَلِّ فِرْقَة مِنْهُمْ طائفَةٌ لِيَتَفقَّهُوا فِى الدين وَلِيُنذِروا قومَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

وهذا النص الدستورى يوضح صلاحيات الفقيه، حيث عليه أن يقوم بدور الإرشاد والإنذار فقط، لا بدور الولاية والرئاسة والتصرف فى الأموال والأنفس، وينصب نفسه على الشيعة آمراً وناهياً، والناس من حوله عبيد.

١- سورة لتوبة : ١٢٢

الجمع بين الخلافة والإمامة

وبعد أن ظهرت الشيعة على مسرح الأحداث الإسلامية باسم «الشيعة الإمامية» إثر الإعلان عن «الغيبة الكبرى» وإنهاء القيادة الروحية للإمام المهدى، وجعله خارج إطار الساحة، وذلك لتكذيب كل من يدعى رؤيته أو ينقل عنه شيئا، أو يروى عنه خبرا مباشرا، يتعلق بالحوادث الواقعة تشريعيا أو سياسيا أو اجتماعيا .... كان لا بد كما قلنا من إخراج المعارضة الإسلامية التى أصبحت تسمى ب«الشيعة الإمامية» آنذاك من الساحة تماما، وخلق حاجز سميك بينها وبين الأكثرية، وكانت الخلافة العباسية تبغى جاهدة أن يكون هذا الحاجز حاجزا عدائيا يمنع الالتقاء بين الأقلية والأكثرية.

ولأول مرة ظهر فى الساحة الإسلامية تحوير خطير مفادة الجمع بين الخلافة «القيادة الإسلامية» والإمامة «القيادة الروحية» وعدم التمييز بينهما، وفسرت وصية الرسول (ص)يوم غدير خُم فى حقّ علىّ بأنها تشمل الإمامة «القيادة الروحية»، والخلافة «القيادة السياسية» معا، حيث قال رسول الله (ص):

«من كنت مولاه فهذا علىٌّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»

وهذا الحديث من المتواترت، كما أن حديث الثقلين الذى رواه مسلم فى صحيحه وآخرون من أصحاب الصحاح وهو أن رسول الله (ص) قال فى خطبته يوم غدير خم بعد رجوعه من حجة الوداع :

«إنى تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتى، فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض».

كان أيضاً تأكيدا لخلافة الإمام علىّ ومنْ بَعْده أولاد من فاطمة الزهراء عليهم السلام بصفتهم أهل بيت رَسول الله (ص). وإن هذه الوصية تعنى الجمع بينّ الإمامة والخلافة معا.

غير أن الصحابة بعد وفاة النبى أنكروا تلك الوصية، واختاروا أبا بكر خليفةً لهم، . وظهرت فكرة أخرى تقول : «إن ما أمر به النبى (ص) فى استخلاف على بعده إنما كان بأمر من الله»، وأن الصحابة كلهم ما عدا نفر قليل وقفوا ضد هذا النص. ولكى لا تصطدم فكرة الخلافة الإلهية وبيعة الإمام على مع أبى بكر. حيث إن الخلافة لو كانت إلهية ما كان من حق الإمام على التنازل عنها ومبايعة غيره.

ظهرت فكرة «التَّقيَّة» لتبرير موقف الإمام على فى مبايعة أبى بكر والخليفتين عمر وعثمان، بسبب الخوف على حياته أو إرغامه على البيعة، أو أنه كان يخشى على ضياع الإسلام فقبل بهذا الأمر، تنازل عن حقه الإلهى. ولا أشك أن ظهور هذه الفكرة التى كانت تضمن الخلاف والشقاق بين الشيعة والسنة آنذاك، كانت فى مصلحة الخلافة العباسية. ولا شك أنه كان للعباسيين روافد فكرية ومفكرين يعملون لاستتباب خلافتهم، وكانوا يعرفون جيدا كيف يمكن ضرب الأمة بعضها ببعض. غير أن الأمة الإسلامية قَبْل هذا العصر حتى بداية «عصر التدمير» وقبل أن تظهر هذه لفكرة فى المجتمع الإسلامى كانت تعتقد فى الخلافة والإمامة أنهما منصبان مختلفان. فالخلافة أى قيادة الأمة السياسية، إنما هى بالشورى حسب النصوص الوردة فى الدستور «القرآن الكريم»:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ)(١).

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...) (٢).

فهذه هي القاعدة التي كانت الأمة تنطلق منها للوقوف ضد الأنظمة الأموية والعباسية التي نسفت الدستور وأنكرت هذا النص، وجعلت الخلافة إرثية بدون أن يكون للأمة أدنى رأى فيها. وأما الإمامة وأعنى القيادة الروحية فلم يختلف أحد من أفراد الأمة.

إنه لم يكن هناك غير الإمام على رجل أَوْلى بها، وأنه وصى الرسول وخليفته فى القيادة الروحية، فكان فى نظر الامة الإسلامية، الامتداد الروحى للرسول، فقد نشأ وترعرع فى بيت الرسالة، وتأدب وتعلم على يد رسول الله (ص). فلذلك كل الأحاديث التى كانت تروى عن رسول الله (ص) فى فضل على واستخلافه كانت تعنى باستخلافه للقيادة الروحية التى لا يمكن للأمة أن تعيش بدونها. وإذا نظرنا إلى الحالة التى كانت سائدةً فى عصر الأمة الرشيدة لرأينا أنَّ الخلفاء الرشدين كانوا يعاملون الإمام علياً بهذه الصفة، ويرونه أهلا لهذه القيادة، فعمر بن الخطاب كان يعبر عنه بعظيم أهل البيت وكان يقول فيه :

«لولا على لهلك عمر» ... و«على أقضاكم».

وها هو الإمام على عندما أراد المسلمون بيعته بعد مقتل عثمان لم يرغب فى المبايعة ورفضها وهو يقول:

١- الشورى : ٣٨
- آل عمران : ١٥٩

«وأنا لكم وزيرا خير لكم منى أميرا»

ولكنه فى الوقت نفسة يؤكد إمامته وقيادته الروحية قائلا :

«أين الذين زعموا أنهم الراسخون فى العلم دوننا، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى».

فلذلك لم تظهر فى عهد الخلافة الراشدة ولا فى القرون التى سبقت «عهد التدمير» أية فكرة عن «التقية» أو أن الإمام بايع الخلفاء تقية أو كرها، وإذا ما تأخر الإمام عن بيعة أبى بكر ومعه السيدة فاطمة الزهراء ونفر من الصحابة وبعض بنى هاشم، فلم يُحمل هذا التأخير على أن هناك حقا إليها اغتصب منه، بل استعمل الإمام ومن معه حقوقهم الدستورية فى حرية الرأى وحرية الانتخاب، فكان أولى بالقيادة السياسية أى «الخلافة» من غيره. كما أن سعد بن عبادة أيضاً تخلف عن البيعة للسبب نفسه، ولم يبايع الخليفة أبا بكر ولا الخليفة عمر بن الخطاب إلى أن توفى فى عهد هذا الأخير.

فإذاً إن موقف الإمام ومَنْ معه لم يُحمل عند الأمة الإسلامية إلا على استعمال حق دستورى عوّد رسول الله (ص) صحابته وأمته على السير وراءه. كما أن بيعة الإمام الحسن مع معاوية، وتنازله عن الخلافة لهذا الأخير لم تحمل على أنها «تقية» أو خوف أو إكراه، بل تنازل عن قيادة سياسية، أبدى الإمام الحسن غروبه عنها لأسباب معروفة وهذا التنازل لم يعنِ أبدا أنه تنازل عن القيادة الروحية، فالإمام الحسن كان يتمتع بتلك القيادة عندما كان على قيد الحياة، وكان المسلمون يسيرون وراءه فى أخذ الأحكام وأصول الدين وفروعه. وبعد الإمام الحسن كانت القيادة الروحية للإمام الحسين، ولذلك كان الناس يدعونه لكى يقوم بالقيادة السياسية أيضاً عندما مات معاوية، وأصبح ابنه يزيد

خليفة للمسلمين. فلذلك عندما قام الإمام الحسين بثورته لم يتحدث قط بأنه يريد الفوز بالخلافة بل قال كلمته التى لا زالت تسجلها الكتب التاريخية بأحرف من نور وهى :

«والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح فى أمة جدّى محمد (ص)».

وبعد مقتل الإمام الحسين أصبح الإمام زين العابدين إمام المسلمين، وكانت الأمة الإسلامية تحترمه، وتأخذ تعاليم دينها منه. وهكذا كانت الحالة حتى عصر «الغيبة لكبرى» حيث إن هذا التسلسل الإرثى للأئمة الاثنى عشر كان يبدو تسلسلا طبيعيا؛ لأن كل واحد منهم كان يتميز بصفة القيادة الروحية؛ ومن هنا فإن أئمة الشيعة لم يفكروا قط بتنافس مع الخلفاء العباسيين على منصبهم بل كانوا يعزفون عن ذلك؛ وكان هذا هو السبب الذى جعل من الخلفاء العباسيين أعداء خطرين للأئمة. لأنهم كانوا يعلمون أن الأمة الإسلامية بايعتهم على القيادة الروحية، ألا هى «الإمامة»؛ فهم أولى الناس لكى تجتمع الأمة حولهم وتنتخبهم للقيادة السياسية «الخلافة» أيضاً. فلذلك فإن موضوع الخلافة بالشكل المطروح حاليا، والذى أُلّفتْ آلاف الكتب... عنه عبر التاريخ، والسبب فى الخلاف بين الشيعة والسنة لم يكن مطروحاً قط قبل عهد «عصر التدمير»؛ حيث كان المسلمون يسيرون وراء الأئمة مذعنين لإمامتهم، ولم يكن هناك أية فكرة عن هذا الصراع الذى وُجِدَ بعد الإعلان عن غيبة الإمام المهدى، وقد توارثته الأمة جيلاً بعد جيل.

إن الجمع بين الخلافة والإمامة كان هو البادرة الأولى للتفريق بين الأقلية المعارضة، والتى سُمّيت بـ «الشيعة» آنذاك، وبين الإمامة الإلهية التى هى القيادة الروحية وبين الخلافة السياسية التى يجب أن تنبع من إرادة الأكثرية، وأخذت تصورٌ عهد السلف

الصالح بعهد كئيب مظلم، خالف الصحابة فيه وصية النبى (ص)، وعملوا ضدها، ولهذا فإن الذين تبوءوا الخلافة كانوا غير جديرين. ورافق هذه الفكرة تجريح وشتم للخلفاء الراشدين والصحابة وبعض أمهات المؤمنين، عندئذ بدأت الأكثرية الإسلامية تغير موقفها من المعارضة، وانقلب حبها وعطفها ومؤازرتها لها إلى العداء الشديد. فيا عجبا! إن الأمة الإسلامية التى كانت تقف وراء المعارضة لأنها كانت تطلب العودة إلى عهد السلف الصالح، والعمل بالشورى، وإعطاء الأمة حقها المسلوب وجعلها سيدة مصيرها، بل سيدة الساحة فيما يتعلق بشئونها السياسية والاجتماعية إذا بها تنسف حقّ الأمة فى تقرير مصيرها السياسى والاجتماعى والاقتصادى، وتعلن بأن الخلافة إلهية إرثية لا علاقة للأمة بها، وأن الأمة مأمورة ومضطرة لكى تسير وراء قادتها السياسيين حسب تعيين السماء.

إن هذا التحوير سبب فى تغيير موقف الأمة الإسلامية، من التأييد إلى العداء نحو المعارضة، ورأت فيها أشياء تمس بصميم ما كانت تدعو إليه، فلقد حان وقت الطلاق!

وهنا يجب أن نطرح سؤالا وهو: كيف استطاعت الخلافة العباسية، والمخطّطون لبقاء دولتهم تغيير المنهج الفكرى عند الشيعة الإمامية؟ والجواب على ذلك أن الخلافة العباسية لم تكن وحيدة فى هذه الخدعة التى رسمتها لإنهاء المعارضة من الساحة الإسلامية، بل تحالف معها فئات من مشايخ الشيعة ومن رواتهم، حيث إنهم تبنوا فكرة الخلافة الإلهية، ونسبوا روايات إلى أئمة الشيعة، وألّفوا كتبا فيها تجريح وشتم وسب للسلف الصالح و الخلفاء الراشدين. وأخذوا يقفون مع فكرة التوحيد بين الخلافة والإمامة، لكى ينهوا كلّ أمل فى اللقاء بين الشيعة وبين السنة، ولا شك أن المؤامرة الكبرى التى حدثت فى إخراج الإمام المهدى من الساحة كانت تمهيدا أساسيا لهذه

المؤامرة على الأمة الإسلامية جمعاء.

ولا شك أن الخلافة العباسية قبل تنفيذ المؤامرة التى كانت نتيجتها القضاء على قيادة الإمام المهدى كانت تسعى للقيام بهذا الدور، ولكن وجود الأئمة فى الساحة كان يعتبر سدًا منيعاً لهذا الأمر، مما كان يضمن توحيد الصف بين الأقلية وبين الأكثرية. ولا شك أن العباسيين وأعداء الأئمة كانوا ينسبون إلى أئمة الشيعة آراء وروايات لكى يستغلوها فى صالحهم، ولكنَّ الائمة كانوا يُكَذِّبون تلك الآراء. وقد مر فى فصل «عهد الإنقاذ» كيف أن الإمام الصادق ألقم الذين كانوا يكذبون عليه حجرا بقوله :

«كل ما رُوِيَ عنا إذا وافق كتابَ الله فخذوه وإلا فهو زخرف»

ونعود إلى ما نحن فيه لنقول: إن الخلافة العباسية فى ذلك العصر كانت تبذل قصارى جهدها للتفريق بين الشيعة والسنة، وذلك ليس فقط لإيجاد التفرقة بين الفئتين- كما قلنا - بل كانت تريد أن تتخذ من الأفكار الجديدة ذريعةً لشرعية اضطهاد الشيعة وقتلهم، دون أن تقف الأكثرية مُنَدِّدَة بذلك، ومن ثَّم كان هناك سبب آخر يدعو إلى إيجاد هذه التفرقة بين الشيعة والسنَّة، ألا وهو إنهاء أثر الأقلية فى الأكثرية، وإنزالها من القمة التى كانت متربعة عليها تقود الأكثرية. فالدعوة للعودة إلى عهد السلف الصالح التى كانت شعار الأمة الإسلامية، وكانت المعارضة تدعو إليه، وتهدد النظام الحاكم به، وتتسبب فى إيجاد ثورات داخلية دائمة هنا وهناك أصبحت فى مهب الريح، وأصبح عهد السلف الصالح والخلافة الراشدة والأمة الراشدة فى رأى المعارضة عهدا كالحاً مظلما خرج فيه الصحابة على وصية الرسول، وتكالبوا على المناصب، واستولوا على الخلافة وهم غير جديرين بها!!

إذاً لم يبقَ للدعوة الإصلاحية من أهداف يمكن أن يجتمع الناس عليها، فإذا كان عهد السلف الصالح عهدا سيئا كما أخذت المعارضة تصوره... فلماذا تسعى الأمة للعودة إليه؟ ثم إذا كان الخلفاء الراشدون كما صوّرتهم المعارضة، وأخذت كتبهم تكتب عنهم بشتى النعوت والصفات غير الحسنه،.... فما الذى ينتظر من الخلفاء العباسيين؟ وما هو الطعن الذى يستحقونه؟ ثم علينا أن نعرف أيضاً أنه فى هذا العصر بالذات خرجت مصر وما والاها من سلطة الخلافة العباسية وتأسست الخلافة الفاطمية. التى أسسها عبيد الله بن المهدى فى عام ٢٩٧هجرية فى المغرب، ثم استولى على مصر عام ٣٠١ هجرية. وعبيد الله كان ينتسب إلى الإمام علىّ فى نسبه. والخلافة الفاطمية وأن كانت فى الظاهر خلافة شيعية، لكنها لم يكن لها ارتباط بأئمة أهل البيت، غير أن خلافة شيعية مهما كان شكلها وحقيقتها، كانت تهدد وجود الخلافة العباسية بالفناء، وعندما استطاعت الخلافة الفاطمية الشيعية أن تسلب من الخلافة العباسية بلادا شاسعة باسم الدولة الفاطمية، بات من الواضح أيضاً أنها تهدد بالاستيلاء على بلاد أخرى يسيطر عليها العباسيون، وقد تصل إلى بغداد وتحتلها، ثم تُشرّق إلى أن تصل الى آخر حدود الخلافة العباسية.

فإذاً فخطر الخلافة الفاطمية الشيعية كان خطرا عظيما يهدد الخلافة العباسية، وكانت تنذرهم بالاستيلاء على ما فى يدهم من بلاد متاخمة لمصر، متجهه نحو المشرق. فلذلك فإن المؤامرة التى حيكت على يد الخلافة العباسية لضرب الشيعة، وإيجاد سد بينهم وبين الأكثرية كانت فى مصلحة العباسيين، ومن جهة أخرى كانت لتضعيف الخلافة الفاطمية فى نظر الأكثرية الإسلامية، بعد أن بدأت الشيعة تجاهر بآراء تتغاير مع آراء الأكثرية الإسلامية، وبذلك استطاعت الخلافة العباسية فصل شيعة أهل البيت والخلافة الفاطمية الشيعية معا عن صف الأكثرية الإسلامية التى كانت تتعاطف مع

الجهتين، بل كانت مؤيدة لهما فى قرارة نفسها قبل الانفصال التام. وقبل أن أُعَرِّج على فصل آخر من هذا الكتاب أذكر هنا تصورى عما حدث للمسلمين من التفرقة والعداء، بعد أن ظهرت فكرة الجمع بين الخلافة والإمامة، وأتساءل: كيف كان يمكن أن تكون عليه حالة الأمة الإسلامية لو استمرت على تلك الحالة من وحدة الفكر؟

إنى اعتقد صارما أنه فى تلك الحالة لم يكن ليحدث شئ اسمه الخلاف الشيعى. السنى، ولم تكن لتُؤلف مئات الكتب التى شغلت بال المسلمين فى الإمامة والخلافة، ولو فر ذلك على المسلمين جهدا ودماء وأموالا لا تعد ولا تُحصى.

وأتساءل مرة أخرى هل كان هناك شئ أجمل مما كانت عليه العقيدة السائدة لدى المسلمين بعد وفاة الرسول حتى العصر الذى حدثت فيه التفرقة الفكرية بين الأمة؟ وهل كان هناك أحسن قولا وفكرا من الاعتقاد بأن الخلافة «القيادة السياسية» تكون فى الشورى نزولا عند النص الدستورى «القرآن الكريم» والإمامة «القيادة الروحية» فى الإمام على وأئمة أهل البيت نزولا عند الأحاديث النبوية التى نصت على ذلك؟ وبذلك نفوز بالقدر الجامع الذى يجمع بين الكتاب والسنة «الدستور ومتمم الدستور»، ويعنى هذا أنه لو لم تحدث تلك المؤامرة الخطيرة فما كان هناك شيعة ولا سنّة، ولبقى المسلمون على ما هم عليه من وحدة الفكر والعقيدة. بل لم يحدث حتى هذا الصراع الفقهى بين المذاهب الإسلامية، وكان المذهب الفقهى الذى يسود هو مذهب أهل البيت «المذهب الجعفرى»، وبالتالى لم تكن البدع الكثيرة لتأخذ طريقها إلى العقيدة الصافية الإسلامية، ولم يكن للصراع الدائر، بين الشيعة والسنة، أو بين المذاهب الإسلامية عموما اثر يذكر لا فى ماضينا ولا فى حاضرنا.

والآن وبعد مرور الف ومائة عام على هذه المؤامرة. ألم يأن للشيعة والسُّنة أن

يجتمعوا على ميثاق يُعيدهم إلى عهد السلف الصالح من أمة محمد (ص) خير القرون وأشرفها وأزكاها، وأن يجمعوا كل الكتب التى أُلفّت عبر القرون وهى تخالف هذا الرأى من رفوف المكاتب لتحل محلها مرآة عصر جليل فقدناه، للعودة إلى عصر الأوائل من أمة محمد (ص) التى تضمن للأمة الإسلامية العزة والكرامة. حقا إنه دليل على معجزة رسول الله (ص) الذى قال:

«لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها» صدق رسول الله (ص).

ولابد أن نضيف هنا أيضاً أن البويهيين الشيعة الذين استولوا على بغداد فى إبان عهد تطويق الغيبة، وأصبحت الخلافة تحت نفوذهم، كان لهم دور كبير فى المؤامرة التى أدّت إلى فصل الشيعة عن السنة، وإيجاد السياسة التى تسمى بـ«فرّق تسُد» كما أنهم لعبوا دوراً هدّاما فى نسبة كثير من البدع إلى عقائدنا وهم الذين درّبوا الشيعة على تجريح الخلفاء الراشدين علناً، وذلك بعد أن فسّرت الإمامة والخلافة بأنهما منصب واحد، ولقد لعبوا دوراً خطيراً فى فصل الشيعة عن السنة، نشير إليه فى فصول قادمة.

التَّقِيَّـــة

"التخطيط الرهيب"

من الذى أدخل التَّقِيَّة فى مذهبنا؟ ومن هم الذين كانوا وراءها؟ وما هى الغايات الخطيرة المترتبة عليها؟ ولماذا يستند فقهاؤنا عليها فى استنباط الأحكام الشرعية؟ ولماذا يدافعون عنها ليل ونهار فى كتبهم ودروسهم الدينية؟، ولماذا يلزمون الشيعة الإمامية العمل بها؟، وما هو دورها الخطير فى الجمع بين الإمامة والخلافة؟، وأخيراً ما هو دورها الأساسى فى عمل الشيعة على قبول الظلم والاستسلام للأنظمة الحاكمة تحت غطاء وجوب «التقية»، ثم ما هى الصلة بين «التقية» و«العصمة» و«الإلهام» اللذين تنسبهما إلى أئمتنا عليهم السلام! سنجيب على هذه الأسئلة ونكشف القناع عن أخطر المؤامرات التى حيكت للأمة الإسلامية فى القرن الثانى الهجرى ثم تبناها فقهاؤنا فى القرن الرابع الهجرى لتصبح من سماتنا الخاصة. فلأول مرة فى تاريخ الفكر والعقيدة الشيعية نصل إلى كشف اسرار خَفَيَتْ على الباحثين والعلماء عبر القرون. وقد وفقنى الله لكشفها بعد نصف قرن من التفكير والتأمل والبحث والاستقصاء، ولعل هذا يؤدى إلى تغيير المنحنى الفكرى فى عقيدتنا نحو «التقية» ونسفها نسفا، حتى لا تقوم لها قائمة بعد اليوم.

لقد سار العباسيون ابتدء من أول خلفائهم أبى العباس السفاح على السيرة التى عَمِلَ بها الأمويون فى القضاء على المعارضة الإسلامية، بالذريعة نفسها التى استخدمها الأمويون، للقضاء عليها باسم «شيعة على» أو «شيعة أهل البيت» أو «العلويين»، غير أن

وجود أئمة أهل البيت فى الساحة، ونفيهم المطلق فى عدم الرغبة فى الخلافة والاضطلاع بشئون الحكم، كان حافزا كبيرا للنيل من المعارضة بصورة وسيعة، فلذلك جاء التخطيط الرهيب «التقية» كأحسن ذريعة لاضطهاد المعارضة وقتلهم، وحمل كل ما يقولونه فى الدفاع عن أنفسهم على الكذب والخداع.

وإنى لا أشك أبدا أن الجملة التى نُسِبَتْ إلى الإمام الصادق وتذكرها كتبنا نحن الشيعة وهى : «التقية دِينى ودين آبائى» أو «من لا تقية له لا دين له». وُضِعَتْ فى ذلك العصر لسببين :

أولا : للنيل من الإمام الصادق الذى كان الخليفة المنصور يتربص به.

ثانيا : للنيل من المعارضة الإسلامية الساخطة التى كانت تدعو للعودة إلى عهد السلف الصالح، وسيادة الأمة فى الشورى، وحق تقرير المصير، وانتخاب القائد السياسى للدولة - الخليفة - وبذلك حَجَبَتْ الخلافة العباسية كُلَّ سُبل الدفاع عن النفس، وتسليمهم إلى الجلادين بدون محاكمة أو إثبات تهمة، أو الاستماع إلى الشهود، أو الدلائل والبراهين بذريعة «التقية».

ولذلك نعلم علم اليقين - كما ترويها كتبنا بصورة تفصيلية أن الإمام سعى جاهدا، وبكل ما كان يستطيع أن يُفنِّد الروايات التى كانت تنسب إليه فى عصره، وكانت تستخدم لإنهاء المعارضة الإسلامية، وإخماد صوتها، وقد أشرنا إلى موقف الإمام بصورة تفصيلية فى فصل عصر الإنقاذ، ولا حاجة لتكراره، غير أن انتساب «التَّقيَّة» إلى المعارضة كان وراءه أيضاً التشهير بالمعارضة ورْميها بالكذب والخداع وازدواجية الشخصية لتحطيمها اجتماعيا وإمام الرأى العام الإسلامى الذى لم يعرف آنذاك السبل الشنيعة

لتحطيم المعارضة وجعلها فئةَ غير مرغوب فيها، ولذلك فإن أئمة الشيعة الذين جاءوا بعد الإمام الصادق. قام كل واحد منهم بجهد حثيث للدفاع عن صورة الإمامة المشرقة المتمثلة فى القيادة الروحية، ونفى كل تلك الخزعبلات نفيا قاطعا.

واستمر الوضع على هذا المنوال حتى عصر «تطويق الغيبة» حيث أُنْهِىَ وجود الإمام فى الساحة، واستطاعت الخلافة العباسية والمخططون لبقائها تجديد فكرة «التقية» بصورة واسعة، ورمى الشيعة الذين ظهروا على الساحة فى ظل كيان جديد بها، وعندما تبنى فقهاؤنا فكرة التقية، ونسبوها بدورهم إلى الإمام الصادق، اعتبرت الخلافة العباسية هذا الأمر نصرا كبيرا عظيما لها. فمثل هذه الفكرة عندما تصبح عقيدة دينية تساعد كثيرا على تحطيم نفسية المعارضة، وإخراجها من الساحة العملية العامة، وحَصْر نضالها فى السرية، أو التمنيات القبلية. والذى لا شك فية أيضاً هو أن القابضين على السلطة المذهبية. أى فقهاؤنا وجدوا فى تبنى «التقية» سدا منيعا يحفظهم من الخوض فى المواجهات السياسية التى كانت ولم تزل من سمات العصور الإسلامية المتعاقبة والتى كانت تحدث بين الأمة والسلطة، وبذلك كانوا يريحون أنفسهم من القيام بالواجب الدينى والاجتماعى بذريعة وجوب «التقية»، والبقاء فى أمان وسلام من بطش السلطة، ولذلك لم نستغرب أبدا عندما نعلم أن «التقية» التى فرضتها الخلافة العباسية علينا، باركتها الأنظمة الشيعية المتعاقبة. فالبويهيون الذين سيطروا على الحكم فى العراق وإيران فى السنوات نفسها التى أخَذَت «التقية» طريقها إلى عقيدة الشيعة باركوا هذا الأمر بكل شدة وقوة وبعد ستمائة عام من ذلك التاريخ أسس الصفويون فى إيران الدولة الشيعية، واصبحوا هم بدورهم من اشد المتحمسين لفكرة «التقية» والكتب التى ألفت فى ذلك العصر فى ظل تلك الدولة مُلِئت بأخبار وروايات تنسب إلى أئمتنا فى وجوب العمل

بها.

و«التقية» سواءكانت سياسية أو دينية أو مذهبية، فهي تعنى بكل اختصار «أن تقول وتعلن بما لا تعتقد، أو أن تعمل عملا لإفهام الآخرين بأنك منهم وعلى عقيدتهم ومذهبهم، وبعبارة واضحة ازدواج الشخصية والتقلب من حين إلى حين». إن هذه النفسية الازدواجية سببت للشعب الإيراني الشيعي على مدى التاريخ شقاء وعناء لا مثيل له، كما أنها أدت إلى كوارث رهيبة أصابت الشيعة في العراق وفي أماكن أخرى من العالم الإسلامي، منذ أن أدخل الأعداء هذه العقيدة إلى مذهبنا حتى هذه اللحظة من عمر الزمان.

ولا بد هنا ونحن نتحدث عن «التَّقِّية» أن نذكر بشيء من التفصيل الأسباب الكامنة وراء الإصرار عليها، وتبنيها من قبل علمائنا، ونبين بصورة واضحة كيف أن «التقية» التي نسبتها الخلافة العباسية في بادىء الأمر إلى المعارضة الإسلامية للقضاء عليها اتُخذَتْ ذريعةً فيما بعد للجمع بين فكرة الإمامة والخلافة «القيادة الروحية» و«القيادة السياسية» لنسف عصر الأمة الرشيدة والخلافة الراشدة، ولتجريح السلف الصالح والطعن في خير العصور الإسلامية وأشرفها وأزكاها.

حقا إن العباقرة الذين خططوا لفكرة «التقية» وإدخالها في عقيدتنا يُعتبرون بحق أجدر من «نوبل» في الاحتفال بعام ولادته. فنوبل اخترع المادة التي تنسف المادة بعنف وتجعلها ركاما، أما أولئك فقد وجدوا الطريقة الفكرية التي تنسف الفكر والروح بعنف وتجعل من الأمة دمية لا حراك لها، ولا فائدة من وجودها.

ولكي نضع النقاط على الحروف، نذكر بالأرقام الأخطار والأضرار التي لَحقَتْ بنا نحن الشيعة الإماميةَ منذ دخول هذا البند إلى عقيدتنا، والتي لم تزل تسير عليه الشيعة،

ويستند فقهاؤنا عليه يفتون بوجوب العمل به فى رسائلهم الفقهية التى تنشر وتطبع ليل نهار.

١- لقد كانت الخلافة العباسية فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وعلى وجه التحديد فى السنوات التى تم تطويق الغيبة فيها بمؤامرة عباسية بويهية، كان وراءها ولاة الفقه، فى حالة ضعف وانهيار، وكانت مصلحة العباسيين والبويهيين معاً تقتضى إيجاد الفرقة القصوى، وقطع السبيل بين المعارضة التى أصبح لها كيان خاص باسم الشيعة، والأكثرية الإسلامية التى تسمى بالسنة. فمصلحة البويهيين الذين بسطوا سلطانهم على إيران والعراق، وأصبح الخليفة العباسي تحت رحمتهم، كانت تقضى بإيجاد العداء بين الأقلية والأكثرية، والاستناد على الأقلية الموالية لضرب الأكثرية، تمشيا مع السياسة المدروسة القديمة «فَرِّق تسُد»، وكانت مصلحة الخلافة تقضى بتشويه صورة المعارضة بسُبل شتى، وإيجاد حالة من الصراع العنيف الفكرى بينها وبين الأقلية، للحصول على الدعم المادى والفكرى من الأكثرية التى أخذ النظام الشيعى الجديد يحكمها. وهذه المعادلة الصعبة لم تكن تحصل إلاّ بأمرين، كل واحد يأتى مكملا للثانى، الأول : الجمع بين الخلافة والإمامة وأنهما أمر واحد، وأن رسول الله (ص) نَصّ على أنها للإمام على بعد وفاته بأمر من الله، والصحابة بايعوا أبا بكر والخليفتين بعده خروجا منهم على النص النبوى. والثانى : أن الإمام على بايع الخلفاء الذين سبقوه «تقية»، فلا شرعية لتلك البيعة.

إن تعميم هذه الفكرة على المجتمع الإسلامى الذى تَعَوَّدَ طيلة ثلاثة قرون متلاحقة

أن ينظر إلى عصر السلف الصالح والخلافة الراشدة نظرة تكريم واحترام وإعزاز وفخر، والاعتقاد بأن الخلافة إنما هى قيادة سياسية أناطها الدستور «القرآن الكريم» إلى الأمة لتنتخبَ بالشورى مَنْ تشاء، و«الإمامة» قيادة روحية أناطها رسول الله (ص) فى حديث الثقلين بالإمام على والعترة النبوية إلى هذا التحوير الخطير لم يكن يحصل قط إلا بمؤامرة «تطويق الغيبة» وإخراج الإمام من الساحة، وإنهاء قيادته الروحية التى كانت مهيمنة على الأمة، والاستيلاء على صلاحياته من قبل أناس كانوا متورطين فى هذه المؤامرة، وقد وصفوا أنفسهم بأنهم ولاة الفقه، ونواب الإمام العامين.

ولا شكَّ أبداً أن صيحات كثيرة ارتفعت فى وقته، ووصلت إلى عنان السماء قائلة: إن نسب «التقية» إلى الإمام علىٍّ وهو أسد الله الغالب على الأعداء، وصنو الرسول وزوج البتول وأبو الحسين إنما هى إساءة إلى شخصيته العظيمة، فالتقية لا تمر بخلد رجل عظيم مثل الإمام على، ناهيك عن العمل بها، وذلك فى أخطر قضية تجابهها الأمة بعد وفاة القائد العظيم رسول الله (ص)، ثم إن الخلافة لو كانت إلهية، ما كان باستطاعة الإمام أن يغض الطرفَ عنها. سواء كانت له أو لغيره، فهى حق إلهى وتشريع سماوى لا يستطيع أحد أن يقف ضدها أو يخالفها، والإمام أعرف الناس من غيره بالإسلام وصرامته والعمل بأحكامه. فإذا كان رسول الله (ص) وهو قائد المسيرة الكبرى، وعليه نزلت التشريعات الإلهية تَلَقَّى عتاباً من ربِّ العزة والجلال فى تحريم ما أحل على نفسه تنفيذا لرغبات أزواجه :

(يأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ...)[1].

فهل من المتصور أن يترك الإمام نَصّاً إلهياً وتشريعاً سماوياً، ويرضخ لإرادة الناس

١- التحريم : ١

تقيةً مهما كانت أسبابها!

ومن شئون الدنيا الخلافة التى نص عليها القرآن الكريم «بالشورى» وجعل الأمة سيدة الساحة فى انتخاب من تراه مناسبا للقيام بشئونها السياسية، إنها هى الخلافة السياسية التى يعبر الإمام عن رأيه فيها بكل صراحة ووضوح، فقد روى ابن عباس :

«دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف نعله، فقال لى ما قيمة هذا النعل. فقلت له:

لا قيمة. فقال : عليه السلام والله لهى أحب إلى من إمرتكم إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا»[1] .

فيا ترى لو كانت الخلافة إلهية هل كان يعبر عنها الإمام بهذه العبارة؟ ومهما كان من أمر فإن الجمع والمزج بين الخلافة الدنيوية والإمامة الروحية وَحَمل المسلمين على قبول الجمع بينهما كان يحتاج إلى جهود عظيمة، استطاعت «التقية» أن تضمنها ضمانا كافيا، تركن إليها النفوس الساذجة والعقول الضعيفة، ثم انتشرت لتصبح الفكرة السائدة فى المجتمع الإسلامى، وكل فئة تنظر إليها حسب الطريقة التى أمليت عليها. غير أن فكرة الخلافة الإلهية والجمع بينها وبين الإمامة كانت تصطدم بصعوبات كبيرة أخرى أولها بيعة الإمام الحسن مع معاوية بن أبى سفيان، وتنازله عن الخلافة لهذا الأخير، فإذا كان الإمام علىٌّ قد عمل بالتقية حفاظا على الإسلام الذى كان طرى العود بعد وفاة الرسول (ص)، أو عمل بالتقية كرها أو خوفا على حياته، كما يقوله أنصار الجمع بين الإمامة والخلافة، وتنازل عن هذا الحق الإلهى، فالإمام الحسن لم

١- نهج البلاغة .

يكن مُرغما أو مكرها على مثل هذا التنازل، فقد انتخبه المسلمون بعد وفاة الإمام على طوعا ورغبة، وكان يحكم بلاداً واسعة تبدأ حدودها من اليمن وتنتهى إلى أسوار الصين لمدة ستة أشهر، وكان باستطاعته أن يحارب البغاة الذين يرأسهم معاوية، ولكنه تنازل عن الخلافة وتركها لمعاوية حقْنا لدماء المسلمين. فيا تُرى لو كانت الخلافة السياسية إلهية فهل كانت إراقة الدماء تقف حاجزا للتنازل عنها؟ إذن لا بد لإعطاء هذا التنازل ولموقف الإمام الحسين الذى يتناقض مع التنازل عنها، صورة مقبولة تثبت الخلافة الإلهية، مع توجية للتنازل وعدمه يحفظ الإطار العام لها. فلماذا حارب الإمام الحسين حتى الشهادة؟ ولم يستسلم ليزيد بن معاوية وقُتل هو وأهل بيته من آل رسول الله دفاعا عن العقيدة ودحرا للخلافة الغاصبة، فظهرت فكرة «العصمة والإلهام» وانتسابهما إلى الأئمة، وهاتان الفكرتان مكملتان لفكرة «التقية»، والآثار التى أوجدت نسبة «التقية» إلى الإمام على والإمام الحسن تنتفى بدون هاتين الفكرتين - «العصمة والإلهام» - فالإمام معصوم، لم يخطىء وكل ما يصدر عنه فهو عين الصواب، ثم إنه مدعم بإلهام إلهى يسير عليه، فلذلك فإن الإمام الحسن تنازل بأمر إلهى أنزل عليه بالإلهام ، والإمام الحسين حارب واستشهد بأمر إلهى هو الإلهام من عالم الغيب!

غير أن الغايات المترتبة على «التقية» تجاوزت الأسباب التى أشرنا إليها وأخذت أمور خطيرة أخرى تنجم عنها.

٢- فى العصر الذى أمليت «التقية» علينا نحن الشيعة الإمامية وهو بداية القرن الرابع الهجرى، كان المسلمون حديثى العهد بعصر أئمة الشيعة، ولا سيّما الإمام الصادق، الذى يعتبر الرائد والمؤسس لفقه أهل البيت. الذى سُمى فيما بعد بالفقه الجعفرى، وكانت كثير من آراء الإمام وأقواله مدونة يتداولها

المسلمون، كانت آراؤه الفقهية هى المهيمنة على المسلمين، ولم يكن شىء أخطر من هذا على الخلافة العباسية المهزوزة آنذاك، فلذلك كانت السياسة هى خلق عقبات فكرية تقف دون ذلك، وتُسيِّر آراء الإمام إلى الجهة التى تضمن الفصل التام بين الشيعة والسنة، ولم تكن تحصل هذه الحالة إلاَّ بإضافة «لتقية» إلى الإمام وآرائه، وثم أضافوا إلى «التقية» بتدا آخر ونسبوه إلى الإمام الصادق وهو : «خذ بما يخالف العامة»، أى إذا قلنا حكما فقهيا يوافق آراء الأكثرية الإسلامية، فإنما نقوله للتقية، فلذلك اعمل على نقيضها الذى يخالف العامة.

وكلنا نعلم أن فى عهد الإمام لم يكن هناك شىء اسمه العامة أو الخاصة، بل كان المسلمون أمةً واحدةً تسير على كتاب الله وسنة رسوله، وكان فقهُ الإمام الصادق هو المهيمن على الأمة، بل لم تكن هناك حتى المذاهب الفقهية الكبرى التى أخذت تسيطر على الأكثرية الإسلامية بعد أن أخذ المذهب الفقهى للإمام جعفر يتراجع بمؤامرة عباسية بويهية اشترك فيها رجال من الشيعة، كما سنذكر تفصيله فى فصل «فقه أهل البيت يتراجع».

٣- ومن الأهداف الهامة التى تترتب على «التقية» آثارها النفسية، وهى سند عظيم للأنظمة الظالمة للاستمرار فى التعدى والظلم بحقوق العباد والبلاد بدون أن تجابه بمقاومة أو ثورة أو حركة مضادة. فـ«التقية» الشرعية تُحرِّم بيان أو إظهار أى كلام أو عمل يؤدى بالإنسان إلى خسارة أو ضرر، وبما أن الأنظمة

١) الحج : ٣٩

الفاسدة لا تزول بالتمني والدعاء، بل بالمواجهة، التي قد تؤدى إلى الاستشهاد أو السجن أو التعذيب أو مصادرة الممتلكات، وهذه أمور تحرمها «التقية» ، إذن فإنها هى السند لكل الظالمين، وهذا يتناقض تناقضا صارخا مع الآية الكريمة:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)(1).

وأما آثارها النفسية على الإنسان؛ فهى خلق تلك الازدواجية المقيتة التى تجعل من الإنسان عبداً مطيعاً يعمل ويفعل بما يريده الغير، أو يأمر به بدون أن يكون له إيمان بذلك، وأين هذه الصفة المذمومة من الإباء والكرامة والإيمان بالمعتقدات والأفكار، فلذلك فإن «التقية» أراحت الأنظمة الاستبدادية الفاسدة المتعاقبة من مواجهة الساخطين، وأراح الساخطين والناقمين من هذه المواجهة أيضاً، وأراح القيادة الروحية الشيعية عبر التاريخ من كل ما فيه مكروه أو خطر على زعامتهم، فاستسلموا للطُغاه بواجب «التقية» وأَمروا أتباعَهم بالاستسلام معهم للواجب الشرعى نفسه، فكانوا هم أمام الواجبات الاجتماعية والسياسية كابن اللبون، لا ظهر فيركب ولا ضَرع فيُحلَب.

وكم كانت الحالة تروق للحكام المستبدين شيعة او سنة، منذ العصر الذى دخلت فيه «التقية» فى مذهبنا. فلا العباسيون ولا البويهيون ولا السلاجقة أعداء الشيعة، ولا التتر أعداء الإسلام، ولا آل عثمان ولا الصفويون أنصار التشيع والشيعة، واجهوا ثورة شيعية أو عداءً شيعيا أو مناهضة شيعية، بل كان الشيعة طائفة مطيعة لهم عبر التاريخ، بسبب الواجب الشرعى الذى سُمّى بـ «التقية».

٤- أما أهم الأخطار الفكرية التى تصيب المرء بسبب «التقية» فهى قطع الحوار والبقاء فى بوتقة العقائد بدون الإيضاح عنها، وهذا هو الأمر الذى أدى إلى

إبقاء الشيعة فى التبعية العمياء لمراجعهم، ومن ثَم استمرار الصراع الشيعى السنى عبر التاريخ، فإذا كان المرء يُخفى عقائده، ولا يبوح بها ، ولا يضعها على طاولة البحث والنقد، فمتى يستطيع درك الصحيح من السقيم منها، وبعبارة واضحة وكما يقول ديكارت : «الشك أول الحقيقة»، والحقيقة لاتدرك إلا بالبحث والحوار، وإذا كان الحوار والبحث محرمين فكيف السبيل إلى درك الحقيقة والصواب؟ ولكن المُضحك المُبكى فى «التقية» التى سلكناها نحن الشيعة الإمامية هو أننا كتمنا عقائدنا قولاً، ولكن صرّحْنا بها فى كتبنا، وفى مجالسنا الخاصة، وبذلك أصبحت تقيتنا تقية مهزوزة تجر علينا الهوان، فنحن لسنا من الباطنية مثل العلويين والدورز والإسماعيلية، حيث إن الوصول إلى كُنه عقائدهم من الصعوبة بمكان، فليس لهم كتب مطبوعة متداولة بين أيدى الناس، ولا مجالسهم مفتوحة لغيرهم حتى يمكن الاطلاع على حقيقة عقائدهم.

أما نحن فعقائدنا واضحة وصريحة ومطبوعة فى آلاف المجلدات والموسوعات، ومجالسنا ومساجدنا مفتوحة لكل المسلمين، فى أقطارنا الشيعية نُدلى برأينا فى كل وضوح وصراحة، ولكن عندما نلتقى بالسنة فى مجالسهم، أو فى مجالسنا نغير أسلوبنا فى الحديث تقية، وننكر ما كتبته كتبنا ونطقنا به فى مجالسنا، وإذا صلّيْنا معهم فى مساجدهم صلّينا مثلَهم تقية. إن هذا النوع من التعامل ليس «تقية» بل إنه الكذب والخداع، وعلماؤنا لم يدربوا الشيعة عليها فحسب. بل اتخذوها شعاراً لهم. فمثلاً، وليس على السبيل الحصر، إن الشيعة الإمامية تعتقد أنَّ رسول الله بأمر من الله نص على استخلاف الإمام عليٍّ بعده، وبلغ أصحابه صراحة وعلنا، وأن الصحابة بعد وفاته خالفوا

النص الإلهى والنبوى، وبايعوا أبا بكر وعمر وعثمان رغما عن ذلك، وأن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا الإمام عليّ فى الخلافة غصبوا حق الإمام الشرعى علما وقصدا وتآمروا عليه، واشترك المسلمون معهم فى المؤامرة إلا نفر قليل، والإمام على بايعهم كرها وتقية، ولحفظ الإسلام من التصدع ولأمر إلهى صدر إليه عن طريق الرسول (ص) بالصبر والرضوخ لتلك المؤامرة.

هذه هى عقيدة الشيعة فى الإمامة، وقد دونتها آلاف الكتب الشيعية التى طبعت عبر التاريخ ويحفظها كل شيعى عن ظهر قلب. ثم يَعْقُب هذا الرأىَ سَبٌ وَشَتْم وتجريح لاحدود لها ولا حصر فى الخلفاء الذين سبقوا الإمام، وفى السيدة عائشة أم المؤمنين على وجه الخصوص لموقفها من الإمام فى واقعة الجمل. ولكن العالم الشيعى عندما يجلس بجانب العالم السنى، ويسأل عن هذا الأمر يكذب تكذيبا قاطعا ما تعتقدة الشيعة وتقوله فى الخلفاء والصحابة وأمهات المؤمنين، ويفرد القول إلى جُهّال الشيعة، ويتحدث بإجلال وإكبار عن الخلفاء الراشدين، ويترحم عليهم ويعدّهم من كبار الصحابة المبشرين بالجنة.

ومثلا وليس على وجه الحصر أيضاً فإن فقهاء الشيعة أجمعوا فى كتبهم الفقهية أن قول (آمين) فى الصلاة حرام والتكتف حرام والسجود على السجاد المصنوع من الصوف أو غير المشتق من الأرض أو الشجر مبطل للصلاة، والعدالة شرط فى الإمام الذى يؤم الناس. ومع ذلك إذا وجدوا انفسهم فى مساجد السنة صلوا معهم كما يصلون، وأجمع فقهاؤنا أن هذه الصلاة التى نصليها للتقية مُجْزِئة وصحيحة، بل هناك فتاوى فى استحباب الصلاة مع السنة للتحابب وجلب حبهم.

هذه هى الازدواجية التى درب فقهاؤنا ومشايخنا الشيعة عليها، وهم يتصفون بها

أيضاً فى الحالات الضرورية، فيا ترى لو كان التدريب الشيعى يتم على نمط آخر، وهو الشجاعة والإعزاز بالعقيدة والغروره والإباء وكان يصرح بمعتقداته بلاخوف ولا وجل، فهل كانت العلاقات السنية الشيعية ترى مثل هذه الأزمات القاتلة؟ أقول كلا وألف كلا، لماذا؟ لأن قبل كل شيء : النجاة فى الصدق، والصدق والصادق والصدوق من صفات المؤمنين، ثم ما فائدة كذب يمكن اكتشافه فى فترة دقائق أو سويعات، وذلك بقراءة صفحة واحدة من مئات الكتب المطبوعة لعلماء لهم مقام كبير لدى الشيعة مثل الكلينى والطوسى والمجلسى وغيرهم من أعاظم الكتاب والمؤلفين. ثم إن من الغباء أن نتصور أن الشيخ السنى لا علم له بما تحتويه كتبنا، وسكوته عما دونته تلك الكتب لا يزيدنا إلا خجلا، أما إذا ووجهنا بالحقيقة والمستندات فإنها تقع وقع الصاعقة فى نفوسنا إن كنا مؤمنين بعزتها وكرامتها.

وبعد كل هذا فإننا بهذه. لطريقة الشائنة نقلل من شأننا أمام الخصوم، ونعترف بالخضوع والحرج لعدم القدرة على بيان الحقيقة، ونثبت للخصوم أن اعتراضهم علينا حق وصحيح، وأن ما ينسب إلينا إنما هو عمل الجُهال، ولا حيلة لنا به وبذلك طعنا فى معتقداتنا، وأنكرنا مذهبنا، وخدعنا أنفسنا قبل أن نخدع غيرنا، استناداً على شيء اسمه «التقية» فمرحى للتقية مرحى!!

وأعود إلى الموضوع من جديد وأقول : ماذا كان يحدث لنا لو أننا عودنا الفرق الإسلامية أن يسمعوا منا الحقيقة ويروا فى أعمالنا الحقيقة أيضاً.

ما الذى كان يحدث لو قلنا لهم رأينا فى معتقداتنا، وفى الخلفاء والصحابة بالصراحة والوضوح الذى جاء فى كتبنا؟ وما الذى كان يحدث لو صلّينا فى مساجدهم

كما نصلى فى مساجدنا ساجدين على التربة الحسينية، ومنادين أشهد أن عليا ولى الله، وسابلى اليدين، وساكتين عن أداء «آمين»، أليسوا هم يصلون فى مساجدنا كما يصلون فى مساجدهم! نعم قد كان يحدث فى البداية حرج، ولكن الحرج كان يعقبه حوار طويل بنّاء يصل إلى نتيجة ترضى الطرفين، فكان السنة إما ان يرضخوا لعقائدنا كارهين أو يقبلون بها طائعين، وأما نحن فقد كنا نقبل بكلامهم، أو نرفضه وكل راضٍ عن قرينه وهو يقول :

«اختلاف الرأى لا يفسد فى الوُدّ قضية»

إن الحوار والبحث هما الاستمرار فى طريق العقل، ومن استمر فى هذا الطريق يصل إلى مبتغاه، أو يصل إلى حل يرضى المتخاصمين فى آخر المطاف. أما السكوت والإخفاء فى القول والعمل، فلا يزيد الطين إلا بلة. والعداء والحقد إلا اتساعاً، وكل واحد يترك صاحبه وهو يدعو الله أن لا يلتقى به ما بقى له من العمر.

وأخيرا، فإن من يحجب الحقيقة عن غيره لا يستطيع أن يكشفها لنفسه، ولكى لا يكتشف عوامنا الحقيقة، ولكى لا يخرجوا من الأسوار التى أحاطوهم بها، والسلاسل التى قيدوهم بها أوجبوا عليهم «التقية» فأخذوا يسيرون لوحدهم فى درب واحد لا نهاية له. فلوا أنهم فتحوا الطريق لغيرهم حتى يمشوا سواسية فى مناكبه لوصلوا إلى نهايته، وكل قد بلغ غايته.

إن الواجب علينا أن نربى أجيالنا على الشجاعة والجرأة فى بيان عقائدهم حتى يكتشفوا الحقيقة، ونخلق فيهم الغرور والاستعلاء عن الضعف والجبن، للدخول فى الحوار والأخذ والعطاء. أما تدريبهم على «التقية» والجبن والخوف، فإنه قتل

لشخصياتهم، وجعلهم مذبذبين، لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، وبذلك دمّرنا الأجيال التى عليها بناء مستقبل الطائفة مادياً وفكريا معا.

وأما ذلك التبرير الذى جاء فى كتب مشايخنا فى الدفاع عن «التقية» وانها واجبة لحفظ النفس، فإنه تموته للحقيقة، وإخفاء للحق، وإصرار على العزة بالإثم. فـ«التقية» التى نحن نتحدث عنها، وهى واجبة عندنا ليست «التقية» التى يفرضها العقل والدين على كل إنسان عندما يرى نفسه وعرضه وماله، وأمام خطر محتوم إذا جهرب الصندق والحقيقة. فعندما يداهم ظالم شرير مدينة للبحث عن أفاضل الناس لقتلهم، أو تعذيبهم يجب على أهل المدينة إخفاء الأفاضل وعدم البوح بأماكنهم، وذلك حقنا لدمائهم. وعندما يريد نظام شرير قتل مئات من الناس بسبب العقيدة والمذهب والرأى وهذه الفئة لا تستطيع أن تجابه وتقاتل ذلك النظام الشرير... فحينئذ يجب إخفاء العقيدة والمذهب حتى يحصل المخرج المناسب من بطش الظالم. فإن الشرع والعقل قد حرم الوقوع فى التهلكة إذا استطاع المرء أن يصون نفسه منها. إن إخفاء العقيدة والرأى حفظاً للنفس من الوقوع فى التهلكة ليس «التقية» بل هو دفاع عن النفس. والنبى موسى بن عمران أخفى عقيدته عن فرعون رهطا من الزمن حتى جاء دور التبليغ والإعلان، وفى إبان الدعوة المحمدية كان المسلمون الأوائل يخفون عقيدتهم عن المشركين خوفا من القتل والتعذيب. أما «التقية» التى نتحدث عنها فى المذهب الشيعى فشىء لا صلة له بهذه القاعدة فـ«التقية» فى مذهبنا تعنى سواء كنت ضعيفا أو قويا لا تجاهر بعقيدتك أمام السنة، واعمل كما يعملون، وتحدث كما يتحدثون، ثم احمل الروايات التى تنسب إلى أئمة الشيعة فى الأحكام الشرعية على نقيضها إذا كانت موافقة مع آراء السنة، استنادا إلى ما نسب إلى الإمام الصادق الذى نسبوا إليه هذا القول :

«الرشد فى خلافهم» !

أو ما نسب إليه من القول :

«خذ ما خالف العامة» ! - أى عامة المسلمين -

وهذه التقية فى التفسية الشيعية تجاوزت المماشاة مع السنة. بل أصبحت فى ضمن العمل اليومى فى التعامل مع السلطة الحاكمة سواء كانت شيعية إو سنية. وفى إيران فقد خضعت الشيعة للأنظمة الاستبدادية الشيعية عبر التاريخ، ونفذت أوامر الطغاة خلافا لمرضاة الله وأوامره، متذرعة بوجوب «التقية». وفى غير إيران خضعت الشيعة خضوعا تاما لكل ما صدر إليها من أوامر وأحكام من الأنظمة الاستبدادية المتعاقبة، منذ أن فرض ولاة الفقه «التقية» على الشيعة باسم الواجب الدينى، وهم بذلك راضون وفرحون. والنفس الإنسانية دائما ترغب فى السير وراء ما يريحها ويسكّنها ويعفيها من الخوض فى الأخطار، وهكذا جاءت «التقية» لتريح الشيعة والقابضين على السلطة الدينية معا من مواجهة الظلم والظالمين لينعما فى أمان وسلام.

وأما الآية التى يستدلون بها فى وجوب «التقية» فهى الآية الكريم :

(لاَ يَتَّخذ المُؤمنونَ الكفرينَ أوْليآءَ من دُون المُؤمنينَ وَمَن يَفعَلْ ذلكَ فَلَيْسَ منَ الله فِى شىْءٍ إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنهُمْ تقَةً وَيحذِّركُمُ اللهُ نَفسَهُ وَإلَى الله المَصيرا)[1].

لقد أخرج ابن جرير من طريق سعيد عن ابن عباس، قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الانصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد خيثمة لاؤلئك النفر

١- آل عمران : ٢٨

سد باب الاجتهاد

الصلة بين سد باب الاجتهاد وتطويق الغيبة :

لماذا سُدَّ باب الاجتهاد فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وفى السنوت التى تلت تطويق الغيبة؟؟!

هل هناك صلة مباشرة بين هذين الحدثين الخطيرين اللذين ما زالت آثارهما السيئة والمباشرة على حياة الأمة الإسلامية مستمرةً إلى يومنا هذا؟ أم أن ذلك حدث بالمصادفة، ولكن للغاية نفسها؟!

إنى أعتقد أن سد باب الاجتهاد وحَمْل المسلمين على الأخذ بفتوى أحد المذاهب الأربعة، المالكى أو الحنفى أو الشافعى أو الحنبلى حدث بعد أن طوقت الغيبة، وأخذ مذهب الإمام الصادق - الذى كان هو المذهب السائد والشائع بين المسلمين يتراجع بسبب الروايات الغريبة التى ألصقوها بالإمام الصادق، وأيدتها مشايخ الشيعة، بل ذكروها فى كتبهم، مماشاة مع السياسة العباسية التى كانت تهدف إلى إنهاء الشيعة فكرياً وعملياً. ففى هذا العصر على وجه التحديد دخلت فكرة «التقية» و«المتعة» و«الجمع بين الإمامة والخلافة» و«تجريح السلف الصالح» وإعطاء الإمام صفات «العصمة والإلهام» و«مصدر التشريع» و«علم الغيب» و«الغلو» بالنسبة للأئمة والصلحاء و«ترك صلاة الجمعة» و«الجمع بين أوقات الصلوات» فى عقيدتنا نحن الشيعة الإمامية. وأضيف إلى العقيدة بدعة «وجوب تبعية المشايخ» بصفتهم نواب الإمام، تبعية مطلقة تصل إلى حد العبودية. وعلى ضوء هذه التبعية استطاعت الخلافة العباسية والبويهيون الحاكمون

الأعاجم الجدد السيطرة على الشيعة بسبب السيطرة على زعمائهم ومراجعهم، الذين أوجبوا «التقية» على الشيعة للحد من المجابهة التى كانت مستمرة بين المعارضة ونظام الخلفاء.

وبعد أن تحققت السيطرة على الشيعة كانت السياسة الأساسية تهدف إلى السيطرة على الأكثرية الإسلامية وهم السنة، وهذا الأمر لم يكن يتحقق إلا بسَدّ باب الاجتهاد. ولماذا؟ وما هى العلاقة والصلة بين سد باب الاجتهاد واستمرار التحكم فى رقاب الأمة؟ نحن نجيب على هذا السؤال ونقول :

لأول مرة فى تاريخ الفكر والفقه الإسلامى، والصراع المستمر بين الحاكمين والمحكومين، أو الراعى والراعية، أو الحاكم والرعية، أو أولى الأمر والأمة، نكشف هذا السر الذى خَفِيَ على المسلمين ألفَ عام ولم ينتبه إليه أحد من الكتّاب والمؤرخين والفقهاء والعلماء، وحتى فلاسفة الإسلام الذين وضعوا تحت المجهر قضايا كثيرة تخص العقيدة والفقه الإسلامى، ولسوف يدهش كشف هذا السر الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها.

إننى أكرر هنا ما قلته فى صفحات سابقة، وهو أن التشريعات الإسلامية تشمل كَلّ مرافق الحياة. فهى تشريعات أخلاقية وعبادية وأحكام شخصية كالزواج والميراث والمعاملات والتجارة والمزارعة والمساقاة، وهكذا فيها أحكام تخص القصاص والديّات، كما أن فيها أحكاما اجتماعية وسياسية تخص نظام الحكم وواجبات الأمة فى القيام بالمسئوليات الملقاة على عاتقها كالعمل بالشورى واختيار الحاكم، وتضمين العدالة الاجتماعية، ونظام بيت المال والضمان الاجتماعى، وحقوق الحاكم من أموال الأمة وواجباته وصلاحياته، إلى ما هنالك من الأنظمة التى سنها الإسلام لتثبيت الحكم

العادل، على ضوء كتاب الله وسنة رسوله، والسيرة التى كان يسير عليها الخلفاء الراشدون فى عهد الأمة الرشيدة، والتى سار المسلمون عليها إلى أن استولى معاوية على الخلافة، وحذف الجناح العملى والسياسى ونظام الحكم فى الإسلام. وكما قلنا ظهرت هذه السياسة بوضوح فى خطب الجمعة فى المساجد، وأصبحت تلك الخطب تدور حول محور واحد، وهو الأعمال الشرعية والأخلاقية، وبذلك أصبح التبليغ الإسلامى محصورا فى بوتقة واحدة فى عهد معاوية، وكان لا بد للفقهاء أن يسلكوا طريق خطباء المساجد ويركزوا على الفقه التشريعى والعبادى والأخلاقى، ويغضوا النظر عن الجانب السياسى وما يتعلق بدقة الحكم ونظام الشورى. فمن مالك بن أنس وموطئه حتى أبى حنيفة وآرائه، والشافعى وكتابه المسمى «الأم» وأحمد بن حنبل ومسنده، وهم الأئمة الأربعة الذين إليهم ينتمى أصحاب المذاهب الإسلامية الكبرى، فإننا لا نجد كلمة واحدة فى كتبهم عن الجناح الثانى الذى هدمه معاوية، وهو تضمين القيم الانسانية فى ظل نظام عادل يظله القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح والشورى والعدالة، وسيادة الأمة فى الساحة كأمة آمرة مطاعة.

نعم دونوا الأحاديث النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وسيرة السلف الصالح. لكنهم لم يستخرجوا منها حكما فقهيا أو اجتماعيا، ولم يوضحوا الأسس التى يجب أن يسير عليها المسلمون فى شئونهم السياسية والاجتماعية، بل تركوا الحبل على الغارب. لقد أرخوا حياة الأمة ولم يسخرجوا منها ما كان المسلمون بحاجة إليه، لأن الخوض فى ذلك كان يضر بالنظام الأموى والعباسى، لذلك فإن الكتب الفقهية التى ألفت منذ ذلك العصر حتى يومنا هذا، سواء كان الفقيه المؤلف سنيا أم شيعيا، فكلها تسير فى خط واحد وهو العبادت، ثم المعاملات والزكاة، وبعدها الديات والقصاص والحج ثم تنتهى أحكام الإسلام.

إن هذا النمط فى تدوين الكتب الفقهية وبيان المسائل الشرعية التى لم تضر بالخلافة الحاكمة كان يجب أن يستمر، وهذا الأمر لم يتحقق إلا بسد باب الاجتهاد وتوقف عجلة الفكر الفقهى والبحث العلمى، حتى تستمر حياة الأمة الإسلامية على نمط واحد فى التفكير والعمل، وأن لا يكون هناك تجديد أو رأى جديد يضر مصالح النظام الحاكم.

إن فكرة سَدّ باب الاجتهاد وحَمْل الأمة الإسلامية على تقليد مذاهب خاصة، وعدم فتح المجال للعقول الإسلامية النيرة الأخرى، أن تواكب عملية التجديد والابتكار، كانت من أخطر الصدمات التى حلت بالأمة الإسلامية، والتى أوقفت عجلة الفكر والرقى الفقهى وأوقفت مسيرة الاجتهاد التى شجعها رسول الله (ص) وحثها إلى تلك الدرجة الرفيعة الذى قال فيه : «من أخطأ فيه فله اجر واحد».

إن سد باب الاجتهاد كان مؤامرة كبرى ضد الأمة الإسلامية لمصلحة الخلافتين الأموية والعباسية، لم ينتبه إليها المسلمون لا فى ماضيهم ولا فى حاضرهم، ولذلك استمرا لمسلمون فى تقليدهم للمذاهب الإسلامية المعروفة حتى يبقى القديم على قدمه.

أما الاجتهاد عندنا نحن الشيعة فقصته حزينة أيضا، رغم الادعاء بأن باب الاجتهاد مفتوح عندنا. إلا أن الصلة الزمنية بين سد باب الاجتهاد عند السُّنة وتطويق الغيبة عندنا فى عصر متزامن، يوضح ما نحن بصدد بيانه.

إن فقهنا نحن الشيعة الإمامية الذى ينبنى على فقه الإمام الصادق الذى يطلق عليه اسم «الفقه الجعفرى» كان هو الفقه الذى سار عليه المسلمون حتى أوائل القرن الرابع الهجرى، وهذا هو الفقه الوحيد الذى يتضمن آراء جريئة تتعلق بنمط حياة المسلمين فى مسيرتهم الدينية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية. فقه أئمة المسلمين الذين

أطلق عليهم فيما بعد أئمة الشيعة، وعلى الخصوص فقه الإمام الصادق، كان عملا فقهيا اجتهاديا له آثاره المباشرة على حياة المسلمين، ومع أن المدارس الفقهية الأخرى، ولا سيما تلك المدارس الأربعة الكبيرة وجدت فى عصر أئمة أهل البيت، إلا أنها كانت كما قلنا مطوقة بطوق الخلافة العباسية، فكانت منطوية على الأحكام الشرعية والفقهية التى كان المسلمون بحاجة إليها فى أعمالهم العبادية فقط. نعم كانت تتضمن أحكام الإرث والقصاص والديات والتجاره والأحوال الشخصية إلى القَدْر الذى لم يضر بسياسة الخلافة الحاكمة. أما مدرسة أهل البيت الفقهية فقد كانت تتجاوز الحدود التى رسمتها الخلافة الحاكمة لغيرها من المدارس، ولذلك نقرأ فى الكتب التى دونت آراء أئمة أهل البيت ولا سيما آراء الإمام الصادق، آراء جريئة فى كيفية مقارعة الظلم والظالم، ودحر الأنظمة الغاصبة المستولية على رقاب الأمة، ولذلك كانت عيون الخلافة تراقب أئمة أهل البيت، وتجر عليهم المحن بعض الأحيان، إلا أن مقامهم الرفيع عند المسلمين كان يحفظهم من الأذى بعض الوقت، نستثنى منهم الإمام الحسين الذى استشهد فى المواجهة مع يزيد بن معاوية، والإمام موسى بن جعفر الذى قُتل بأمر هارون الرشيد فى سجن بغداد. ولذلك فإن أبا حنيفة الذى كان معروفا بتلمذته على الإمام الصادق سجن وعذّب بتهمة الدعوة إلى أهل البيت، وضُرب ضربا مبرحا كاد يؤدى بحياته، وهو أول فقية كبير يُعذّب فى سبيل علاقته بأئمة الشيعة.

وبما أن مدرسة أهل البيت كانت هى المهيمنة على المسلمين حتى عهد «تطويق الغيبة» ، ولم يكن هناك بديل هام عن تلك المدرسة، فلذلك لم يكن هناك اتجاه فى سد باب الاجتهاد، وتبنى المدارس الفقهية التى كانت بالاستطاعة جعلها بديلا عن مدرسة أهل البيت. إن وجود الأئمة فى الساحة كان يمنع القيام بهذا الأمر، وسد باب الاجتهاد الذى فرض على المسلمين بعد «تطويق الغيبة» وإنهاء وجود الإمام المهدى من الساحة، مضافا إليه نسبة الآراء الشاذة والغريبة التى نسبت إلى أئمة الشيعة، وعلى الخصوص

الإمام الصادق، كان السبب فى إقبال الناس على المدارس الفقهية الجديدة، ومن ثم كانت السياسة تقضى سد باب الاجتهاد على المسلمين لكى لا يأتى أحد بشىء جديد ما دامت السموات والأرض. أما فتح باب الاجتهاد عندنا نحن الشيعة فهو فى الحقيقة تقليد لآراء الإمام الصادق مضافا إلى ذلك الاعتقاد بالآراء الغريبة التى نسبت إلى الإمام بمؤامرة عباسية، وقد أشرنا إلى بعضها فى صدر هذا الكتاب، وهذه هى المصيبة الكبرى والمحنه العظمى، فلو كان العمل برأى الإمام الصادق يحدث كما كان يحدث فى عصره، أى العمل بآرائه الخالصة، ونبذ الآراء التى كان الأعداء ينسبونها إليه، وقد كذبها هو فى حياته مرارا وتكرارا، لبقينا نحن الشيعة بل الأمة الإسلامية بألف خير، غير أنه بعد «تطويق الغيبة» أصبح الاجتهاد الشيعى ليس أكثر من تقليد لكل ما ينسب إلى الإمام الصادق وأئمة أهل البيت، وبذلك أصبح الاجتهاد الشيعى يعنى التقليد وليس التجديد. نعم هناك اجتهاد فى تفسير كلام الإمام ومحور العمل الاجتهادى عند فقهاء الشيعة هو فى المسائل التى لا نص فيها من الكتاب أو السنة أو كلام الإمام، وبذلك جعلوا رأى الإمام مرادفا للكتاب والسنة. فنحن الشيعة أيضاً نقلد الإمام الصادق، كما يقلد الأحناف أبا حنيفة والشوافع محمد بن إدريس الشافعى، والبُعد بين هذا النمط فى الطريقة الفقهية والاجتهاد بُعد المشرقين.

إن العملية الاجتهادية الحقيقية هى فى الوقت الحاضر تنحصر عند فقهاء السلفية، غير أن جمود الفكر، وعدم استعمال العقل عند بعض فقهاء هذه الفئة جعل من اجتهادهم عملا مطوقا بجدران من التحجر والجمود، يتناقض مع التجديد وعملية التطوير التى خلق الله سنته عليها فى خلق العباد والبلاد. ونختم هذا الفصل بما قاله الإمام على عليه السلام:

«أدّبوا اولادكم لزمانهم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم»

«المتعة» - الزواج المؤقت

«إفساد النسل والحرث»

إن الزواج االمؤقت والذى يسمى بـ«المتعة» كان عادة جاهلية مثله شرب الخمر، لذا فقد حرّمه الإسلام، كما حرم الخمر. وقد حرمت «المتعة» فى غزوة خيبر، ولم يكن معمولا بها، بعد عصر التحريم. سواء فى عهد الخلفاء الراشدين أو فى عهد أئمة أهل البيت.

وعندما طُوِّقتْ الغيبة فى عام ٣٢٩ هجرية أرادت الخلافة العباسية أن تنهى وجود المعارضة التى سميت بالشيعة، فجاءتها من أدق وأخطر أماكنها وحالاتها الاجتماعية والأخلاقية، فأرادت إفساد النسل والحرث معا، وإنهاء شرف الأمهات اللواتى كن يربين وينجبن صناديد وأشبال يقاومون النظام الاستبدادى العباسى، كالأسد الهصور، ثم كان الغرض منه الطعن فى شرف الشيعة وإنهاء عزة النفس لديهم أمام الآخرين. فكانت «المتعة» خير وسيلة للتهديم.

والمؤسف المحزن معا أن الذى تبنى هذه البدعة الرخيصة فى ذلك العصر هم مشايخ الشيعة، بتواطؤ مع الخلافة العباسية الحاكمة، وبمباركة البويهيين الأعاجم، مما كان يمنحهم الحق فى الحفاظ على مئات السرارى والنسوة فى قصورهم بذريعة المتعة وإباحتها، وجواز العمل بها باسم الدين، واستمرت «المتعة» تنتهك شرف الأمهات فى بعض المناطق الشيعية، إلى يومنا هذا.

وفى إيران الملالى اليوم أسست بيوت اسمها «كوثر» أو بالأحرى الدعارة الشرعية،

يشرف على كل واحدة منها أحد الملالى، مهمته الجمع بين الرجال والنساء باسم «المتعة» وبذريعة أن هذا الأمر ضرورى، كى يعرف الرجل المرأة كلّ منهما الآخر مقدمة للزواج الدائم.

ولا شك أن «المتعة» لها رواج فى البلاد الشيعية غير العربية، أما فى المناطق الشيعية العربية فإن النخوة العربية تقف دون ذلك. ولست أدرى ما هى الحالة فى باكستان والهند والمناطق الشيعية الأخرى.

ومع أننى لا أرغب الدخول فى مجادلة فقهية حول «المتعة» فقد بحثتها بصورة تفصيلية فى كتبى التصحيحية[1]، إلاّ أننى أشير إلى شرائط «المتعة» وكيفية تحققها كى يعرف الشيعة قبل غيرهم خطر المؤامرة التى فرضت عليهم باسم «المتعة» والتى أسميها أنا «البغاء الشرعى».

١- تتحقق المتعة بكلمة متعّت موكلتى لنفسى بعد أن تقبل المرأة المسكينة بهذا الزواج المنقطع.

٢- يجوز أن تكون المدة لساعة أو أقل منها أو سنة أو أكثر حسب السّلعة والرغبة والطلب.

٣- يقع الفسخ بإجراء كلمة «فَسَخْتُ» لا «طلّقت» بدون حضور شاهد. كما أن إجراء صيغة «المتعة» أيضا لا يحتاج أن يكون فى حضور شاهد.

١- كتاب «الشيعة والتصحيح» وكتاب «عقائد الشيعة الإمامية فى عصر الأئمة وبعدهم».

٤- يقدم للمرأة مبلغا باسم أجرة المثل حسب الشروط بينها وبين الرجل، وقد يكون درهما أو أقل منه أو أكثر.

٥- لا يجب على الرجل نفقة المرأة فى المدة التى هى بعهدته مثل الإكساء أو الإعاشة أو الإسكان، كما يجب فى الزواج الدائم.

٦- لا ترث المرأة من الرجل إذا مات عنها في مدة هذا الارتباط، بعكس الزواج الدائم الذى ترث به المرأة زوجها بعد وفاته.

٧- يستطيع الرجل أن يجمع بعدد غير محدود من النساء حسب إمكانيته وقدرته يمتعهن فى وقت واحد وتحت سقف واحد إذا أراد أو استطاع ذلك.

٨- عِدَّة الفسخ فى «المتعة» ٤٥ يوما، أما عِدّة الطلاق فثلاثة أشهر للتى وصلت سِن اليأس أو التى لاتحيض أو ثلاثة قُروء - أو وضع الحمل، كما جاء فى الدستور - القرآن الكريم فى سورة الطلاق فى الآية الرابعة.

فأين من كل هذا حقوق الإنسان التى ساوى الإسلام فيها بين الرجل والمرأة، وخصوصا اهتمام الإسلام بحقوق المرأة التى كانت مسلوبة الإرادة والكرامة قبل مجيئه، فى شتى إنحاء الأرض دون استثناء، والتى ضمن لها الله فى كتابه العزيز حياة كريمة وسعيدة ومتكافئة مع الرجل فى بوتقة الزواج الشرعى لحمايتها اجتماعيا وماديا.

وهنا أريد أن أشير إلى مؤامرة خطيرة لم ينتبه إليها أحد، وهو أن الروايات التى يستند الشيعة عليها من أن «المتعة» لم تُحَرَّم فى عهد رسول الله، وإنما حَرَّمها الخليفة عمر بن الخطاب! إن هذه الروايات نقرؤها فى الكتب الشيعية وحتى فى بعض كتب الصحاح

مثل مسند أحمد بن حنبل، حيث إن هذا الأخير أخرج فى مسنده أحاديث متناقضة عن «المتعة» فيروى عن ابن عباس تارة أنه قال، كنا نمتع على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر حتى حرمها هذا الأخير، ويقول فى روايات أخرى إن «المتعة» حرمت فى غزوة خيبر، ونها عنها رسول الله (ص). إن هذه الأخبار المتناقضة ودخولها فى بعض كتب الصحاح تدل دلالة واضحة على أن خصوم الشيعة كانوا أذكياء بحيث أرادوا أن يعطوا دَفْعَةً كبرى لجواز المتعة. وذلك بإدخال مثل هذه الأحاديث فى كتب الخصم حتى تتخذ دليلا يستدل عليها فى جوازه، أو بالأحرى إرغام السذج من الشيعة وغير السذج منهم على قبولها أو العمل بها.

وأخيرا أنصح أولئك الذين يُفتون بجواز المتعة وأقصد بهم مشايخنا الذين دونوا فى كتبهم صفحاتٍ وصفحاتٍ فى فضل «المتعة» أن يفكروا مليًا ويتصوروا قليلا لو أن مائة شاب يافع وقف على باب بيت كل واحد منهم يطلب الزواج من ابنته أو اخته أو أمه الشيبة لساعة أو يوم أو بعض يوم، ثم إذا قضى كل واحد منهم منهن وطرا، فهل يستمرون فيما هم عليه من جواز المتعة أم يصبحوا لها كارهون!

وقد يكون من نافلة القول أن نثبت هنا ما ذهبنا إليه قبل قليل من التناقض الموجود فى مسند أحمد بن حنبل عن «المتعة» فإنه خير شاهد على عبث الخلافة العباسية ومن سار على حذوهم فى كتب الصحاح، كى يدفعوا عجلة «المتعة» إلى الأمام، فقد أخرج أحمد بن حنبل فى مسنده فى صفحة ٥٠ من المجلد الأول طبعة دار الفكر:

١- إن أبا موسى الاشعرى كان يفتى بـ «المتعة» فقال له رجل رويدك ببعض فتياك، فإنك لا تدرى ما أحدث أمير المؤمنين فى النسك بعدك، حتى لقيه بعد فسأله - «أى سأل عمر بن الخطاب» - فقال عمر رضى الله عنه: قد علمت

أن النبى (ص) قد فعله وأصحابه، ولكنى كرهت أن يضلوا بهن معرسين فى الآراك ثم يروحون بالحج تقطر رءوسهم.

٢- وفى صفحة ٥٢ عن ابن نظرة قال: قلت لجابر بن عبد الله إن ابن الزبير ينّهَى عن «المتعة» وإن ابن عباس يأمر بها قال: فقال لى على يدى جرى الحديث، تمتعنا مع رسول الله (ص)، قال: عفان ومع أبى بكر فلما ولى عمر رضى الله خطب الناس فقال: إن القرآن هو القرآن وإن رسول الله (ص) هو الرسول، وأنهما كانتا متعتان على عهد رسول الله إحداهما متعة الحج والأخرى متعة النساء.

٣- وأخرج أحمد بن حنبل فى مسنده ايضا فى صفحة ١٠٢ عن محمد بن ابى بكر عن عبد الله محمد بن علي عن على عن على رضى الله عنه إن النبى نَهَى يوم خيبر عن «المتعة» وعن لحوم الحمر.

وهكذا فإن أحمد حنبل فى مسنده يورد أحاديث متناقضة عن أجلاء الصحابة، فابن عباس يفتى بجوار «المتعة» والإمام على يفتى بحرمتها وابن الزبير يقف مع الإمام على فى خندق واحد.

وها أنا أنهى هذا الفصل متسائلا: ماذا تعنى هذه الأحاديث المتناقضة التى يذكرها أحد مراجع الصحاح التى هى مراجع المسلمين جميعا، وهل كان باستطاعة الخليفة حتى ولو كان عمر بن الخطاب أن يحرم على المسلمين أمراً أحلّه الإسلام وفى الأمة صحابة مثل على وعباس وطلحة وزبير وعثمان وسلمان ومقداد وأبو ذر وسائر الأعاظم من صحابة رسول الله (ص) وهم يسكتون على هذا الأمر ويرضخون له. إنه والله من سذاجتنا نحن المسلمين أننا أسلمنا عقولنا وأفئدتنا إلى كتبٍ دوّنت فى ظلام الليل الدامس.

فقه أهل البيت

فقه أهل البيت يتراجع :

إذا أردنا أن نعرف أهمية وموقع فقه أهل البيت فى المجتمع الإسلامى حتى أوائل القرن الرابع الهجرى، علينا أن نمعن النظر بدقة فيما قاله الإمام الشافعى نظما فى فقه أهل البيت، والشافعى هو رئيس إحدى المذاهب الإسلامية الكبرى، وقد ولد فى عام ١٥٠ هـ. وتوفى عام ٢٠٤ . نظم هذا الإمام الكبير فى أئمة أهل البيت الأبيات التالية:

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم
مذاهبهم فى أبحر الغى والجهلِ
ركبت على اسم الله فى السفن النجا
وهم أهل بيت المصطفى خاتَمِ الرسلِ
مَسَكنَا بحبل الله وهو ولاؤهم
كما قد أمِرْنا بالتمسك بالحبلِ
إذا افترقت فى الدين سبعون فِرقةً
ونيفا كما قد صح فى محكم النقلِ
ولم يَكُ ناجٍ منهم غيرَ فِرقةٍ
فقل لى بها يا ذا الرجاحة والعقلِ

أفي فِرَقِ الهلاك آل محمد

أم الفرقة اللاتى نجت منهم قل لى

فإن قُلتَ فى الناجين فالقولُ واحد

وإن قلت فى الهُلاَّك حفت عن القولِ

إذا كان مولى القوم فيهم فإننى

رضيت بهم ما زال فى ظلِّهم ظلّى

فخلى علياً لى إماما ونسله

وأنت من الباقين فى سائر الحلّ

إن هذا الاعتراف الصريح من أحد أئمة الفقه الذى يُرجع إليه ملايين المسلمين منذ قرون وقرون يثبت بصورة لا شك فيها ولا جدال أن نظرتنا فى الإمامة والخلافة إنما هى نظرة ثاقبة. فالإمامة «القيادة الروحية» كانت تعنى ما يقصده الشافعى ويصرح به، والخلافة كانت تعنى تلك «القيادة السياسية» التى دأب السلف الصالح على ممارستها بالشورى، ثم انتهت واختفت على يد معاوية، الذى جعلها ملكا عضوضا، ثم إنه دليل أكيد على أن الفقه المسيطر على الأمة الإسلامية والذى كان المسلمون يسيرون على ضوئه إنما كان فقه أهل البيت، وليس هذا الأمر بغريب ولا كثير على أهل بيت النبوة وموضع الرسالة، ففى بيتهم نزل الكتاب، وإلى جَدهُم بُعِثَ الروحُ الأمين، فتلقوا العلم والدين كابراً عن كابر، وعندما طوقت الغيبة، وانتهى دور الإمامة والقيادة الروحية بمؤامرة عباسية بويهية، انضم إلى المتآمرين رجال من الشيعة لطمس معالم فقه أهل البيت، وجعلها مغايرة مع رغبة الأكثرية الإسلامية، وقد تحقق هذ الأمر فى إدخال البدع

والتجاويف التى أضيفت إلى عقائد الشيعة ودخلت فى كتبهم منذ ذلك الحين، وإننا قد أسهبنا البحث فيها فى كتبنا التصحيحية، ولا داعى لتكرارها. نعم إن هذه البدع دخلت بتآمر البويهين، وكثير منها دخل بتآمر من الصفويين وولاة الفقه معا، والتى استمر العمل والاعتقاد بها إلى يومنا هذا.

ولذلك فنحن لا نرى غرابة أن يتراجع فقه أهل البيت منذ أوائل القرن الرابع الهجرى، ويحل محله فقه المذاهب الأربعة الذى هو الفقه السائد على ٨٥ بالمائة من مسلمى العالم.

ولم تكن السياسة التى اتبعتها الخلافة العباسية والمتعاونون معها فى القضاء على فقه أهل البيت بإدخال البدع فى الروايات التى نسبت إلى أئمتنا، بل إنهم أعلنوا تبنّيهم الصريح لتلك المذاهب الأربعة، وأعطوا لها الصدارة، وأغفلوا المذهب الجعفرى الإمامى، وفى كثير من الأحيان، أبَوا ذكر الفقه الجعفرى، أو الفقه الإمامى إلا بكلمة فقه الروافض، وهذا الاصطلاح معمول به حتى هذه اللحظة التى أخط بها صفحات هذا الكتاب.

وقبل أن نعدد البدع التى أدخلت فى عقيدتنا بكل اختصار، ونسبت إلى أئمتنا، وكانت السبب فى تراجع مذهب أهل البيت ليحلّ محله المذاهب الأربعة الأخرى، أود أن أقف وقفةً قصيرة أمام تسمية االشيعة بالرافضة. إن هذه التسمية ظهرت تماما فى عصر الجمع بين الخلافة والإمامة. لقد كانت تلك الكلمة تعنى أن الشيعة رفضوا بيعة الخلفاء الراشدين، وكانت التسمية هذه تكفى لخلق ذلك الحاجز الذى كانت الخلافة الحاكمة بحاجة إليه، وإيجاد الفُرقة بين الأمة الواحدة، وإذا ما نظرنا بدقة وإمعان إلى تسمية الشيعة بالرافضة فنحن نستطيع ان نجزم بأن الغرض منها لم يكن إلا التشهير

وإيجاد الفرقة، لأن الشيعة الذين ظهروا على مسرح الأحداث الإسلامية بهذا الاسم، بعد أن انتهى عصر الخلافة الراشدة، لا يجوز تسميتهم شرعا وفقها ولغويا وتاريخيا وفكريا بأنهم الفئة التى رفضت بيعة الخلفاء. لأنهم وجدوا بعد عصر الخلفاء الراشدين، ثم إن الإمام على، وهو الإمام الأول للشيعة قد بايع الخلفاء ولم يحدث هناك شىء اسمه الرفض.

فإذا لُقِبت الشيعة بالرافضة إنما كان الغرض سياسى خبيث كله فى مصلحة الحكام المستبدين.

أما البدع التى أدخلت فى مذهبنا منذ ذلك التاريخ، وقد أشرنا إلى بعضها بشىء من التفصيل مثل «التقية» و«المتعة» و«العصمة والإلهام» غير أن الضرورة تملى علينا الإشارة إلى البدع والتجاويف الأخرى التى نحن بصدد بيانها إكمالا للبحث، وبكل اختصار:

١ - الخمس :

إن آية الخمس التى نزلت فى غنائم الحرب، وهى صريحة واضحة يفهم مدلولها كل من يعرف لغة الضاد وهى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى وَاليَتَمى وَالمَسكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَومَ الفُرْقَانِ...)[1].

والتى نزلت فى غنائم الحرب، فُسِّرت بعد عصر التطويق بأنها تشمل أرباح المكاسب، ولقد كان هذا التفسير من أهم الأسباب التى أحكمت «تطويق الغيبة» ودفع

علماء الشيعة على تقسيم الغنائم، التى كانت تترتب على التطويق. ولا شك أن الخلافة العباسية التى أخذت تتبنى فقهاء المذهب السنى، وتصرف عليهم الأموال الباهظة كانت ترغب تماما فى الخلاص من ميزانية فقهاء المذاهب الجعفرى، وجعل هذه الميزانية على عاتق الشيعة، بدلا من أن تقوم هى بها، وحتى البويهيين الذين كانوا من الشيعة، كانوا يسيرون نحو هذه السياسة، ولاشك أن الفتاوى التى أفتى بها فقهاؤنا أن الخمس من أرباح المكاسب، الذى هو حق للإمام الغائب، ويجب أن يصل إلى يد نوابه العامين، ومن لم يدفع هذه الحقوق الشرعية، فلا تصح صلاته فى بيته، ولا يصح حَجُّه، قد أحكم طوق الزعامة والسيطرة على الشيعة منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا.

والدور الذى لعبته الحقوق الشرعية التى كانت تعطى للمجتهدين حتى هذه اللحظة كان من أسوأ الأدوار التى أبقت الشيعة على الاستمرار فى بدعها وموالاتها لأناس استغلوها، وسيطروا عليها ماديا وروحيا إلى درجة لا يصدقها العقل بسهولة.

إن الزعامات الشيعية بنيت على صرح الحقوق الشرعية التى تنبع من الخمس فى أرباح المكاسب، وهذا الخمس يعطى إلى المجتهد مع تقبيل ليده، والجلوس أمامه جلسة العبد.

والغريب فى الأمر أن هذه الآية لم تفسر على خلاف منطوقها فحسب، بل أجرى تحوير خطير على كل بنودها، فالآية صريحة فى أن الخمس يُوزع على ستة اقسام :- قسم لله، وقسم لرسوله، وقسم لذوى القربى. وهذه الأقسام الثلاثة يكاد فقهاء الشيعة يُجمعون على أنها من حِصّة الإمام المهدى عليه السلام، واسمها فى العرف الدارج فى

١- الأنفال : ٤١

أورقة مراجع الشيعة «سهم الإمام». ثم هناك ثلاث حصص أخرى صريحة فى أنهاء لليتامى والمساكين وابن السبيل. وليس هناك أى دليل على أن الغرض من اليتامى والمساكين وابن السبيل إنما هم المنحدرون من صلب رسول الله (ص) وأولاده، بل هناك فى الآية تخصيص لآل الرسول بتحديد كلمة ذوى القربى، لكن مع كل هذا يفتى فقهاؤنا بأن هذه الحصص الثلاث تعود لفقراء أهل البيت، وليس لفقراء المسلمين، وكأنهم أرادوا بذلك أن يضيقوا دائرة المستحقين للخمس، كى يسهل عليهم استقطاب المنتفعين منه فى صفوفهم، كما أن هناك سبب نفسى، وهو استغلال عواطف المسلمين نحو أولاد الرسول (ص)، وبذلك يسهل التحكم فى رقاب الأمة ماديا، ما دام ينتفع منه الفقراء من أولاد رسول الله (ص).

٢- الشهادة الثالثة :

الشهادة الثالثة وهى إضافة «اشهد أن علياً ولى الله» أذان الصلوات، دخلت فى المجتمع الشيعى، منذ أن أدخل الشاه إسماعيل الصفوى شعب إيران بحد السيف فى االتشيع، وذلك فى أواخر القرن العاشر الهجرى، وبذلك أعطى بُعْداً جديداً للمذهب الشيعى، ومن هنا نستطيع أن نعرف ذلك الحلف القوى بين ولاة الفقه عن هذه البدعة، بل إنهم ساروا عليها وأمروا المؤذنين فى مساجدهم بإضافة هذا البند إلى الأذان الذى سنّه رسول الله فى عصره وسار عليه المسلمون قرونا وقرونا، والغريب فى الأمر أن فقهاءنا جُمعون على أن مَنْ أدى الشهادة الثالثة بقصد الورود أى أنها وردت عن صاحب الشريعة — حرام وحرام، إلا أنهم يؤدونها فى صلواتهم، ويصرون عليها قائلين، إن الأذان ليس جزءاً من الصلاة لذا يجوز إضافة هذه الجملة فيه.

ومن نافلة القول أن نضيف هنا ما كتبه المؤرخون، من أن الشاه اسماعيل الصفوى ارتكب مجزرة كبرى فى اليوم الذى أمر بإضافة الشهادة الثالة فى الأذان، فقد تظاهر أهالى مدينة تبريز عاصمة الشاه على هذا الأمر فأمر جيشه المعروف بـ «قز الباش» بالقضاء على المتظاهرين، فتجاوز عدد الضحايا عشرين ألف شخص وفى ذلك اليوم أمر بِسَبّ الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان على المنابر وفى المعابر، مما زاد فى حدة التظاهرات التى قمعها بالسيف. إن مجزرة تبريز حدثت يوم تتويج الشاه رسميا فى عام ٩٠٧ هجرى، وكان للشاه إسماعيل من العمر آنذاك خمسة عشر عاما.

٣ - السجود على التربة الحسينية :

إن السجود على التربة الحسينية التى هى السيرة التى يسير عليها الشيعة فى مساجدهم وبيوتهم أيضاً، أصبحت من ممارسات الشيعة منذ أن دخلت إيران فى التشيع، فكان الشاه إسماعيل والملوك الصفويين يجهزون القوافل الإيرانية لزيادة الإمام الحسين فى كربلاء، وكانت الشيعة تعود إلى مناطقها وهى تحمل معه تراب كربلاء للتبرك والاستشفاء، ولا شك أن الحديث المروى عن رسول الله الذى يقول فى الإمام الحسين:

«الأئمة من ولده وإجابة الدعاء تحت قبته والشفاء فى تربته»

إنما فسر تفسيرا حرفيا بدون أن يؤخذ بعين الاعتبار غرض رسول الله (ص) من قوله الشفاء فى تربيه فمن الوضوح أن غرضه من يزور الإمام الحسين للسلام عليه حسب ما هو وارد فى الطريقة الشرعية، ويدعو الله تعالى للشفاء، فإن الله قد يمن عليه، وهذا لا يعنى بأن تربة كربلاء يستحب السجود عليها، أو يجوز أكلها لغاية الاستشفاء، كما يفعله كثير من الشيعة، أو أن إجابة الدعاء تحت قبته لا تعنى أن تطلب الحاجة من

الإمام الحسين، بل الغرض واضح، وهو أن من يدعو الله ويتضرع إليه فى ذلك المكان، قد يستجاب له.

ومهما كان فإن السجود على التربة الحسينية أصبح هو السيرة المتبعة حتى هذا اليوم، وحتى المجتهدين وولاة الفقه فى عقر دراهم يسجدون عليها وهم يفتون بأن السجود عليها أفضل من السجود على غيرها.

ومع أننا نعلم جيدا ما يقوله فقهاؤنا عندما يسألون هذا السؤال حيث يقولون هناك فرق بين ما يسجد له وما يسجد عليه، فنحن لا نسجد للتربة، وإنما نسجد عليها، ولكنهم يغالطون أنفسهم قبل غيرهم. وإننى قد رأيت كثيرا من هؤلاء الفقهاء يُقبِّل تلك التربة ويتبرك بها ويضعها على عينيه، وعندما نَهَرْتُ أحدهم قائلا: ويحك كيف تقبِّل وتتبرك بتراب لا ينفع ولا يضر، قرأ لى هذا البيت:

أمُرُّ على الديار ديار ليلى ... أقبِّلُ ذا الجدار وذا الجدارا

وما حُبُّ الديار شغفن قلبى ... ولكن حب مَنْ سكن الديارا

واستناداً إلى ما قاله المجنون العامرى قبل عدة قرون، سار فقهاؤنا على هذه البدعة، يتبعهم العوام عليها.

الجمع بين الصلاتين:

هذه الحالة وجدت بمؤامرة عباسية بويهية فى المجتمع الشيعى منذ القرن الرابع الهجرى، فكانت السياسة العباسية التى فصلت الشيعة عن السنة، وكانت تقصد معرفة

الأقلية المعارضة الغاضبة عليها، وكان البويهيون الشيعة الأعاجم الذين يحكمون العراق وإيران باسم الخلافة العباسية، يريدون التعرف على أنصارهم الشيعة، وهنا حصل ذلك الحلف غير المقدس بين الخلافة العباسية والساسة الدهاة الذى كان وراءه البويهيون وقد أفتى فقهاؤنا، بجوار الجمع بين صلاة الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، وبذلك وفروا على النظام الاستبدادى الحاكم المتمثل فى العباسيين والبويهيين أمورا هامة كانوا بحاجة إليها وهى:

١- تمييز الشيعة عن غيرهم.

٢- إيجاد الفرقة والعداء بدل الوحدة التى كانت تجمع بين المسلمين عموما حتى ذلك العصر.

٣- فصل الشيعة عن الاجتماعات الإسلامية الدينية وجعلهم فئة تنطوى على نفسها لا صلة لها بالفرق الإسلامية الأخرى.

٤- أدى هذا الفصل إلى بناء مساجد للشيعة تفصلهم تماما عن الأكثرية الإسلامية، وهذ الخلاف كان فى مصلحة العباسيين والبويهيين، وكل من جاء بعدهم من الأنظمة.

إن الجمع بين صلاة الظهر والعصر، وهكذا المغرب والعشاء يجوز فى السفر، وفى الضرورة فقد جمع رسول الله بين الصلاتين فى غير حالة عذر، غير أن سيرة الرسول التى ينبغى للمسلمين الالتزام بها كانت أداء كل صلاة فى وقتها، وكان يؤم المسلمين للصلاة فى مسجده خمس مرات فى كل يوم. وعلى هذه السيرة سار الخلفاء الراشدون

وأئمة أهل البيت، وبقيت الأمة تسير عليها حتى أواسط القرن الرابع الهجرى إلى أن فرقت السياسة الاستبدادية بين المسلمين، وأضعفت أهم شعائرهم التى هى الاجتماع فى المسجد لأداء الصلاة. ورغم كل هذا فإن فقهاء الشيعة يتفقون على أن إقامة كل صلاة فى وقتها هو أفضل من الجمع، ومع كل هذا فإنهم يجمعون بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء!

صلاة الجمعة :

لقد كانت من الخطوات الأساسية للفصل بين الشيعة والسنة، والتى حَدَثَتْ منذ القرن الرابع الهجرى، على يد البهويهيين بمؤازرة بعض فقهائنا نحن الشيعة الإمامية، وذلك الاجتهاد الصارخ أمام النص الصريح، وإصدار الفتوى بعدم وجوب صلاة الجمعة، مناقضا للآية الكريمة:

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[1].

وقد ذهب بعض فقهائنا إلى أبعد من هذا، حيث أفتوا بحرمة صلاة الجمعة، ووجوب الإتيان بالظهر عوضاً عنها، فى عهد الغيبة، وبذلك استطاع البويهيون والخلافة العباسية إيجاد أكبر حاجز يمنع الالتقاء بين الفئتين، وفى الوقت نفسه إيجاد أكبر حاجز فئة تقابل الأخرى، حتى فى أعظم شعار من شعائر الإسلام.

١- الجمعة : ٩.

ولا شك أن اجتماع المسلمين فى صلاة الجمعة يحتوى على مصلحة كبرى، فهو اجتماع أسبوعى عام للمسلمين يداولون فيه شئون حياتهم، متوجهين إلى الله وفى بيت الله.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن المسجد فى العصور الإسلامية الأولى كان المقر الوحيد للاجتماعات الإسلامية، وكان التبليغ والدعوة والإرشاد يتم فيه، فهو آنذاك كان يقوم بدور المدرسة والكلية والجامعة، بل كان أثره أكبر من أثر المراكز التعليمية فى تثقيف الأمة فى شئون الإسلام من المراكز التعليمية حاليا، وكانت الخطب التى تلقى فى صلاة الجمعة تحتل جانبا كبيرا من هذه الرسالة، كما ان الاجتماع العام الذى كان يحصل فى ذلك اليوم كان دليلا على الوحدة الإسلامية وارتباط المسلمين بعضهم ببعض، فالمسجد كان مركز الأعلام والدعوة والإرشاد والهداية، وبفصل الشيعة عن الأكثرية فى هذا الاجتماع العظيم، تحققت آمال الأعداء بالتفريق بين الأمة الواحدة أولا، ثم بتضعيف هذه الاجتماعات، ولقد نجح المخططون فى تخطيطهم، حيث إن صلاة الجمعة لا تقام فى كثير من المناطق الشيعية ، ولا زال الرأى الفقهى السائد عند فقهائنا هو الاختيار بين صلاة الجمعة وصلاة الجمعة أو صلاة الظهر. ومع أنه يوجد فى فقهاء الشيعة عبر التاريخ من أفتى بوجوب صلاة الجمعة، إلا أن هؤلاء لا يتجاوزون عدد اصابع اليد.

وهكذا فإن الجمع بين الصلاتين، وترك صلاة الجمعة كان من أهم الأسباب التى أدت إلى أن تكون للشيعة مساجد خاصة بهم، لا يختلفون إلى غيرها، ولا السنّة تختلف إليها، وبذلك حصلت الفرقة الكبرى بين الشيعة والسنة التى كانت من أهم آمال

الخلافة العباسية والبويهيين فى بادىء الأمر، ثم تبناها السلاجقة، وآل عثمان، وزاد الصفويين فى وطأتها، واستمرت حتى هذا اليوم، والمسلمون يدفعون ضريبتها الباهظة. وأما أعداء الوحدة بين الأمة الإسلامية فهم الذين يجنون ثمارها!!

تشويه الثورة الحسينية

قُتل الإمام الحسين مرتين، مرة فى يوم العاشر من محرم، عام ٦١ هجرية، وذلك على يد الجيش الأموى، ومرة بسيف المتآمرين على ثورته وتضحياته الجسام بالنفس والأهل والأصحاب، فى سبيل حفظ الإسلام، من الانهيار. لقد اشترك فى المؤامرة الثانية العباسيون والبويهيون، ثم جاء الصفويون ليكملوا المؤامرة، ووراءهم مشايخنا نحن الشيعة الإمامية، والقابضين على ناصية العقيدة. ولم يكن الإمام الحسين وحده هو الضحية الكبرى لهذه المؤامرة، بل إن الشيعة أيضاً كانوا ضحيتها؛ لأن الغرض الأساسى منها كان تغيير المنهج الفكرى والعقيدى الذى أرسى الإمام الحسين قواعده بثورته فى يوم العاشر من محرم.

إن المتآمرين على الثورة الحسينية حققوا هدمَ أكبر صَرْحٍ فكرى ثورى كان باستطاعته تغيير مسار الأمة وإخراجها من ظلِّ النظام الاستبدادى إلى النظام العادل، وإعادتها إلى عهد السلف الصالح من أمة محمد (ص). لقد جعل المتآمرن من هذا الصرح ظلالا وأشباحا كظلال الكهوف.

من هنا فإن المنهج الفكرى عند الشيعة الإمامية ودركها للثورة الحسينية يتناقض مع المبادىء الأساسية التى استُشْهد ونادى الإمامُ الحسين لأجْلها. إن المؤامرة الكبرى على الثورة الحسينية بدأت عندما أخذ المتآمرون عليها يقيمونها تقيما عاطفيا بحتا، ومن ثم اتخاذها وسيلة للبكاء والنحيب، ونيل الثواب والدخول إلى لجنة. وبدلا من استيعاب الدروس منها أصبحت سببا للسب والشتم واللعن على قتلة الحسين. ولو كانو قد فكروا مليا لعرفوا أن أعظم شتم ولعن لقتلة الحسين هو تلقيب الفئة التى قاتلت الإمام

واشتركت فى قتله بهذا النعت بدون إضافة كلمةأخرى إليها، وبدلا من ذلك لو كانت الجهود تبذل فى استيعاب الدروس من الثورة الحسينية وترك الطرق العاطفية التى شوهت الثورة ومبادئها، وتقييم الثورة على أساس من العلم والحقيقة.

إن ثورة الحسين تعتبر الثورة الوحيدة فى التاريخ التى بدأت تعطى ثمارها قبل أن تبدأ الثورة بمفهومها الحقيقى. فقبل مقتل الحسين فى عاشوراء بدأت الضمائر تستيقظ، وأولها كان ضمير حر بن يزيد الرياحى القائد الأموى الذى جعجع بالحسين عندما التقى به فى الطريق، وأرغمه على النزول فى كربلاء، وهو المكان الذى قتل فيه، فهذا القائد الأموى استيقظ ضميره فى يوم عاشوراء، وعندما رأى قومه يستعدون لقتال الحسين ذهب إلى عمر بن سعد رئيس الجيش وقائده وسأله: هل أنت مقاتل لهذا الرجل: فأجابه ابن سعد «أى والله قتال أيسره أن تقطع الأيادى وتقع لرءوس» . فهرع إلى الحسين يعتذر إليه ويقول له : «هل تقبل توبتى، وها أنا الذى أتيت بك إلى المنية؟» فأجابه الحسين بتلك النفسية النبوية التى ورثها عن جده رسول الله (ص) : «نعم توبة مقبولة وأنت حر فى الدنيا وحر فى الآخرة» . فهجم حر على جيش قائده هجوم الابطال يصدهم بالسيف حتى قتل فكان أول شهيد من شهداء الثورة الحسينية.

لقد أخذت الثورة الحسينية تتفاعل فى المجتمع الإسلامى منذ أن قتل الحسين، وكانت السبب فى اشتعال الثورات المتتالية التى حدثت فى العالم الإسلامى لتطيح بالنظام الأموى فى شرق العالم الإسلامى على يد العباسيين. والثورة كانت تتفاعل مع المجتمع الإسلامى أيضاً فى عهد العباسيين، كل يوم كانت الخلافة العباسية تواجه ثورة هنا وهناك، فلذلك كانت الضرورة تملى صَرْفَ الناسِ عن أهداف الثورة الحسينية، وتغيير معالمها إلى الحزن والبكاء والنحيب، ومن ثم اللعن والشتم على قتلة الحسين!

فعندما نمعن بدقة فى الزيارات التثقيفية التى وضعت فى ذلك العصر، نرى أن السب واللعن تجاوز القتلة، ليشمل أناساً آخرين أدخلوا فى ضمنهم، ولم يكن لهم وجود آنذاك. فلقد جاءت تلك العبارات التالية فى زيارة عاشوراء:

«اللهم العن أول ظالم ظلم حق محمد وآل محمد وآخر تابع له على ذلك، اللهم العن العصابة التى جاهدت الحسين وشايعت وبايعت على قتله، اللهم العنهم جميعا».

إن هذا التعميم فى اللعن والسب كان هو السبب الأساسى فى ذلك التناحر الذى حصل ويحصل بين الشيعة والسنة منذ عهد التشويه. لقد كتب ابن خلدون فى تاريخه فى المجلد الثالث ص ٤٢٥ فى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة:

«أمر معز الدولة البويهى فى بغداد أن يُغلق الناس دكاكينهم فى عاشوراء، ويقعدوا عن البيع والشراء ويلبسوا المسوح ويعلنوا بالنياحة تخرج الناس مسبلات الشعور مسودات الوجود، وقد شققن ثيابهن ويلطمن خدودهن حزنا على الحسين، ففعل الناس ذلك، وأعيد ذلك سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة فوقعت فتنة بين أهل السنة والشيعة، ونهبت الأموال، وفى هذا العام كتبوا على أبواب الجامع فى بغداد لعناً صريحاً فى معاوية، ومَنْ غصب فاطمة فدَكَ ،ومن منع دفن الحسن عن جده، ومن نفى أبا ذر، ومن أخرج العباس من الشورى». — انتهى كلامه —

وهكذا نرى أن فى هذا العام بدأت المؤامرة البويهية العباسية تظهر بوضوح لضرب الشيعة بالسنة، وهذا هو أول يوم بدأ اللعن فيه على معاوية علنا، ثم شمل الخلفاء الراشدين، وإذا كان لم يذكر أسماء أبى بكر وعمر وعثمان بصراحة فيما كُتِبَ على

أبواب الجامع، إلا أنه كان من الواضح أنه كان يقصد من الذى غضب فدك هو أبو بكر، والذى منع دفن الحسن هى عائشة، ومن نفى أبا ذر هو عثمان، ومن أخرج العباس من الشورى هو عمر بن الخطاب. وبذلك شمل اللعن الخلفاء الراشدين، مضافاً إليهم السيدة عائشة زوج رسول الله (ص). ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا تستمر الفتنة بين أهل السنة والشيعة كتابة وخطابة، أو بالسيف والسلاح، كما حدث آخرها قبل فترة فى أحد مساجد الشيعة فى باكستان، وستستمر هذه الفتنة ما دام هذا المنحى الفكرى موجوداً عند الشيعة والسنة... وآراؤنا فى التصحيح لا تؤخذ بعين الاعتبار!

وأعود إلى ثورة الإمام الحسين لأبيّن بكل اختصار ما كتبته فى الكتاب الذى ألفته عن الإمام بعنوان «الإمام الحسين ملتقى الأجيال والعصور» وهو أن الثورة الحسينية قد بُنيت على أربعة أركان:

الركن الأول :

هو أن شرعية الثورة إنما تكون لغرض إنقاذ الأمة، وليس لمقارعة الفرد المستبد فحسب، فلأول مرة فى تاريخ الثورات نسمع بوضوح أن الإمام الحسين يحمّل الأمة مسئولية ما وصلَتْ إليه من الضياع فى ظل النظام الاستبدادى الفاسد، ويعنى هذا أنّ المسئولية لا تقع على الفرد المستبد فحسب، بل تقع على كاهل الأمة التى استسلمت للمستبد فى أغراضه وأهوائه. وهو يعبر عن هذه الفكرة بكل صراحة:

«والله لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح فى أمة جدى محمد».

الركن الثاني :

إن الإمام الحسين لا يُؤمن بالقتال إن كانت هناك طريقة أخرى للحيلولة دون أطماع المستبد، ولأول مرة فى تاريخ الثورات أسس الإمام الحسين مدرسة المقاومة السلبية للوقوف فى وجه المستبد وأطماعه، وهو لم يبايع يزيد عندما أراد البيعة منه، وأمر أصحابه وقومه بعدم الاستسلام ليزيد وعدم مبايعته.

الركن الثالث :

المواجهة المسلحة: فالمقاومة السلبية إذا فشلت ولم يستجب لها النظام، فحينئذ يأتى دور المواجهة بين النظام والأمة.

الركن الرابع :

عدم التسليم للظالم، ولو انتهى ذلك إلى مقتل رجل مثل الحسين بن على بن أبى طالب سبط رسول الله (ص) وسبى أهل بيته وهم أهل بيت رسول الله (ص). ويلخص الإمام الحسين فلسفته فى هذا الأمر فى صباح يوم عاشوراء بقوله:

«والله ما أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما»

إن النتيجة المباشرة لتحوير الثورة الحسينية، وانتزاع كل الدروس التى كان يجب أن تستخلص منها، كانت السبب فى ضياع الثورة الحسينية، وهذا الضياع الذى كان وراءه النظامان المتكاتفان، العباسى والبويهى، فى بداية الأمر، ثم جاء الصفويون، وقاموا بدور خطير فى هذا المنحنى وأدخلوا فى الكتب التى ألفت فى عصرهم روايات عجيبة وغريبة،

وكأنها تقول إن الغرض من مقتل الحسين هو البكاءّ واللّطم عليه للدخول في الجنة، وضمان شفاعته، وبدأت الشيعة تعتقد أن الغرض من مقتل الحسين هو أن تجتمع جماعة منهم، وتبكى عليه وتلطم على الصدور، كما أمر معز الدولة البويهى، وتضرب على الرءوى بالقامات والسيف كما أمر الشاه إسماعيل الصفوى، وكأنه لم تكن هناك فلسفة وراء مقتل سيد شباب أهل الجنة، إلا هذه الأمور التى لا تمت إليه وإلى الإسلام بصلة. فلذلك لو أننا اليوم سألنا ١٥٠ مليون شيعى على وجه الأرض فردا فردا، علماء ومفكرين، خطباء وكتّاب، لماذا تقام هذه الشعائر الضخمة لمقتل الحسين، ولماذا هذا الحداد العام؟ أجابوا كلهم في خمسة جمل متحدة في المعنى ومختلفة في اللفظ، وكأن هذه الأجوبة طبعت في قلوبنا وعقولنا:

١- نبكى ونلطم على الخدود ونقيم الشعائر للحسين لأنه كان مظلوما، ولأن في إقامة الشعائر ثواباً، وإقامتها ستدخلنا إلى الجنة، ونحن في ذلك نجد خلاصا لنا من العذاب يوم القيامة!

٢- نبكى على الحسين لأنه ابن بنت رسول الله (ص) قُتِلَ عطشانَ فى كربلاء وسُبِيَتْ عائلتُه!

٣- نبكى على الحسين لأنه إمامنا ويجب علينا إحياء ذكره!

٤- نبكى على الحسين ونقيم الحداد عليه لأن هناك روايات عن أئمتنا فى الترغيب فيه!

٥- نبكى على الحسين حتى ندخل الجنة ونضمن شفاعة جدّه!

وكلنا نعلم كيف أن العالم ينظر إلينا في يوم العاشر من محرم عندما تعرض على شاشات التلفزة تلك المناظر المقززة من ضرب السيوف على الهامات، والسلاسل على الصدور، والدماء التي تسيل من جرائها، في المراسيم التي تقام يوم عاشوراء في لبنان وباكستان وأجزاء من إيران. وكيف أنَّ العالم ينظر إلى الشيعة بصورة مرعبة بل أكثر من هذا بكثير.

ومن هنا يتضح لنا أن المدرسة التي بناها الإمام الحسين على دعائم من الفلسفة الرشيدة والأسس المنطقية التي استلهمها من الإسلام، فقدت بالبكاء والنحيب محتواها ومضمونها، وفهم أبعادها، كما أن مدرسة يزيد التي كانت مدرسة الاستبداد الفردي حجبت عن عيون الناس وعقولهم درك أخطارها لكثرة السب واللعن على الأمويين، وها هنا نرى أن الحقيقة تختفي وراء سيل من العواطف، فيا ترى أن المتحمسين لمدرسة «باستور» الذي اكتشف الميكروب، أو المتحمسين لآراء (غاليليو) في كروية الأرض ولآراء «كيبلر» في الجاذبية، هل كان باستطاعتهم أن يقفوا مع المدرسة ويؤيدونها بالبكاء والنحيب؟ أو هل كان أعداء هذه المدارس يستطيعون هَدْمهاَ باللعن والسباب؟ فلو كانت البشرية تسلك هذا المسلك في وقوفها مع المدارس العلمية التي كان لها تأثير في حياة الإنسان وفي مجراها، فتؤيدها بالبكاء والنحيب والضرب على الأكتاف ولطم الصدور، وتقف ضدها بالسب والشتم واللعان، فالإنسان عند ذلك لن تتحرك قيد أنملة إلى الأمام!!

إن على الشيعة إذا كانت صادقة في حبها للحسين أن تُغيِّرَ المنهج الذي سارت عليه قرونا وقرونا، في إحياء ذكرى الحسين، تغييرا جذريا أساسيا يقلبه رأسا على عقب، فيجب أن تقام هذه الاحتفالات على أسس من العلم بدلا من الانفعال العاطفي،

احتفالات يحضرها العلماء وكلٌ منهم يبحث عن ميزة من ميزات المدرسة التى أرساها الحسين، ويشرحها شرحا دقيقا وافيا ويستنتج منها الأبعاد العلمية والمؤثرة فى حياة الإنسان، وأن يعطى بدلا من ذلك الحماس العنيف حماسا للعلم والمعرفة، وأن تبحث الحركة الحسينية فى كل مراحلها ابتداء من المقاومة السلبية، ومن ثَّم إخراج «الأمة» من الضياع ومن ثم اشتراكها فى الثورة، ومن ثَّم عدم استبدال الفرد بالفرد، بل استبدال الفرد بها. وأخيراً عدم التسليم للظالم، ولو أدى ذلك إلى الشهادة، ولو كان الشهيد هو الحسين بن على.

إنَّ كل بند من البنود التى أشرنا اليها هو بحدٍّ ذاته يحتل موقعا كبيرا فى الفكر الإنسانى والفلسفة الإنسانية، وكل بند من هذه البنود مستخلص من مدرسة الإسلام الكبرى التى أسسها رسول الله (ص) وهكذا نرى أن مدرسة الإسلام ومدرسة الإنسان فى الحياة الحرة الكريمة تمتزجان معا، ولا يمكن الفصل بينهما.

وهنا أختم هذا الفصل بهذه الجملة المقتضبة: «كل مَنْ أحَبّ الإسلام والإنسان، عليه أن ينظر إلى الإمام الحسين كصاحب مدرسة أرسى بنيانها لخدمتهما، ومن بكى أو تباكى على هذه المدرسة فإنه يقلل من شأنها. بل يقوم على تحطيمها.

إن مدرسة الحسين هى مدرسة العقل، وليس لفهم المدارس العقلية إلا طريق واحد، ألا وهو اتباع العقل. والشيعة بخست حق الحسين بخسا عظيما لتلقيبه بـ«المظلوم» ولاشك أن الأنظمة الاستبدادية التى حكمت إيران عبر القرون من جهة، والخانعين من الشيعة كانوا وراء هذا التلقيب، فالحاكم كان يظلم أمته، وكانت الأمة تصبر على الظلم، وهى تدعى التأسى بالحسين حتى يكون مظلوما، والخانعون من جهة أخرى كانوا يبررون خنوعهم واستكانتهم أمام الظالمين، ويضيفون إلى أنفسهم لقب المظلوم

تأسيا بالإمام الحسين كما قلنا. إن من يزور مساجد وتكايا العالم الشيعى شرقا وغربا فى أيام عاشوراء يرى أن جدران هذه المساجد والتكايا مغطاة بالسواد، وقد نقش عليها «يا حسين المظلوم» وهذه الكلمة كانت رصيدا عظيما للأنظمة الحاكمة الاستبدادية عبر التاريخ، التى كانت تحكم الشيعة، ومخدرا لا يُقَدَّر بثمن، يحمل الشيعة على قبول الظلم، وهى في حالة من السرور والابتهاج تأثرا بالحسين، غير أن الحقيقة التى غابت عن أعينهم أنه قلما يوجد فى تاريخ الإنسانية فئة كالحسين وصحابته لم تعرف معنى الظلم، ولم تقبل به.

حقا ان وصف الحسين وصحابته بالمظلومين إهانة لا تغتفر بحقهم، لأن المظلوم من يتحمل الظلم ويقول «بلى» ويرضى بأنواع المذلة والإهانة، فإذا سُجن بدون ذنب رَضَخَ للسجن، وإذا عُذِّب تعذيبا بشعا ينادى ويستغيث ناجيا، وإذا قُتِلَ وَلَده ظلما وعدوانا، وصودرت أمواله خرج من بلاده خائفا يترقب وهو يبكى ويلطم الخدود. أما الذى وقف مع القلة القليلة من الأصحاب أمام الكثرة الكثيرة من الأعداء شاهرا سيفه وهو يقول «والله لا أعطيكم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد»، ليس هو إلا رجل لم يطق الظلم، ولم يخش الموت لمحاربته.

إن الشجاعة التى كانت تتجسد فى الإمام الحسين فى يوم عاشوراء يصورها أحد الذين شهدوا تلك المعركة المفجعة المحزنة بقوله: «والله ما رأيت مكسورا قط أشجع من الحسين فى يوم عاشوراء». إن معركة عاشوراء كانت معركة لقمع الباطل وأهله، ومن يقارع ظالما دفاعا عن الحق ويستبسل فى الدفاع حتى الموت فليس من الإنصاف والعدالة أبدا وصفه بـ «المظلوم»، بل إنه من «أباة الضيم» وكفى الإنسان فخراً أنْ يرتقى إلى هذا المرتقى.

والسؤال المحير هو كيف أن المسلمين بعد أن علموا بفاجعة كربلاء لم يتظاهروا فى المساجد والميادين أو الأسواق، ولم يخرجوا اعتراضا وتنديدا بالسلطة الأموية؟ وإذا قامت ثورات متلاحقة بعد مقتل الحسين فإنها كانت ثورات محلية قام بها أفراد قلائل سرعان ما كانت تخمد. إن السبب الأساسى يعود إلى ما أشرنا إليه مراراً، وهو ضياع الأمة الذى مهد له معاوية عشرين عاما، بالسيف والمال واستطاع أن يغير نهج الأمة الرشيدة وعهد السلف الصالح بقبول المنهج الاستبدادى المتمثل فى القضاء على الشورى، وعلى أهل البيت معا، وبذلك استطاع التحكم فى رقاب المسلمين، ولا أستطيع أن أبين حجم الضياع الذى وصل إليه المسلمون، أيام حكم معاوية إلا بسرد حادثة تصلح للمقارنة وشاهدها العالم بأسره من على شاشات التلفزة، وذلك عندما توفى إمبراطور اليابان هيروهيتو عن عمر يقارب التسعين، وهو الإمبراطور رقم ١٦٣ المنحدر من الأسرة المالكة التى تحكم اليابان بلا انقطاع منذ ألفين وشتمائة عام أو يزيد. وشاهد العالم الشعب اليابانى يذرف الدموع على وفاة مليكة ويقف مئات الآلاف من أفراد الشعب بطبقاته المختلفة فى صفوف طويلة لتمر على جثمانه خاشعة حزينة.

وفئة كانت تدعى الإسلام قتلت الحسين سبط رسول الله بعد وفاته بثمانٍ وأربعين عاما فقط، وأسرت أهل بيته وطافت بهم فى الصحارى والقفار والمدن والقرى، وأدخلتهم إلى مجلس ابن زياد بالكوفة، ومجلس يزيد فى الشام، لينالوا الشتم والشماتة من الحاكمين الظالمين، وفى مقدمة الأسرى على بن الحسين، زين العابدين، وعمته السيدة زينب بنت على وفاطمة، كل هذه المحن والمصائب تمر على آل البيت فى حضور صفوة القوم وكبارهم، ولم يحرك أحد منهم ساكنا، ولم يعترض أحد منهم على طاغية الكوفة وقرينه فى الشام، ولم يزل هناك فى مجلس يزيد فى الشام من الأحياء من شهد مجلس رسول الله عندما سمع بكاء الحسين من داخل الدار فخاطب ابنته فطمة الزهراء قائلا:

«يا بنية أما تعرفين أنَّ بكاءه يؤذيني!».

وهكذا حفظت وراعت الأمة حُرمةَ رسول الله (ص) في أولاده وأهل بيته وكأنما لم يسمعوا كلام الله حيث يقول:

(... قُل لا أسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبى...)[1].

حقا إنه ضياع ليس مثله ضياع!

ونحن في آخر هذا الفصل نود الإشارة إلى موضوع خطير، احتل مركزاً حساساً في الكتب التي أُلِّفت عن ثورة الحسين حيث أراد بعض الناقدين، أن يصفوا الثورة الحسينية بأنها كانت ارتجالية أو مجازفة بالنفس والأهل والآل، ولكن من يمعن النظر في الخطاب الذي أرسله الإمام الحسين إلى بعض أصحابه قبيل استشهاده، والذي يقول فيه:

«من لحق بنا فقد استشهد ومن لم يلحق بنا فقد فاته النصر»

يعلم بوضوح أن الحسين بعد أن يئس من جدوى الخطوات التي أشرنا إليها للقضاء على حكم يزيد، استسلم للشهادة. بل صَمَّم عليها، لأنه كان يعتقد أن استشهاده في هذه اللحظة من تاريخ الأمة الإسلامية ضروري، لحفظ دين جده محمد (ص)، وقد اعتبر هذه الشهادة هي الحركة الإصلاحية والضرورية التي تحفظ عقائد الأمة من الانزلاق والجحود بالإسلام، وتحفظ سمعة الإسلام أمام الأعداء وغير المسلمين وها هو يصرِّح في صبيحة يوم عاشوراء مخاطبا الجيش الأموي بأعلى صوته:

إن كان دين محمد لم يستقم ... إلا بقتلي يا سيوف خذيني

١- الشورى : ٢٣

فإذاً كانت الشهادة لحماية دين محمد فى ظل تضحية جسدية تدوّى فى الآفاق ما دامت السموات والأرض، وتنسف الأصول التى سنّها معاوية وابنه يزيد باسم الإسلام. إن تضحية جسيمة من هذا النوع يقوم بها أقرب الناس إلى صاحب الرسالة، وهو المُربّى فى بيت الإسلام، كانت دليلا واضحا وأكيداً أنّ هذا النظام الذى يحكم الإسلام باسم محمد لا يَمُتّ إلى الإسلام وإلى رسول الإسلام بصلة.

وإن ظاهره الذى هو حفظ مظاهر الإسلام ليس إلا غطاءً لهدم واقعه، والقضاء على جناحه الاجتماعى والسياسى والأخلاقى، أى تدمير الإنسان والإنسانية، والمُثُل القيّمة التى تنبع منها، والتى جاء الإسلام لترسيخها.

إذاً شهادة الحسين لم تكن مجازفةً، والإقدام عليها لم يكن الإقدام على التهلكة، بل كان غرضه بعد أن سُدَّتْ الابوابُ فى وجهه، ولم يستطع تنفيذ الأركان الثلاثةَ التى كان يخطط لها واحداً بعد الآخر، القيام الثورة، فقد أقبل على الركن الرابع ألاَ وهو عدم التسليم للظالم بأى ثمن، والتضحية بالغالى والرخيص لفضح هذا الظالم ونظامه. وهكذا اروى الحسين الإسلام ودين جده محمد بدمه الزكى، ودماء أهل بيته وأصحابه، كما أروى الإسلام وحفظه من السقوط دماء صحابة الرسول فى أحد وبدر وحنين والخندق.

فما واقعة كربلاء إلا امتدادا لـ «أحد» وما الحسين إلا امتداداً لجده رسول الله (ص)، وما يزيد إلا امتداداً لجدته هند آكله الأكباد، وما صحابة الحسين الذين استشهدوا فى يوم العاشر من محرم إلا امتدادا لأصحاب رسول الله (ص) الذين استشهدوا فى فزواته دفاعا عن الإسلام، وما أهل بيت الحسين على الأكبر وأخوه العباس، وسائر أولاده أهل بيته الذين رسول الله الذين استشهدوا معه إلا امتداداً لحمرة

وجعفر وسائر أهل بيت رسول الله الذين استشهدوا لحفظ الإسلام من الشرك والمشركين، وهكذا أعاد التاريخ نفَسه، وما أشبه الأمس بالأمس الأول، واليوم بالبارحة، والمسلمون فى ضياع مستمر!

دَوْرُ الكتب فى البدع وتعطيل العقل

- الغلو -

العقل هو الأصل الرابع من أصول استنباط الأحكام الشرعية عند الشيعة الإمامية حتى إن سلمت بهذه القاعدة التى تقول:

«كل ما حكم به العقل حَكَم به الشرع»

وقد روى عن الإمام الصادق قوله:

إن أول ما خلق الله هو العقل فقال له أقْبِل، فأقبل.

وقال له أدبر، فأدبر. فقال: بعزتى وجلالى، بك أعاقب، وبك أثيب».

وقال ديكارت :

إن عظمة العدالة الإلهية تتجسد فى تقسيمه للعقل البشرى بصورة تُرضى الناس جميعا، فلم يَشْكُ أحد من قلة العقل أو يعترف برجحان عقل الغير عليه، وبما أن العقل هو أشرف المخلوقات فلذلك اقتضت العدالة الإلهية أن يكون توزيعه يرضى كل واحدٍ فى قرارة نفسه به، مع الفرق الشاسع بين عقول الناس ليرى نصيبه من العقل سواسية مع الآخرين، وإن كان ذلك الآخر هو عبقرى زمانه وأفلاطون دهره.

والغُلُوُّ هو من الأمور التى دخلت فى عقائدنا بفصل الكتب التى أُلِفَتْ مناهضةً

ومعطلة للعقل البشرى، وهو موجود فى عقائدنا - نحن الشيعة الإمامية، أكثر بكثير مما هو موجود عند سائر الفرق الإسلامية، نستثنى اللهم السلفيةَ. منهم حيث لم يجد الغُلوَ طريقاً إلى معاقلهم.

إن هذا الغلو شيء عام نرى آثاره حتى فى الأديان والعقائد الأخرى، والغُلُوّ عملى ونظرى عقيدى، ونحن نتحدث عنهما بما يخصنا نحن الشيعة الإمامية، حيث إنه احتل جانبا كبيرا من حياتنا الاجتماعية والعقيدية. فتقبيل الأضرحة والتبرك بها وطلب الحاجة من الأئمة أو الأولياء، أو طلب الشافعه منهم، أو تقبيل التربة الحسينية وأكلها للشفاء، أو الطواف حول الأئمة تأسيا بالطواف حول الكعبة أو ترصيع الأضرحة بالذهب والفضة، ومن ثم التبرك بها، كلها داخلة فى الغلو العملى والعقيدى معا. وهذه الأمورُ مَنْهِىٌّ عنها فى الشريعة نهياً قاطعاً. فطلب الحاجة يجب أن يكون إلى الله سبحانه فقط، (لا حول ولا قوة إلا بالله).

غير أن هذا الغلو إنما دخل فى عقيدتنا لأسباب سياسية كان وراءها العباسيون والبويهيون أولا، ثم جاء الصفويون ليزيدوا عليها، ما استطاعوا إلى الزيادة سبيلا، ويتجلى هذا الغلو فى الكتب التى أُلفّت فى العصر الصفوى، والتى بَذَلَ المؤلفون فيها جهدا حثيثا فى تعطيل العقل الإنسانى، بل وتدميره فى مصلحة النظام الاستبدادى، الذى كان الكثير منهم يرتزقون منه. كما أن الكتب التى ألفت فى القرن الرابع والخامس الهجرى، فى ظل الخلافة العباسية والسلطة البويهية، لعبت دورا هدّاما فى تعطيل عقل الشيعة للفصل بينهم وبين الأكثرية الإسلامية. فالغلو فى أئمة أهل البيت وما كتب عنهم فى الكتب التى أُلفت فى ذلك العصر من انتساب المعاجز إليهم، أو علمهم للغيب، أو أنهم يعرفون الأحكام الشرعية بالإلهام، وغير ذلك من الأمور العجيبة الغريبة، ظهرت فى

الكتب فى ذلك العصر، ولكن الكتب التى ألفت فى عهد الصفويين، ولا سيما التى ألفها المجلسى الأب والابن، لعبت دورا كبيرا فى نسف العقول وتدميرها لكثرة ما فيها من القضايا الغلوائية، والروايات والقصص والحكايات التى ينسبوها إلى أئمتنا وهم براء منها .

وهؤلاء الرواة الذين تعاونوا مع الخلافة العباسية والبويهية قد غذوا الرواة الذين ظهروا على الساحة فى عهد الصفويين فيما بعد.

ومن الغريب فى الأمر أن هؤلاء الرواة ليسوا من الشيعة فحسب، بل فيهم رواة من السنة الذين استخدمتهم الخلافة العباسية لكى يذكروا فى كتبهم أمورا يتخذها الشيعة سنَدا لكثير من العقائد التى تنطلق منها، وقد دخلت هذه الروايات والأفكار حتى فى كتب الصحاح.

ولقد أشرنا عند بحثنا فى المتعة إلى مسند أحمد بن حنبل: والروايات التى كان بعضها فى جواز المتعة، وبعضها فى تحريمها. وها هنا نود أن نذكر بكل صراحة حديثاً آخراً ذكره البخارى فى صحيحه، وإنى أعتقد أنه يعتبر فى ضمن الأحاديث التى أدخلت فى الصحاح فى عهد الخلافة العباسية للتفريق بين الشيعة والسنة، ولإعطاء دفعة حاسمة لحركة التمزيق بين الأمتين، فقد روى البخارى فى صحيحه فى باب «كتاب العلم» عن ابن عباس: «لما اشتد بالنبى (ص) وجعه قال: ائتونى بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، فقال عمر (رضى الله عنه)، إن النبى (ص) غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله تعالى حسبنا. فاختلفوا وكثر اللغط، فقال: قوموا عنى ولا ينبغى عندى التنازع»[1]

١- اخرجه مسلم فى آخر الوصايا من صحيحه أيضاً ورواه أحمد فى مسنده ج١ ص٣٥٢.

وإنى لا ولن أستطيع أن أصدق هذه الأحاديث التى لا تنسجم حقيقتها مع أدب صحابة الرسول واحترامهم له. ومن ثمَّ القوة الروحية للرسول على أصحابة المخلصين، فكيف يعقل أن عمر بن الخطاب يمنع الرسول عن الوصية، والمسلمون من حوله سكوت، بل وفى الحضور على وعثمان وأبو ذر وطلحة والزبير.

وليست هذه هى الرواية الوحيدة التى تفت فى عضد الأمة الإسلامية، بل هناك روايات أخرى كلها أدخلت فى كتب الشيعة والسنة لإضفاء صورة كئيبة سوداء على عهد الصحابة، وجعله بعيدا كل البعد عن الحضارة الإسلامية الكبرى التى غرسها رسول الله فى قلوب أمته وصحابته والتى تتناقض مناقضة صريحة مع الآية الكريمة:

(مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ...)(1)

فكيف نتصور أن صحابة عظاماً مدحهم الله بهذا المدح الكبير تصل الحالة بهم إلى أن أبا بكر يغصب فدك، ولا يعطيها للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وفدك هى مزرعة صغيرة كانت خارج المدينة أدخل الرواة فى كتبهم شيعة وسنة أن أبا بكر لم يعطها لفاطمة التى كانت تطالبه بها ميراثا عن رسول الله بقوله: «سمعت رسول الله:(ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، وما تركناه صدقة ولولى الأمر بعدنا».

أو أن عمر بن الخطاب أحرق باب فاطمة وأرغمهم على البيعة، أو أنه أرغم عليا بتزويجه ابنته أم كلثوم فى روايات جاءت فى كتب الشيعة، ورواها ابن أبى الحديد المعتزلى فى شرحه لنهج البلاغة، مما يدل على أن الغرض من هذه الروايات وأمثالها

1- الفتح : 29.

الكثيرة والمقززة للنفس إنما أدخلت في كتب القوم. ليس نكايةً بالشيعة والسنة معا، بل إذلالا للأمة الإسلامية وحطاً من قدر الإمام على وسائر الخلفاء معا، وحمل الشيعة على قبول الذل واالخنوع بسبب ما لهذه الآراء من آثار نفسية فى قلوبهم، ومن ثم ازدياداً فى شحن قلوبهم بالحقد على السلف الصالح والخلفاء الراشدين. وهكذا نرى أن رواة السُّنة والشيعة معاً تكاتفوا تكاتفا عظيما لشحن قلوب كل فئة بالشحناء والبغضاء على الفئة الأخرى.

إنَّ هذه الكتب قامت بدور كبير فى تعطيل العقل الإنسانى، وجعل الإنسانُ دُمْيةً تتحرك بقراءة أوراق لا نعرف متى كتبت، وكيف كتبت؟ ولكننا نعرف لماذا كتبت؟ ومن هم الذين كانوا وراءها؟ إن مشكلتنا نحن الشيعة الإمامية خصوصا، والمسلميسن عموما أننا نقارع العقل بمدلولات كتب وروايات نوقن بزيف بعضها وبوضعها، ولكننا نعمل بها لاننا نقرأها مطبوعة ومدونة فى كتاب كُتبَ على غلافة لمؤلفة الإمام البخارى أو الإمام أحمد بن حنبل أو الإمام المجلسى أو الإمام الكلينى أو غيرهم. !!

ومن هذه الكتب ننطلق فى تكوين عقائد غريبة ما أنزل الله بها من سلطان، وكثير منهم تناقض القرآن الكريم وسيرة الرسول والسلف الصالح والعقل السليم.

إن كل البدع التى أشرنا إليها، والغلو الذى نريد مقارعته لم تنزل علينا من السماء، بل كلها أمليت علينا بواسطة تلك الكتب التى أُلفَت عبْر القرون والتى كان وراءها أنظمة شيعية أو سنية، لضرب المسلمين بعضهم يبعض أو لتعطيل عقولهم كى يجعلوا منهم دُميةً يحركونها كيفما يشاءون.

ولذلك فإننى عندما أقرأ الكتب التى كتبت ضد التصحيح الذى ننادى به، لم أقرأ

فى هذه الكتب آية واحدة من كتاب الله الكريم، ولا سنة مُجْمَعٌ عليها من رسول الله (ص)، ولا دليلا واحدا من أدلة العقل. ولكن هذه الكتب كلها مليئة بروايات مكررة وقضايا معروفة على الألسن من كثرة التكرار لا تمت إلى العقل والحقيقة بصلة، وكله قال فلان عن فلان وروى فلان عن فلان، ثم استنتاجات تتلاءم مع رغبة العوام وذوقهم، ومصلحة المشايخ وحياتهم، ثم شتم وتجريح على المؤلف حسب ما جرت العادة عليه، فى كل الكتب التى ألفت عن الصراع الشيعى السنى منذ القرن الرابع الهجرى حتى هذا اليوم، فكلها على وجه الحصر تدور حول ثلاثة محاور: المحور الأول أئمة الشيعة، وهذا الشىء يتفق عليه المسلمون سنّة وشيعة، والقرآن الكريم يصرح بمدحهم. والمحور الثانى عند الشيعة هو التجريح والشتم للخلفاء الراشدين وأصحاب الرسول ما عدا نفر قليل منهم، وازواجه عموما ما عدا أم المؤمنين السيدة خديجة، ثم إعطاء صورة حالكة عن عصر الخلافة الراشدة والسلف الصالح. هذا هو المحور الثانى الذى تدور عليه كتب الشيعة، أما كتب السنة فتدور حول محور يناقض هذا، إنه التمجيد بالخلفاء الراشدين، وبالصحابة وبالسلف الصالح من أمة محمد (ص)، ومن ثم سب وشتم وتنديد بالشيعة وبعقائدهم وهكذا نرى أن مئات الكتب التى ألفت عبر القرون واستهلكت من الجهد والمال والوقت ما لا يعرف مبلغه إلا الله كلها مُنْصَبّة على أمرين فقط، المدح والذم.

وهكذا سارت الأمة فى ظل هذه الكتب تتقارع بينها مادحة وشاتمة، ومن هنا، فإن خلاص هذه الأمة وعودتها إلى عهد السلف الصالح من أمة محمد (ص) وإلى ذلك الوئام والوحدة التى كانت سائدة فى ذلك العصر، والتى استطاعت بفضلها أن تبنى دولة عظيمة تمتد من اليمن حتى بخارى فى أقل من خمسين عاماً، لن تتحقق إلا بتصحيح شامل للكتب التى كانت وراء الأحاديث والبدع والتجاويف والتجاعيد التى

أُدخِلَتْ فى عقيدتنا نحن الشيعة الإمامية، كما أننى عندما أذكر التجاويف والتجاعيد التى أشرت إليها فى كتابى هذا، لابد وأن أقول بكل صراحة : إن هناك لدى الفرق الأخرى تجاويف وتجاعيد وأموراً لا تمت إلى الإسلام وحقيقته بأية صلة. وأصبح بعضها ضمن العقيدة. إن تلك الأمور كلها يجب تصحيحها من خلال تصحيح الروافد التى أنتجت تلك التجاويف. وعلى علماء السنة أن يُجمعوا أمرهم على هذا الأمر، ويقفوا موقف رجل واحد للتميز بين الغث والسمين فى كل ما هو موجود فى كتب الروايات والأحاديث.

وبعد أنَ بيَّننا آراءنا بكل صراحة فى كثير من تلك البدع التى أدخلت فى عقيدتنا جرّاء مؤامرة عباسية – بويهية امتدت حتى عصر الصفويين، حيث اشترك فى المؤامرة الصفويون وولاة الفقه، لذلك لا نريد أن نذكر البدع الاخرى مثل الرجعة والبداء أو أمورا أخرى كنا قد عالجناها فى كتبنا التصحيحية، فإن البحث عنها تكرار لمواضيع كتبت ونشرت، ونحن ندعو الله ونتضرع إليه أن يلهمنا فهم القرآن وسنة الرسول (ص) وعصر السلف الصالح، وأن يجعل عقولنا مفكرة ومدبرة، لكل ما تسمع وتقرأ، وبذلك لن يبقى أمامنا عذرٌ أمام الله فى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المرجعيتان فى الميزان

"السنية والشيعية"

نختم هذا الكتاب بفصل «المرجعيتان» لنبين المبادىء والأهداف والفوارق بين هاتين المرجعيتين.

إن من أهم الأخطاء الشائعة التى أشرنا إليها باقتضاب هو ما عرف عن الشيعة بأن باب الاجتهاد مفتوح عند فقهائهم. وكما قلنا فإن هذا الادعاء تمويه، قام به مشايخنا للسيطرة على العوام، وحَمْلِهم على تبعيتهم ما دامت السماوات والأرض فالفقيه الشيعى لا يختلف عن الفقيه الحنفى أو الشافعى أو غيرهم من أصحاب المذاهب الكبرى. فكما أن الفقيه الحنفى يقلد أبا حنيفة ويتبع آراءه، فإن الفقيه الشيعى يُقلّد الإمام الصادق ويتبع آراءه إلا أن الفرق الشاسع بين الفقيهين هو أن الفقيه الحنفى قد يرجع إلى غير أبى حنيفة فى آرائه الفقهية، ولا يعتقد فى نفسه أن آراءه الفقهية مصدر من مصادر التشريع لا يجوز الخروج عليها، أو أنه مُلهَم بعلم الغيب، أو أن لديه علماً لدنياً، وهو علم الإمام، بناء على عقيدة فقهاء الشيعة، بدون الذهاب إلى الكتّاب أو السؤال من أستاذ أو معلم، كما أن فقهاءنا لا يجوّزون الخروج على آراء الإمام الصادق أو غيره من أئمة أهل البيت، ولا يجوز لهم اختيار رأى الفقهاء الآخرين، إلا إذا وافق رأى أئمتنا. كما أن أكثرية فقهائنا يذهبون إلى أبعد من هذا بكثير، حيث يعتقدون أن الإمام يعرف كل العلوم والموضوعات، بل هو عالم بما كان وبما يكون.

وأذكر جيدا أن جدنا الإمام السيد أبو الحسن رحمه الله، عندما قال فى أحد

دروسه: إنه ليس من الضرورة أن يكون الإمام عالما فى الموضوعات. بل يكفى علمه بالأحكام، حدثت ضجة كبرى ضد رأيه وطغى على مجلس الدرس هرج ومرج، وقيل وقال، ودهش الحاضرون كيف أن الإمام الأكبر يقول كلاما بهذه الخطورة. وما قاله كان يعنى أن الاعتقاد بعدم معرفة الإمام بعلم الخياطة أو علم الهندسة والزراعة والكيمياء والطب، لا يعتبر خروجا عن العقيدة ما دمنا نعتقد أنه عالم بالأحكام الإلهية، إلا أن هذا الكلام لم يرضِ الأكثرية من مشايخنا.

ومهما كان من أمر، فإن المجتهد الشيعى الذى يدّعى المرجعية، يجتهد فى فهم كلام الإمام الصادق، وليس له الحق فى الخروج على آرائه. نعم هناك شىء يجتمع عليه فقهاء الشيعة والسنة معا، وهو أنهم يجتهدون فى المسائل المستحدثة التى لم تكن موجودة فى عهد الرسول أو فى عهد أئمة أهل البيت وفقهاء المسلمين، أو الاجتهاد فى القضايا الفرعية الجزئية التى لا تعتبر فى ضمن المسائل الشرعية الأساسية التى يحتاج المسلمون إليها فى أصولهم وفروعهم.

إذاً باب الاجتهاد مسدود عندنا، كما هو مسدود عند السنة، نستثنى من ذلك السلفية كما قلنا، بل باب الاجتهاد عندنا أكثر انسدادا من باب الاجتهاد عند السنة، كما مر ذكره تفصيلا فى فصل «سد باب الاجتهاد»، غير أن الفرق الاساسى بين المرجعيتين إنما يظهر فى كيفية انتخاب المرجع، أو الدخول فى السلك الدينى، كما أن هناك فوارق كبيرة بين المرجعيتين فى النتائج والصلاحيات فمثلا:

١ – الفقيه الشيعى يدعى الولاية على الشيعة، والفقيه السنى لا يدعى الولاية على أحد من المسلمين.

٢- الفقيه الشيعى يدعى أن على العوام وجوب تقليده، وإلا بطلت اعمالهم، والفقيه السنى يرى أن الأخذ برأى أى فقيه من فقهاء المسلمين مجزٍ لأعماله.

٣- الفقيه الشيعى يفتى بوجوب إخراج الخُمُس من أرباح المكاسب وتسليمه إلى المجتهد الذى يقلده العوام، والفقيه السنى لا يعتقد بالخمس فى أرباح المكاسب ناهيك من الحصول عليه.

٤- الفقيه الشيعى يرتزق من الخمس، وما يسمونه «بحق الإمام» أى حق الإمام المهدى الغائب (عليه السلام) وفقهاء السنة يرتزقون من الزكاة أو الأوقاف أو رواتب الحكومة.

وهنا أود أن أشير إلى كيفية انتخاب المرجع الشيعى من بين الفقهاء ونقاط الضعف والقوة فيه. وبيان هذا الأمر يحتاج إلى بيان كيفية الانتساب إلى السلك الدينى منذ دخول طالب العلم إلى المدارس الدينية، حتى الوصول إلى مرحلة المرجعية. إن بيان هذا الأمر يوضح مدى الفوضى وعدم الانضماط الذى يطل على الحوازات العلمية الدينية عندنا، ويثبت تلك الفجوات الكبرى التى كانت ولا زالت وراء هذا الانحطاط الاجتماعى والسلوكى فى الحوزات الدينية التى تتخرج منها المراجع.

إن انتساب طلاب العلوم إلى الحوزات العلمية الدينية عند الشيعة لا يختلف عما هو عليه عند السنة، فليست هناك قواعد أو شرائط للانخراط فى الزى الدينى أو المدارس الدينية، فأى شاب يستطيع أن يدخل إلى الحوزة الدينية ويلبس العمامة ويرتدى العباء والقباء. فإن كان من أولاد الرسول حسب ادعائه فيلبس العمامة السوداء، ويخاطب

بالسيد، وإلا فيلبس العمامة البيضاء ويقال له الشيخ. ومن ثم يحصل على راتبٍ من المرجع الديني الذى يدير شئون الحوزة، ويحصل على حجرة فى إحدى المدارس الدينية لسكنى. وهذا الراتب مع ضآلته، إلا أنه يسد جوع الطالب ويعينه على مآربه بعض الشيء، ويبدأ طالب العلم بقراءة الصرف والنحو والادب والمنطق ثم يبدأ بقراءة الفقه والأصول، هذه المقدمات تستغرق عشر سنوات تقريبا، وبعد ذلك يحضر محاضرات الخارج، أى المحاضرات التى يلقيها كبار الأساتذة فى الفقه أو الأصول أو المراجع على الطلاب.

وطلبة العلم فى الحوازات الدينية لا يتعلمون اللغة الأجنبية، فالطالب الإيرانى لا يحسن التحدث بالعربية، والعربى لا يعرف شيئا عن الفارسية، أما الهندى فلا يعرف شيئا عن اللغتين إلا بمقدار ما يرتبط بدروسه الدينية. ومع أن لغة الدراسة عندنا هى اللغة العربية إلا أن رجال الدين من الإيرانيين والهنود والباكستانيين لا يستطيعون التحدث بها جيدا، ولعلّ بعضهم يؤلفون كتبا باللغة العربية فى الفقه أو الأصول لكنهم لا يستطيعون التحدث بها، وهذا هو من أكبر االنقائص التى طالما كنا ندعو الحوازت الدينية لمعالجتها. فالتفاهم بين رجل الذين الإيرانى مع غير الإيرانى لا يتم فى غالب الأحيان إلا من خلال الكتب أو المترجمين.

أما فى العلوم الاخرى كالتاريخ والجغرفيا والأدب العالمى والسياسة الدولية، فهم يجهلونها تماما، ولا يدرسون شيئا منها، ولا غيرها من العلوم الحديثة، وأكثرهم لا يدرى هل أن مانيلا مدينة تُسْكَن أم فاكهة تُوكَل. وعند وصول الطالب إلى مرحلة متقدمة من الدراسة يحق له الحضور فى درس أحد المراجع، وتسمى هذه المرحلة باسم البحث الخارجى، وكثير منهم يستمرون فى حضور درس ذلك الأستاذ سنوات طول

حتى يصبحوا مرجعا مكانه، وهناك سيرة أدبية يلتزمون بها: وهى أنهم لا يرشحون أنفسهم للمرجعية ما دام أستاذهم على قيد الحياة احتراماً وأدبا ولو طال عمره مائة عام. وكثير من الطلاب يتركون الحوزات لدينية ويعودون إلى مدنهم وبعضهم قد نال درجة الاجتهاد بناء على ورقة خطية يكتبها الأستاذ الذى درس عليه، ويشهد له فيها بالاجتهاد ويوقعها ويختمها، وبعضهم لا ينال تلك الدرجة ويصبحون عند عودتهم إلى بلدهم مشايخ فى المساجد أو المدارس، هؤلاء يلعبون دورا أساسياً فى تعيين مراجع الشيعة.

فلذلك نرى أن بعد وفاة المرجع غالبا، يُرشح العشرات من المجتهدين أنفسَهم للمرجعية، وكل مرشحٍ ينال نصيبا من المقلدين، وهذا الترشيح يتم من قِبل مشايخ المدينةً، فكلُ واحدٍ منهم يعين ويرشح مجتهدا، ويرجع أهل مدينته إلى ذلك المرشح، فلذلك يحدث غالبا أن يتزامن عشرات المجتهدين فى المجتمع الشيعى فى عصر واحد، ولكل واحد منهم أتباع ومريدون، وعندما يموت أحد المراجع يرجع مقلدوه إلى مجتهد آخر، وهكذا يلعب الموت دوره، فإذا لم يبق من الطبقة الأولى إلا شخص واحد يصبح هو المرجع الأعلى للطائفة. وقلما يحدث أن تجتمع الطائفة الشيعية على مجتهد ومرجع واحد، وقد يحدث هذا فى كل قرن مرة أو مرتين، كما حدث فى أول القرن الماضى الهجرى عندما اصبح الميرزا حسن الشيرازى زعيما أوحد للشيعة من عام ١٢٨٢ حتى ١٣٠٩ هجرى، ومرة عندما أصبح جدنا السيد أبو الحسن زعيما أوحد للشيعة للسنوات العشر الأخيرة من زعامته من ١٣٥٥ حتى ١٣٦٥ هجرى. حيث لم يكن هناك فى الساحة مرجع غيره يرجع الشيعة إليه فى التقليد، ولذلك عندما توفى جدّنا قال الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله عنه:

«كل بيت دخل فيه اسم الإمام الصادق دخل فيه اسم أبى الحسن»

وقال فيه الإمام كاشف الغطاء رحمه الله:

«السيد أبو الحسن أنسى من قبله وأتعب من بعده»

أما عند السنة فلا توجد مرجعية بهذا النوع وبهذا الشكل، ومع أن الدروس الدينية وكيفية حياة الطلبة عند السنة لا يختلف كثيراً عما هى عليها عند الشيعة. اللهم إلا فى أمرين؛ أولهما. أن الحوزات الدينية الشيعية تدرس أصول الفقه وتركز عليه كثيراً.

والفرق الثانى، هو أن المدارس السنية تهتم كثيراً بالتفسير، ومناهج البحث القرآنى، وكتب الصحاح، وهذا أمر لا تهتم به الحوزات الدينية عند الشيعة، فلا توجد هناك دروس فى التفسير وعلوم القرآن، ولا توجد مادة بين المواد التى تدرس بهذا الاسم، فقلما تجد طالبا فى العلوم الدينية يحفظ القرآن الكريم فى حين أن طلاب السنّة ومشايخهم يهتمون كثيراً بحفظه، وأذكر أن الإمام الخوئى رحمه الله بدأ بتدريس التفسير فى ليالى الجمعة، واستمر سنتين، وكان يرغب إدخال التفسير ضمن الدروس المنهجية، إلا أنه لم يستمر فى هذا الأمر، لأن بعض أفراد الحاشية وقفوا موقف المعارضة لهذه الخطوة، وقالوا: لا ينبغى على المرجع تدريس التفسير، وأخيرا رضخ الإمام الخوئى للضغط، ولعل السبب فى هذا يعود إلى أن الخوض فى تفسير القرآن الكريم والدخول فى أبحاثه ينسف نسفا قاطعا كثيراً من البدع التى ألصقت بعقائدنا نحن الشيعة الإمامية فى ظل المؤامرة التى أشرنا إليها، لأن نصوص القرآن الكريم تقف حاجزا ورادعا فى قبول كثير من البدع التى يرتزق منها مشايخنا، فلذلك كانت السياسة والهدف إبعاد المرجع عن درس يمكن أن يفتح على مشايخنا أبوابا لا تحمد عقباها. ولقد كان

لى من العمر عشر سنوات عندما بدأت بحفظ القرآن الكريم، وبدأت بحفظ السور القصار، ومشيت شوطا حسنا فى هذا المضمار، وكنت أحس آنذاك بغرور عجيب، عندما كنت أرى أن مشايخنا الذين بلغوا من السن عتيا لا يحفظون القرآن الكريم، وأنا أحفظ الكثير من آياته، ولم أبلغ الحلم بعد.

وأما الفرق الثالث فى منهج الدراسة فهو أن الحوزات الدينية عندنا تركز على كتبها الخاصة بها، والتى تعتبرها من أهم المصادر لاستنباط الأحكام. مثل كتاب «الكافى» و«من لا يحضره الفقيه» و«الاستبصار»، كما أن فقهاء الشيعة يستندون على استنباطهم على كتاب «وسائل الشيعة» للشيخ حر العاملى، والذى يقع فى حوالى عشرين مجلدا، وكلها روايات فى المسائل الفقهية تروى أحكام، عن أئمة أهل البيت، وشأن هذه الكتب عندنا شأن كتب الصحاح عند السنة. وأما المدارس السنية فهى تعتمد على كتب «الصحاح» والكتب الفقهية الأخرى المعتمدة عندهم، حيث لا تهتم الحوزات الشيعية بها، ولا يرجع إليها أحدٌ ولا يركن إليها فقهاء الشيعة. فكما أن كتب الروايات الشيعية لا محلٌ لها فى المدارس السنية. فإن كتب الصحاح وباقى كتب السنة لا مكانَ لها فى الحوزات الشيعية، بل كل فئة تنظر إلى كتب الأخرى بعين الحقد والسخط وعدم الإتقان.

والفرق الرابع هو أن الحوزات الشيعية تهتم بالفلسفة الإسلامية إلى حدٍّ ما، وتدرس الكتب الفلسفية فى صفوفها، هذا شىء أغفلته المدارس المذهبية السنية تماما حسب علمى، غير أن من نافلة القول أن نقول إن أغلبية رجال الدين الشيعة يناهضون الفلسفة ويقفون ضدها ولا يوصون بقراءتها أو تدريسها. ولكن مع كل هذا فلقد كان فى صفوفهم فلاسفة جديرون بالاحترام، يقومون بتدريس الفلسفة رغما عن أنوف الأكثرية.

أما نقاط الضعف فى مرجعيتنا فهى كثيرة، لعل أهمها الفوضى التى تحكم الحوزات الدينية، فليس هناك رقابة على سلوك الطلاب، ولا على سيرهم الدراسى، ولا على سوابقهم. والطالب ينتمى إلى الحوزة الدينية عندما يشاء ويغادرها عندما يشاء، ولكن الأهم من هذا هو أن هذه الحوزات الدينية مع كثرة المنتمين إليها والبالغ عشرات الآلاف لا تنتج إلا القليل من الأعلام والأفذاذ، وأكثرهم عالّة على المجتمع لا يترتب على وجودهم أى أثر يذكر. والدليل على تلك الفوضى فى حوزاتنا الدينية هو أن ذلك الإرهابى الذى قتل والدى وذبحه كما تذبح الشاة وهو فى الركعة الثانية من صلاة المغرب فى صحن الإمام على كان يدعى الشيخ على القمى، وكان يلبس العمامة والفلنسوة، جاء إلى النجف من قُم، ودخل فى الحوزة كأحد المنتمين إليها وقرر له جدنا الإمام السيد أبو الحسن راتبا شهريا كباقى الطلبة، ولم يسأله أحد سواء كان ذلك السائل جدنا أو غيره من المشرفين على شئون لطلبة مَنْ أنت ولماذا جئت إلى النجف؟ وما هى الدروس التى درستها؟ ومن الذى يعرفك؟ ومن الذى يزكيك من وجوه بلدك،؟ وما هى الغاية من الانتماء إلى حوزة دينية لها شأنها فى العالم الشيعى، ولها من العمر ألف عام؟». لكنه بعد أن ارتكب جريمته تبين أنه كان يعمل قصابا فى بلده، ومعروفا بالشر وسوء السريرة، وثبت بعد سنوات أنه فى ذلك العام أى عام ١٩٣٠م وفى تلك الفترة الزمنية التى قام فيها بجريمته النكراء، كان الإنكليز يريدون عقد المعاهدة التى سمِّيت فيما بعد بمعاهدة سنة ١٩٣٠ مع الحكومة العراقية، وكان الشعب العراقى ناقما على تلك المعاهدة، يريد القيام والوقوف ضدها، فكان لا بد من إيجاد حادثة كبرى تشغله عن موضوعها، فكان قتل والدى هو الحادثة التى شغلت الشعب العراقى من جنوبه إلى وسطه، وحتى إلى شماله، وأنساهم قتل ابن زعيمهم بتلك الصورة الفظيعة، المؤامرة التى كانت تحاك حولهم فأبرمت المعاهدة والشعب فى

شغل عنها، وعندما عَرَفَ الناس بذلك كان قد فات الأوان.

أما السيد أبو الحسن فلم يقدم شكوى ضد قاتل ابنه وقال لا ينبغي برئيس الأمة أن يقاضى أحد أفرادها، ولو كان هذا الفرد قد اعتدى عليه، فرئيس الأمة أبا للبرىء والمجرم على السواء. فلذلك سقط الحق لخمسة عشرة سنة، وقد أصابه الجنون فى السجن بسبب اعتداء السجناء عليه انتقاما لجريمته، وعندما انتهت مدة سجنه سفرته الحكومة العراقية إلى إيران وتركته عند الحدود، وعثروا على بقايا من جسده بعد اسابيع خارج قريته وقد اكلته الذئاب.

والفوضى التى أشرنا إليها لا تختص فى الانتماء إلى الحوزت الدينية. بل تظهر فى قمة مظاهرها عند ترشيح المرشحين للمرجعية. فكل رجل دين فى الحوزة الدينية يستطيع أن يَدَّعى أنه مجتهد، ويطبع رسالة عملية ويَدَّعى الولاية على الشيعة بدون أن يسانده أى دليل، وهذا الأمر أدى ويؤدى إلى أن بعض المفسدين يرشحون أنفسهم للمرجعية، ومع أن أكثرية الناس لا ترجع إلى هؤلاء حيث إن هناك ضوابط فى تقليد المجتهدين إلا أن وجود هؤلاء فى صفوف المرجعية يربك الشيعة والمرجع معا. فأذكر جيدا أنه كان فى النجف الأشراف فى أيام زعامة جَدِّنا رجل دين اسمه الشيخ عبد الكريم الزنجانى، كان يَدعى المرجعية، فطبع رسالة فقهية باسم الرسالة العلمية، وكان يصلى الجماعة فى أحد أركان صحن الإمام على، وكان من المعروف أنه رجل الإنكليز فى الحوزة النجفية، ولم يقف أحد آنذاك للتنديد به، بل كان يعيش فى رحاب الحوزة مع الآخرين، ويحضر مجالس العلماء، ويتصدرها فى كثير من الأحيان. وأذكر حادثة حصلت فى ذلك الوقت، كان ذلك الشيخ سببا فيها، فقد قررت الحكومة العراقية تسفير أحد الطلاب الإيرانيين بدون ذكر مبرر، مما أغاظ جَدّنا الإمام فأمر عمى السيد

آغا حسين أنْ يتحدث مع وزير الداخلية، ويقول له: لانسمح بتفسير أى شخص ينتمى إلى الحوزة الدينية إلا إذا كانت لديكم وثائق تثبت إدانته». فحضر وزير الداخلية إلى النجف والتقى بعمى، وأخبره أن الأمر خارج من يد الحكومة العراقية، وإنما السفارة الإنكليزية هى طلبت تفسير هذا الطالب، ولا تستطيع الحكومة العراقية رفض طلب السفارة، وقد ألمح الوزير بأن الشيخ عبد الكريم الزنجانى هو الذى أرسل تقريرا إلى السفارة حول هذا الطالب. وقد عرفنا أن السبب فى تقرير الشيخ الزنجانى هو نشوب خلاف بين ذلك الطالب وبين أحد أتباعه، مما أدى إلى ذلك التقرير الشنيع، وهو الاستنجاد بسفارة أجنبية. فأرسل عمى رسولا إلى الشيخ الزنجانى يطلب منه أن يعمل شيئا لإلغاء التفسير، غير أن الزنجانى أبى من ذلك، وعندما تفاقمت الأزمة، أرسل جُدنا الإمام رسولاً خاصاً إلى الوصى على العرش عبد الإله ليقول له: «لو خرج الرجل فأنت تخرج بعده». وعلم الإنكليز بأن إخراج هذا الطالب سيجرهم إلى مواجهة مع الشعب العراقى فتركوا الشيخ بسلام.

أذكر هذه القصة حتى أبين أن الفوضوية الموجودة فى المرجعية الشيعية فتحت الباب لكثير من العناصر الخطيرة كى يندسوا فيها، ويجمعون الناس حولهم، ولا أحد يعرف عن حقيقتهم أمراً. وهذه الفوضى التى أشرنا إليها غير موجودة فى المرجعية السنية، حيث إن المراجع السنية منذ قرون تعين من قبل السلطة باسم «شيخ الإسلام» أو«قاضى القضاة» أو «مفتى الديار» ولم يكن هناك مجال للفوضى والعبث بالمنصب، ويمكن الاستغناء عنهم عند الضرورة، شأنهم شأن الموظفين فى المناصب العليا فى الدولة.

ومن أهم الأخطاء الموجودة فى المرجعية الشيعية هى ربطها ماديا بعوام، الناس،

فالأموال التى تصل إلى المرجع إنما تصل إليه من العوام، وهذا هو السبب فى جنوح المراجع لرغبات عوام الناس فى غالب الأحيان، وهذه هى المصيبة الكبرى، وهذه الأموال التى لا رقيب عليها ولا عتيد تحدث صراعا بين مراجع الشيعة، ويحصل ذلك التنازع الغريب بين المراجع وحماتهم بسبب الأموال التى تجنى إليهم، ولا أحد يعرف حتى الآن ما هو حجم تلك الأموال التى يستلمها المراجع، وهل هى تصرف حقا فى مكانها. أم أن كثيرا منها يبقى فى يدا الأهل والأولاد والحاشية. وسبب الصراع بين المجتهدين على المرجعية إنما هى هذه الأموال التى عليها يقوم أساس الزعامة الدينية، فبهذه الأموال يستطيع المرجع أن يحصل على مؤيدين، ويقوم بمشاريعه الدينية التى يكون كثير منها فى مصلحة زعامته.

ولقد عاصرت مراجع كانت ميزانيتهم تعادل ميزانية الدولة ماتوا وعليهم ديون كثيرة. فجدنا الإمام السيد أبو الحسن الذى كانت ميزانيته تعادل ميزانية دولة فى ذلك الوقت، مات وهو مديون، والإمام الطباطبائى البروجردى الذى خَلَفَ جَدَّنا مات ولم يكن يملك شيئا إلاّ أن بعض المراجع ماتوا وهم يملكون مئات الملايين فى البنوك كما يقال. فالإمام الخمينى مات وباسمه وباسمه فى البنوك الملايين من الدولارات، والإمام الخوئى توفى وفى أرصدته المئات من الملايين أيضاً، ولا أحد يعرف ماذا حَلَّ ويحل بهذه الأموال بعد وفاة المراجع.

وقبل أن يصبح جَدُّنا السيد ابو الحسن مرجعا للشيعة، كان فى النجف مرجعان معاصران، أحدهما مات ولا يملك شيئا، وهو الإمام محمد كاظم الخراسانى الذى توفى عام ١٣٣٩ هـ. وكان فى الوقت نفسه، زعيم الحركة الديمقراطية المسماة بالمشروطة فى إيران. والآخر هو الإمام السيد كاظم اليزدى، الذى توفى عام ١٣٣٧

هـ- حيث استحوذ بعض أولاده على ما كان بحوزته من أموال المسلمين بعد وفاته، فبنوا واشتروا بها عمارات وعقارات، فأشار الشاعر الكبير محمد مهدى الجواهرى إلى تلك الحادثة فى إحدى قصائده بقوله:

يدى بيد المستضعفين أريهم

من الظلم ما تعيا به الكلمات

أريهم على قلب الفرات شواهقا

ثقالا تشكى وطأهن فرات

بنتهن أموال اليتامى وحولها

تكاد تفيض الدمع والعبرات

ومن الأمور الخطيرة فى المرجعية الشيعية، هو أنه لا يمكن استبدال المرجع الشيعى بغيره ما دام على قيد الحياة إذا أصابته الشيخوخة، وأقعدته عن العمل، وبما أن المرجع الشيعى يتولى السلطة عندما يبلغ به الكبر عتيا، فهو معرض دائما لسيطرة الأولاد والحاشية عليه. وقد شاهدنا عن الكثب مراجع كثرين سيطرت أولادهم عليهم، وكانوا يفعلون ما يشاءون باسم آبائهم. فلذلك إذا قُدِّر لهذه المرجعية أن تبقى، فلا بد أن تكون مرجعية دينية فقط وليست «مالية» وبعيدة كل البعد عن أخذ المال وإعطائه، بغض النظر عن أن هذه المهمة هى مهمة المحاسبين والصرافين، وليست مهمة المرجع أن يقبض الأموال ويختزنها ويهبها لمن يشاء، فإن المهمة الروحية والقيادة الدينية هى أجل وأعلى من أن تُدنس بالمال وشئون الدنيا. إن جلوس المرجع الشيعى فى بيت مال الشيعة كجلوس الإمام يحى إمام اليمن فى بيت مال الإمامة أيام حكمه حينما كان يهب

بيديه الأموال إلى من يشاء، أمر عفى عليه الزمن.

إن آخر شيء يجب ان يفكر فيه المرجع الديني هو المال وشئون الدنيا ويجب عليه أن لا يكرس وقته لهذه الأمور. فلم يحدث قط حتى الآن أن أحداً من مراجع الشيعة أعلن جردا لحساباته الخاصة أو العامة، أو للأموال التي تعطى لهم، وهذا الاستبداد في التحكم في أموال الشيعة هو أهم أسباب النقمة على المرجعية عند كثير من شبابنا.

المرجعية الشيعية في مهب الريح :

بعد وفاة الإمام السيد أبي القاسم الخوئي بدأت المرجعية الشيعية تنحدر انحدارا هائلا نتيجة قرار السلطة المذهبية الإيرانية فرض السيد علي الخامنئي مرشد الثورة مرجعا للشيعة. ومنذ ذلك الوقت حدث الانقسام الخطير في أعوان السلطة وأعوان المرشحين الآخرين للمرجعية. فكثير من الذين رشحوا أنفسهم لم يجدوا في الخامنئي مؤهلات المرجعية الدينية والشروط التي تخوله للإفتاء. فأخذت السلطة الإيرانية تهدد وتنذر، وأمرت بسد أبواب بعض المرشحين للمرجعية، وبحجز أموالهم في المصارف، ولكي تجعل من كفة الخامنئي كفة راجحة يقبلها الشيعة الإيرانيون وغيرهم، رشحت لمنصب المرجعية عناصر غريبة ذات سمعة سيئة، ولبعضهم سجل حافل بالسوء، وذلك لتحسين صورة الخامنئي وموقعه بالمقارنة معهم.

فلذلك لا نستغرق عندما نعلم أن النظام المذهبي رشح اثنين. أحدهما يدعى الشيخ جواد التبريزي، والثاني محمد فاضل اللنكراني. ولكل واحد منهما سجل حافل بالفساد، فإن الشيخ جواد أعرفه من النجف كان مطعونا في أخلاقه الشخصية وعقائده وأعماله، وأذكر جيدا أن الإمام الخميني الذي كان آنذاك في النجف قد أمر بطرده من

ديوانه بسبب ما اشتهر عنه من أعمال سيئة، ومن العجيب أن يرشح هذا الشخص للمرجعية من قبل خلفاء الخميني. ولعل السبب في الالتقاء بين خصوم الأمس على غنائم المرجعية، هو ما قرأته بخط هذا الشيخ الفاسد الجاهل من أن من لم يعتقد بالأمانة السياسية فهو خارج عن المذهب، وبذلك أراد أن يعطى شرعية دينية لمنصب الخامنئى، ويحه من شيخ منافق متزلف خارج عن أصول العقيدة الإسلامية الحقة.!

أما اللنكر، فقد كان يعد من أوباش «قم» وسفهائها، وهوقفقازى روسى لا يحسن الفارسية، ناهيك عن العربية، فعين قاضيا فى محكمة الثورة بعد الشاه، وكان يجلس على منصة القضاء مبرقعا حتى لا يعرفه الحاضرون، وقد حَكَمَ بالموت على مئات من خيرة الشباب والفتيات. ومهما كان فهؤلاء الذين رشحهم النظام الإيرانى إنما رشحهم لإضعاف المرجعية وإنهاء نفوذها المعنوى بين القلوب، فوجود مراجع لهم السمع والطاعة يعتبر خطراً عظيما على مستقبل النظام، وعلى منصب مرشد الثورة وولاية الفقيه المدمرة للجنس والعقل البشرى، وفى الوقت نفسه سياسة لتوجيه النفوس إلى الخامنئى عندما يقارن بمن هو أسوأ منه. غير أن الخامنئى ليس هو فى عقيدتى وعقيدة الكثيرين، إلا مجرمُ حرب، فيده ملطخة بدماء الآلاف من المسلمين، إنه هو الذى أمر بتنفيذ الموت فيما يقارب من خمسة آلاف من المسلمين فتىً وفتاة، وأكثرهم فى عمر الورد كانوا يقضون عقوبة السجن لفترة وجيزة فى سجون إيران بسبب الانتماء إلى المجاهدين، فلما اضطرت إيران بقبول وقف إطلاق النار فى الحرب التى شنها صدام حسين المعتدى على إيران ظلما وعدوانا وحقدا، أراد النظام المذهبى الحاكم الذى كان رئيس جمهوريته آنذاك هو الخامنئى بعينه، أن يصب جام غضبه لتلك الهزيمة على المستضعفين الذين كانوا فى سجونه، فأمر بإعدام هؤلاء المسجونين فأعدموا فى أقل من

أسبوع، وهذا شيء يعرفه الجميع، فيا ويله من وقح يدعى الولاية، ليس على الشيعة فحسب، بل على المسلمين جميعا.

وهذا النوع من المنازعات لا يوجد عند السنة، فالمفتى تعينه الحكومة من بين الفقهاء، والناس يقبلون أحكامه، وهو لا يمد يده إلى أموال الناس ليحصل على معاشه ومعاش ذويه، وصلته بالناس صلة غير مباشرة، بل صلة من خلال العمل، وليست من خلال الإيمان والولاية. غير أن هذا لا يمنع أبدا من وجود علاقة روحية وعقيدية بين السنة ومراجعهم، وحسن الظن بما يصدر عنهم، وإن لم يكن خيرا. ولكن عندنا نحن الشيعة فإن ربط الشيعة بالمرجع الدينى، يتم ضمن معادلة غريبة، فمراجعنا ربطوا الشيعة بهم ربط العبد بالسيد، وكل كما يفعله حسن، بل أحسن من الحسن، وخير شاهد على ولاء كل فرقة بمرجعها، بغض النظر عما فعل من خيرا أو شرا، هو أن الأكثرية من أهل السنة إلى يومنا هذا، يبررون ما ارتكبه معاوية بن أبى سفيان من سفكه لدماء المسلمين، وقتله صحابة الرسول باسم «شيعة على»، وتعذيبه وسجنه للصفوة الخيرة من المسلمين رجالا ونساء، واستحواذه على أموال الأمة، وصرفها فى مآربه الشريرة، وتغييره لمسار الخلافة الراشدة إلى مُلْكً عضوض، وإرغامه المسلمين على مبايعه ابنه يزيد، وهدمه لكثير من دعائم الإسلام فى سبيل استقرار ملكه، إنما فعل كل ذلك، فى رأى كثير من أهل السنة عن اجتهاد أخطأ فيه، وله أجر على كل هذه الجرائم، ثم هو بعد ذلك يُخاطَب بأمير المؤمنين، ويقال فيه رضى الله عنه. أما الأكثرية من علمائنا نحن االشيعة الإمامية يتبعهم الملايين من أتباعهم، الذين يسبون معاوية ليل ونهار بسبب أعماله تلك، يعتقدون أن ما قام به الإمام الخمينى من شفك لدماء المسلمين الشيعة وغير الشيعة واستحواذ ذويه وأعوانه على أموال المسلمين وصرفها فى مآربهم الشريرة، وتأسيس مُلْكٍ عضوض يرثه خلفاؤه رغم إرادة الأمة الإيرانية، وتجريدها من حقوقها

المكتسبة بالنار والحديد، وأمره بقتل خيرة شباب وشابات الشيعة باسم «المنافقين»، وتأسيسه نظاما شريرا باسم ولاية الفقيه ووقوفه على تعذيب المعتقلين فى سجونه تعذيبا قاسيا همجيا وحشيا، ليل نهار، وهو راض عن ذلك أو محبذ له، إنما كان عن اجتهاد أصاب فيه، وله عند الله أجران، أجر الاجتهاد وأجر إصابة الحق، ثم بعد كل ذلك هو فى نظرهم إمام وآية الله وولى أمر المؤمنين، ويقال فيه رضوان الله عليه. وهكذا نرى أن الأمة الإسلامية شيعة وسنة تدفع ضريبة التبعية والولاء لمراجعها تحت مظلة الاجتهاد والخطأ فيه، إنها نتيجة واحدة لمنطق واحد حينما تكون العيون مبرقعة والعقول مقيدة.

ومن المفيد أن أسجل حديثاً مع أحد أعلام الشيعة حول مواضيع كتاب «المتآمرون»، فعندما حار جوابا سألنى بتلهف عظيم: فماذا نستطيع أن نعمل؟ فأجبته، وهذا الجواب خطاب لجميع مشايخنا بلا استثناء: «اتركو الإمام المهدى بسلام، فكفاه ما لقى منكم من إيذاء واضطهاد، ارفعوا أيديكم عن الشيعة وأموالهم، فكفاهم ما دفعوا من ضريبة النفس والمال، لا تدّعوا الولاية عليهم فقد كفاهم ما لقوا من الاضطهاد، اتركوا الإمام المهدى وشيعته المسلمين، حيث وضعهم الله فى موضع العز والكرامة، فلعل الله يغفر لكم ذنوبكم، ويغفر لكم خطاياكم، إنه تواب رحيم.

الفهـــرس

رقم الإيداع
١٩٩٦ / ٨٥٥٢
التوقيع الدولى.I.S.B.N
977 - 208 - 172 - 5

المطبعه الفنية
٢٢ ش الشفقاتيه متفرع من شارع الساحه عابدين
ت : ٣٩١١٨٦٢

المتآمرون

على المسلمين الشيعة

ونحن – مع اختلافنا مع المؤلف في بعض مواقفه وتحليلاته – إلا أننا كما قلنا ونقول عنه ننظر إليه علي أنه قام في ثورته الإصلاحية بنفس الدور الذي قام به الفيلسوف الألماني مارتن لوثر في ثورته البروتستية الاجتماعية ضد هيمنة الكنيسة في العصور الوسطي الأوروبية والتي كانت عاملاً منشطاً للإصلاح الديني في عصر النهضة، ولهذا يجب علينا أن نأخذ صنيعه مأخذ الجد، فنعقد المؤتمرات التي تضم أهل الشيعة وأهل السنة، ونناشد الجامعات ومعاهد العلم ووسائل الإستنارة لنناقش دعاواه في حرية ودون تعصب، ونخرج من ذلك كله برصيد معرفي نقوّم به أخطاء الماضي والحاضر، ونهيئ أنفسنا – وبالتالي عوام المسلمين – لمستقبلٍ مشرق خالٍ من الحقد والسخيمة والكراهية، ومفاهيم (المخالفة) والابتزاز والطغيان.. وبهذا نأخذ مكاننا اللائق علي هذا الكوكب: أمة واحدة وعقيدة واحدة..

ولسوف نحسد أنفسنا أن الله سبحانه قد أطال في أعمارنا حتي شهدنا عصر الانسجام الديني الباعث علي حياة كريمة.. وعندما نغيِّر أنفسنا في ضوء ذلك.. فإن الله سبحانه سيغير حالنا إلي الأفضل والأمثل.

من مقدمه

أ.د إبراهيم بسيوني